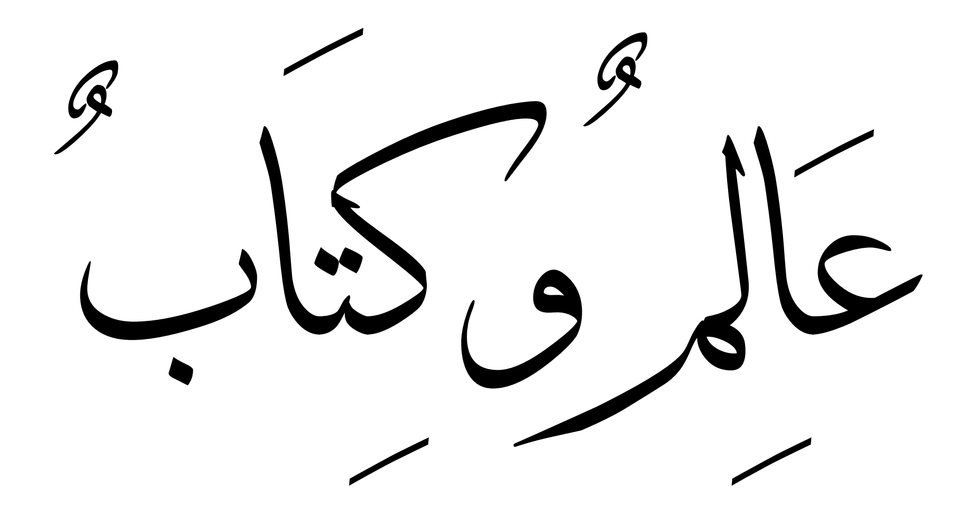


مقالات نشرت في مجلة "الأمة"

1401 – 1406هـ

جمع وتنسيق:

مسعود الغسيري



أصدرتها إدارة الشؤون الإسلامية

برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية فى دولة قطر

ما بين محرم 1401هـ - نوفمبر 1980م

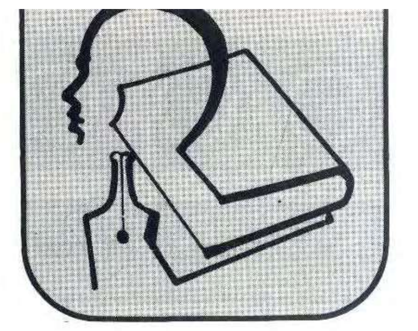
وذي الحجة 1406 هـ - أغسطس 1986م

البيانات التوثيقية لهذه المقالات

ملاحظة: رتبت المقالات بحسب الترتيب التاريخي لحياة العلماء، دون مراعاة الترتيب الزمني للأعداد التي نشرت فيها.

الرقم	عنوان المقال	كاتب المقال	رقم العدد	تاريخ صدور العدد	أرقام الصفحات
01	الخليل بن أحمد الفراهيدي وكتابه (العين)	عودة أبو عودة	31	رجب 1403هـ	80-78
02	أبو يوسف وكتابه (الخراج)	رفعت السيد العوضي	36	ذو الحجة 1403هـ	31-26
03	محمد بن الحسن الشيباني وكتابه (الكسب)	رفعت السيد العوضي	32	شعبان 1403هـ	53-48
04	أبو داود السجستاني وكتابه (السنن)	عبد الرحمن البر	47	ذو القعدة 1404هـ	32-30
05	ابن جرير الطبري وكتابه (جامع البيان في تفسير القرآن)	خالد بن جدية	58	شوال 1405هـ	69-67
06	ابن جرير الطبري وكتابه (تهذيب الآثار)	إبراهيم السامرائي	44	شعبان 1404هـ	35-32
07	الزَّجَّاج وكتابه (معاني القرآن وإعرابه)	عبد الودود شلبي	33	رمضان 1403هـ	71-69
08	ابن مجاهد وكتابه (السبعة في القراءات)	أمة الله الودود	69	رمضان 1406هـ	55-52
09	الماوردي وكتابه (أدب الدنيا والدين)	أحمد لكطيف	13	محرم 1402هـ	32-30
10	ابن عبد البر وكتابه (التمهيد)	عبد العزيز فارح	59	ذو القعدة 1405هـ	66-64
11	ابن حزم وكتابه (الأخلاق والسير)	أحمد لكطيف	27	ربيع الأول 1403هـ	27-24
12	عبد القاهر الجرجاني وكتابه (أسرار البلاغة)	خالد بن جدية	60	ذو الحجة 1405هـ	29-26
13	القاضي عياض وكتابه (الشفا)	أحمد لكطيف	39	ربيع الأول 1404هـ	29-26

14	الشريف الإدريسي وكتابه (نزهة المشتاق)	أنور عبد العليم	46	شوال 1404هـ	25-24
15	أسامة بن منقذ وكتابه (الاعتبار)	عبد القدوس أبوصالح	7	رجب 1401هـ	31-27
16	ابن طفيل وقصته (حي بن يقظان)	أنور جعفر	66	جمادى الآخرة 1406هـ	34-30
17	الرجراجي وكتابه (هداية من تولى غير الرب المولى)	محمد عبد الحميد عيسى	52	ربيع الآخر 1405هـ	31-26
18	أبو الحسن القفطي وكتابه (إخبار العلماء)	محمد عبده الحجاجي	16	ربيع الآخر 1402هـ	23-22
19	ابن خلكان وكتابه (وفيات الأعيان)	محمد عبده الحجاجي	23	ذو القعدة 1402هـ	64-62
20	ابن منظور وكتابه (لسان العرب)	محمد سيد بركة	14	صفر 1402هـ	32-30
21	ابن القيم وكتابه (إعلام الموقعين)	أحمد لكطيف	18	جمادى الآخرة 1402هـ	73-72
22	الفيروزأبادي وكتابه (بصائر التمييز)	عودة خليل أبوعودة	67	رجب 1406هـ	53-50
23	أبو جعفر النحاس وكتابه (القطع والائتناف)	أحمد محمد الخراط	37	محرم 1404هـ	27-26
24	محمد توفيق البكري وكتابه (المستقبل للإسلام)	علاء الدين وحيد	15	ربيع الأول 1402هـ	31-28
25	مصطفى عبد الرازق وكتابه (تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية)	علي بركات	20	شعبان 1402هـ	91-90
26	محمد الصادق عرجون وكتابه (محمد رسول الله ﷺ)	عبد الستار الشيخ	63	ربيع الأول 1406هـ	73-70



كتاب «العين»
الخليل بن أحمد الفراهيدي

عالم وكتاب

■■ درج أكثر الكتاب الذين يحملون القلم العربي أن يستخدموا أفعل التفضيل في الحكم على من يكتبون عنهم، فيقولون : كان فلان أشعر الشعراء في العصر الجاهلي مثلاً ، وفلان أفصح الأدباء في العصر الأموي ؛ وإني على الرغم من تحفظي على هذا الحكم إذا صدر على كثير من أهل الذكر في كل مجال ، فإني أرتضيه وأستريح له إذا كان الحديث عن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، لأن الخليل كان أول من وضع للناس :
- معجماً في اللغة ،
- ومقياساً لوزن الشعر ،
- وقواعد لضبط اللغة ،
- ونظاماً دقيقاً لحركات الإعراب ... ■■

وإذا تحدث امرؤ عن **الخليل** فإنه لابد أن يعرض - بإيجاز أو إسهاب - هذه الأوليات الرائدة في مجال الفكر العربي ؛ عندئذ يظهر له أي مفكر كان **الخليل بن أحمد الفراهيدي** .

فهذه المجالات الفكرية متصلة متداخلة ، تدل على عقلية علمية منظمة واعية ، تضع المقدمات ، وتصل إلى النتائج الدقيقة بعد بحث دقيق ، وتجربة مستمرة ، وملاحظة واعية خلال ذلك كله ، الأمر الذي يؤكد للباحث أن **الخليل بن أحمد من أوائل من مهدوا السبيل إلى اتخاذ المنهج العلمي التجريبي طريقاً للبحث . وهذه أولية يجب أن تضاف إلى مجالاته الكثيرة التي تشكل ملامح شخصيته العلمية الفريدة** .

ولم تعرف اللغة العربية قبل كتاب « **العين** » سوى محاولات لجمع الكلمات التي تتصل بأحد الأغراض الحسية أو المعنوية ، كأن ينهض عالم أو لغوي أو نحوي لجمع الكلمات التي تتصل بالسيف مثلاً ، أو بالزرع ، أو بالشباب أو بالهرم ، من ذلك ما صنعه أبو خيرة الأعرابي في كتابه « **الحشرات** » وكانت هذه المحاولات تسمى : **جمع غريب اللغة** .

ولكن **الخليل** كان يفكر في نظام يجمع فيه كلمات اللغة كلها في مصنف واحد ، وكان لابد أن يفكر في نوع من الإحصاء يحصر مفردات اللغة العربية المتداولة جميعها . وما هو إلا أن أعمل فكره الرياضي ، وأمعن النظر في الموضوع الذي كرس له كل اهتمامه ، حتى خرج على الناس بنظام حصر فيه كل المفردات الممكنة من تآلف حروف اللغة بعضها مع بعض ، سواء ما كان منها مستعملاً أو غير مستعمل ، مهجوراً أو مهملاً ، ذلك هو نظام التقليبات أو نظام الدوائر ؛ وقد نظر الخليل في صيغ الكلمة العربية ، فوجد أنها لا تعدو الصيغ التالية :

١ - **الثنائي** :
وأراد به ما اجتمع فيه حرفان من الحروف الصحيحة ، ولو مع تكرار أحدهما في أي موضوع ، وهذا يشمل كلمات مثل : قد ، قَدْقَدَ ، عق ، عَقّ ، عقعق ، عقيقة ، عقق ، وهكذا .

٢ - **الثلاثي الصحيح** :
أي ما اجتمع فيه ثلاثة حروف صحيحة على أن تكون من أصول الكلمة .

٣ - **الثلاثي المعتل** :
وأراد به ما اجتمع فيه حرفان صحيحان وحرف واحد من حروف العلة ، حيثما كان موضعه ؛ وهذا يشمل ما عرف عند الصرفيين بالمثال والأجوف والناقص .

٤ - **اللفيف** :
وهو ما اجتمع فيه حرفا علة في أي موضع ، أي ما يسميه الصرفيون : اللفيف المقرون ، واللفيف المفروق .

٥ - **الرباعي** :
وهو ما تألف من أربعة أحرف .

٦ - **الخماسي** :
وهو ما تألف من خمسة أحرف .

٧ - **المعتل** :

■ الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من وضع معجماً في اللغة .
■ كان من أوائل من مهدوا السبيل إلى اتخاذ المنهج العلمي التجريبي طريقاً للبحث .

وهو ما دخلت فيه الهمزة ، بحجة أنها قد تسهل فتنقلب إلى أحد حروف العلة .

وقد اتبع **الخليل** الترتيب السابق عند معالجة الكلمة في الفصل الذي تقع فيه .

أما كيفية تحديد الفصول ، وحصر مفردات اللغة ، فقد وجد الخليل أن أبنية كلام العرب تكون على أربع درجات : **الثنائي ، والثلاثي ، والرباعي ، والخماسي** ، شريطة أن تكون حروف الكلمة أصلية لا زوائد فيها . وقد بدأ **الخليل** بأن جعل كل كلمة في دائرة ، وجعل كل حرف في الدائرة أصلاً ، ثم سار على يمين الحرف ، فضم كل الحروف التي قابلته في كلمة ، ثم سار على يسار الحرف ، فضم كل الحروف التي قابلته في كلمة ، وبذلك يكون قد سجل كلمتين تبدأ كل منهما بذلك الحرف . ثم ينتقل في الدائرة نفسها إلى حرف ثان فيجعله أصلاً ، ثم يفعل فيه مثل ما فعله في الحرف الأول ، فتتكون معه كلمتان أيضاً ، وهكذا ... **فإذا كان الأصل ثنائياً نتج معه من تقليب حَرْفَيْهِ كلمتان ، أما إذا كان الأصل ثلاثياً ، فإنه يحصل على ست كلمات ، هكذا** :

ع ـ O ـ ق : **عق ، قع** .

ك

ت ـ O ـ ك ـ ب : **كتب ، كبت ، تبك ، تكب ، بتك ، بكت** .

وهكذا الشأن مع كل كلمة . فإذا كانت الكلمة مستعملة أورد **الخليل** معناها وأورد معه من الآيات والأحاديث والشواهد الشعرية والأقوال ما يدل على ذاكرة عجيبة ، وحافظة واعية . وإذا كانت الكلمة مهجورة أو غير مستعملة قال الخليل عنها ذلك . وبذلك استطاع حصر كل كلمات اللغة بطريقة رياضية محكمة .

وهنا لابد أن ينبعث سؤال ، **ما الترتيب الذي اتبعه الخليل في ترتيب حروف اللغة ؟**

إن الترتيب الذي ابتدعه **الخليل هو** أيضاً شيء جديد لم يكن معروفاً من قبل ، ولم يكن **الخليل** مسبوقاً فيه .

كانت بين يدي **الخليل** طريقتان في ترتيب حروف اللغة :

الأولى :

الطريقة الأبجدية ، وهي التي تجتمع فيها حروف اللغة في كلمات : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ . وقيل : إن هذه الطريقة وردت من اللغة الفينيقية ، ثم من اليونانية .

الثانية :

الطريقة التي تضم الحروف المتشابهة بعضها إلى بعض ، كما هي **اللغة الحبشية** ، وهذه الطريقة على صورتين :

الأولى :

صورة انتشرت في المغرب ، وهي **النظام الحبشي** تماماً ، وترتب فيها الحروف على الشكل التالي : **أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ي** .

الثانية :

صورة انتشرت في المشرق ، ولا تزال هي المستخدمة فيه حتى الآن ، وترتب فيها الحروف كما يلي : **أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ي** .

أعرض **الخليل** عن هاتين الطريقتين **ورتب الحروف حسب مخارجها وأصواتها ، وقد كان للخليل إلمام واسع بالصوت والإيقاع ، وليس بعيداً أن يكون اهتمامه بالأصوات هو الذي هداه إلى هذا الترتيب** ، وهو الذي دله أيضاً على وضع أصول علم العروض الذي يقوم أولاً وأخيراً على **تلمس الإيقاع الصوتي في تآلف الحروف والكلمات في البيت الشعري** .

وقد بسط **الخليل** في كتابه « **العين** » الكلام في هذه الحروف ومخارجها **فعدها تسعة وعشرين حرفاً ، جعل منها خمسة وعشرين حرفاً صحاحاً لها احياز ومدارج ، كما جعل منها اربعة هوائية** :

(أ) **أما الصحاح ، فهي على وفق ما رتبها الخليل** :

١ ـ **العين ثم الحاء ثم الهاء من حيز واحد** ، وبعضها أرفع من بعض .

٢ ـ **الخاء والغين من حيز واحد** ، وهذه الحروف الخمسة يلقبها بالحروف الحلقية .

٣ ـ **القاف والكاف لهويتان** ، لأن مبدأهما من اللهاة ، والكاف أرفع .

٤ ـ **الجيم والشين والضاد في حيز**



■ استطاع أن يحصر كلمات اللغة بطريقة رياضية محكمة .
■ قال أحد تلامذته : « أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو في خص لا يشعر به » .

واحد ، وهي حروف شجرية لأن مبدأها من شجر الفم وهي مفرجة .

٥ - **الصاد والسين والزاي من حيز واحد** ، وهي حروف أسلية مبدأها من أسلة اللسان ، وهي مستدق طرفه .

٦ - **الطاء والدال والتاء من حيز واحد** ، وهي حروف نطعية لأنها تخرج من نطع الغار الأعلى .

٧ - **الظاء والذال والثاء ، في حيز واحد** ، وبعضها أرفع من بعض ، وهي حروف لثوية .

٨ - **الراء واللام والنون ، في حيز واحد** ، وهي حروف ذلقية ، لأن مبدأها من ذلق اللسان ، وهو تحديد طرفه .

٩ - **الفاء والياء والميم ، في حيز واحد** ، وهي حروف شفوية لأن مبدأها من الشفقة .

(ب) **أما الحروف الهوائية فهي** : الياء والواو والألف والهمزة ، وليس لها حيز تنسب إليه إلا الهواء . غير أنه جعل الواو والألف والياء قسماً ، والهمزة وحدها قسماً .

وترتيب الحروف عند الخليل يتضح في المجموعات التالية :

ع ح هـ خ غ - ق ك - ج ش ض - ص س ز - ط د ت - ظ ذ ث - ر ل ن - ف ب م - و ا ي - الهمزة .

وهذا التقسيم لا يختلف كثيراً عما قدمه العلم الحديث الذي يعتمد على معامل الأصوات ومختبراتها ، هذه المعامل التي ترصد حركة اللسان رصداً دقيقاً وتسجل الصوت الناتج عن التقاء اللسان بأي جزء من أجزاء الفم ، وتصور ذلك في صور واضحة يتفرس فيها الدارس أو الباحث كيفما شاء .

وقد سمى **الخليل** كتابه هذا « **العين** » ، وهو أول حرف اعتمده في ترتيبه . ولم يغب عن **الخليل** أن الهمزة أعمق الحروف مخرجاً ، ولكنه وجد من تغيرها وتسهلها سبباً في عدّها من حروف العلة ؛ كما وجد أن الهاء ما هي إلا إرسال الهواء خارج الحلق . وقد أدرك أيضاً أن العين والحاء من مخرج واحد إلا أن العين أنصع .

وهكذا حظيت **العين** بأن تكون علماً على أول معجم في اللغة ، سار على طريقه عدد من علماء اللغة الكبار من أمثال ابن دريد في « **الجمهرة** » والأزهري في « **تهذيب اللغة** » وأبي علي القالي في « **البارع** » وابن سيدة في « **المحكم والمحيط الأعظم** » .

وحبذا لو اتسع المجال لعرض صفحات من هذا المعجم الكبير ، إذن للمس القارىء أي جهد بذله **الخليل** في جمع مادة هذا السفر الكبير ، وأي عناء قاساه وهو يلزم نفسه بهذا المنهج الذي اتخذه ، فإذا ذكرنا أن الخليل عني في كتابه عناية كبيرة باللغات ، **أو ما نسميه اليوم باللهجات** ، كنعنعة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وعجعجة قضاعة ، ولهجات حمير وهذيل ، علمنا أي رجل ، وأي عالم ، وأي لغوي ، هو : **الخليل بن أحمد الفراهيدي** .

ومن الإشارات الدالة في حياة هذا الرجل الغني بعمله أنه كان فقيراً في حياته ، بل الأصح أن أقول : إنه كان زاهداً في متاع الحياة الدنيا . إنني لا أزال أقلب النظر في عبارته المأثورة : « **إني لأغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همي** » ، فأجد الفرق الكبير بين عالم نذر حياته للعلم ، لخدمة لغته الشريفة ، وصيانتها ، وبين علماء مدعين ، لم يفعلوا شيئاً سوى الانشغال في الطريقة التي يخرجون فيها أسماءهم ، ويملؤون فيها جيوبهم .

قال **النضر بن شميل** ، أحد تلامذة **الخليل** :

« أكلت الدنيا بعلم الخليل ، وهو في خص لا يشعر به » .

ومما يروى له من زهده وتعففه أنه أقام في البصرة في خص لا يقدر على فلسين ، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال ؛ وقد أرسل إليه سليمان بن علي - والي البصرة - لتأديب أولاده ، نظير راتب يجريه عليه ، فأخرج خبزاً يابساً ، وقال للرسول : « ما دام هذا عندي ، فلا حاجة لي فيه » - يعني سليمان بن علي ، وكتب إليه شعراً يقول فيه :

أَبْلِغ سليمان أنّي عَنْهُ في سعةٍ
وفي غنى غير أني لست ذا مال
شحاً بنفسي ، أني لا أرى أحداً
يموت هزلاً ، ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

أوليست هذه - أيضاً - سابقة من سوابقه ، وبادرة من بوادره التي لم يسبقه فيها أحد من العلماء .

حقاً ، لقد سمي كتابه « **العين** » **لا لأنه بدأه باسم العين ، فقط ، بل لأنه كان وما يزال عيناً في الكتب ، ولأنه هو أيضاً عين في العلماء ، من أجَلِّ الأعيان ، هذا الخليل بن أحمد الفراهيدي** .



تحليل اقتصادي لكتاب (الخراج) للقاضي أبي يوسف ١١٣ - ١٨٢م

عالم وكتاب

مدخل إلى الدراسة :

■■ مؤلف هذا الكتاب هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبتة ، وكنيته أبو يوسف ، وسعد بن حبتة هو أحد أصحاب رسول الله ﷺ ...

وُلد أبو يوسف في الكوفة في عام ١١٣هـ وهي في ذلك الوقت من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي . وكان يغشى مجالس العلماء في مختلف الفنون ، وله مشاركة في كثير من العلوم ، ويقال إنه كان يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب ، وقد لزم أبا حنيفة وتفقه عليه وصار واحداً من أهم أصحابه . وهو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ، ومن هنا يعدونه أحد أصحاب المذهب[1] . تولى القضاء لهارون الرشيد . له مؤلفات كثيرة في فنون متعددة . كان له ابن يقال له يوسف ، ولي القضاء في حياة أبيه وتوفي أبو يوسف رحمه الله عام ١٨٢هـ ببغداد[2] .. ■■

الكتـــــاب :

مؤلَّف أبي يوسف الذي نهتم بعرضه هنا هو المسمى باسم « كتاب الخراج »[3] ، كتبه إلى هارون الرشيد الخليفة العباسي [٧٦٦ - ٨٠٩م] . وسجل ذلك في مقدمة كتابه بقوله : « إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج ، والعشور والجوالي ، وغير ذلك مما يجب النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصلاح لأمرهم . وفق الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما يخاف ويحذر . وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به ، وأفسره وأشرحه . وقد فسرت ذلك وشرحته (ص٣) .

بعض التسـجيلات حـول مقدمة الكتاب

ما قاله أبو يوسف في مقدمة كتابه يعطينا بعض التسجيلات :

(١) **يصنف كتاب الخراج فيما نسميه في الاقتصاد باسم : « المالية العامة » .**

وعندما نستخدم هذا المصطلح نعني به تقليدياً : ما يتصل بمشكلات السياسات الاقتصادية فيما يتعلق بالضرائب والإنفاق .

والمصطلح على هذا النحو قابل للانتقاد ، إذ يعاني من القصور ، ذلك أن ما يدرس في هذا الفرع من فروع الاقتصاد يتضمن كل ما يتعلق بإيرادات الدولة وإنفاقها ، والبيان الذي يوضح ذلك هو ما يسمى باسم الميزانية العامة للدولة .

(٢) ما دام أن **كتاب الخراج** هو كتاب في « المالية العامة » ، **فإن هذا يسجل سبقاً للاقتصاد الإسلامي** .. إذ الكتاب وضع في القرن الثاني الهجري ، ويوافق ذلك القرن الثامن الميلادي . أي أنه وضع في الفترة التي نصنفها في الاقتصاد الوضعي تحت مصطلح العصور الوسطى[٥٠٠ - ١٥٠٠م] وليس لهذه الفترة مساهمة في الفكر الاقتصادي ، وهذا باتفاق كل الاقتصاديين الذين كتبوا عن تاريخ الفكر الاقتصادي .

(٣) في مقدمة **أبي يوسف** تسجيل آخر . أنه كتب لأمير المؤمنين بعد أن طلب منه ذلك . ويذهب التسجيل هنا إلى تسجيلات عدة ..

التسجيل الفرعي الأول : **هو أن الاقتصاد الإسلامي كان يحكم الحياة الاقتصادية اعتقاداً وسلوكاً** ، حين كتب **أبو يوسف** . وكانت الفترة التي كتب فيها من أزهى مراحل الحضارة الإسلامية ، ويدخل في ذلك الاقتصاد . ويعني ذلك أن اقتصادنا لم يعق التقدم الاقتصادي ، بل انه كان بالحتم أحد مرتكزات هذه الحضارة الإسلامية . وهذه رسالة لنا قبل أن تكون تسجيلاً على مقولات أبي يوسف . **يذهب التسجيل الفرعي الثاني** : **إلى طبيعة ما قاله أبو يوسف في كتابه ، إن ما قاله هو خطة مالية للدولة الإسلامية** ، حدد فيها الإيرادات والنفقات ، وحدد مع ذلك الكثير مما يدخل في موضوعات الخطة المالية ، وهو ما سعى إليه عند عرض ما في الكتاب . أي أننا في الاقتصاد الإسلامي نملك خطة مالية قبل أن يعرف الاقتصادي الوضعي هذا المصطلح بأكثر من عشرة قرون . **تسجيل فرعي ثالث يذهب إلى إدارة الاقتصاد الإسلامي** ، إن الأمر هنا أمر تخصص ، الدراسة عمل المتخصصين والقرار وإن اتخذ على مستوى سياسي إلا أنه محكوم بمقولات المتخصصين في الاقتصاد ، ولعلنا بهذا نوجه رسالة إلى كل الحكومات الإسلامية التي تعمل فيها أخطر القرارات الاقتصادية في غياب أية دراسة من المتخصصين الاقتصاديين ، ونقول عن ذلك نحن الذين أتيحت لهم دراسة في اقتصاديات التنمية إن هذه واحدة من خصائص البلاد المتخلفة ، وهي في الوقت نفسه واحدة من عقبات التنمية الاقتصادية .

بقلم : د. رفعت السيد العوضي

■ كتب أبو يوسف «الخراج» في القرن الثاني الهجري والارتباط بهذا التاريخ يسجل أهمية وسبقاً لاقتصادنا الاسلامي.

(٤) قبل عرض الخطة المالية، يضع **ابو يوسف ما نسميه الأساس الاقتصادي الذي ننطلق منه إلى الاقتصاد**. يقول موجهاً الخطاب إلى أمير المؤمنين «أصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم، وابتلاك بهم وولاك أمرهم، وليس يلبث البنيان - إذا أسس على غير تقوى الله - ان يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه، فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله، (ص٣). هكذا إن الأساس الذي يقوم عليه الاقتصاد الإسلامي ويبدأ به هو تقوى الله، وتقوى الله معروف معناها وأبعادها في الفكر الإسلامي. نذكر في هذا الصدد بما يقال في الاقتصاد الوضعي عن سبب فشل التنمية الاقتصادية في البلاد المتخلفة، وأن ذلك يرجع إلى الفراغ العقائدي[1]. ما قاله **أبو يوسف** عن الأساس الذي ينطلق منه الاقتصاد الإسلامي رسالة لعصره ورسالة لعصرنا.

وهكذا، فإذا كنا نرتبط الآن ببعض تطبيقات الاقتصاد الإسلامي، كبنك على سبيل المثال، فإن معتقدنا يجب أن يبقى في أن نجاح الاقتصاد الإسلامي مرهون بتقوى الله، هذه قضية الأساس.

(٥) **التسجيل الخامس الذي نراه في مقدمة ابي يوسف يثير قضية كيفية وضع خطة اقتصادية**، أو بعبارة أسهل: كيفية اتخاذ القرار الاقتصادي. ويتضمن هذا التسجيل ثلاثة تسجيلات فرعية. **التسجيل الفرعي الأول: عن مسؤولية المتخصصين ان يقولوا رأيهم في الأمور التي تمس تخصصهم**. قال أبو يوسف لهارون الرشيد ما اعتقد أنه التشريع الذي يصلح مالية الدولة. وقال ذلك بقوة العالم وثباته ويقينه. يخاطب هارون الرشيد، أكبر حكام عصره: **فاقم الحق فيما ولاك الله... واجعل الناس عندك في أمر الله سواء، القريب والبعيد.. وإني اوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك الله، والا تنظر في ذلك إلا إليه، فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى وتعمى في عينيك وتنعفي رسومه ويضيق عليك رحبه**... (ص٤٥، ٥٠).

تذكرنا مواقف أبي يوسف المعلنة والقوية بمواقفنا نحن الاقتصاديين في العالم الإسلامي. في عالمنا الإسلامي، نطلب نحن الاقتصاديين بعد أن يقرر السياسيون ما يرون في أمور الاقتصاد، ونجيء نحن لنكيل المديح والثناء على العبقرية وغيرها من صفات التبجيل. ثم يفشل ما قرر اقتصادياً وبرهان الفشل أنه برغم كثرة ما قيل عن خطط اقتصادية، فإن العالم الإسلامي لا يزال متخلفاً. ونجيء نحن الاقتصاديين هذه المرة لنبرر ونختلق المعاذير.

التسجيل الفرعي الثاني عن دراسة ما يطلب الراي فيه اقتصادياً. يقول ابو يوسف: قد اجتهدت لك في ذلك، لم آلك والمسلمين نصحاً، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه... (ص٦).

هكذا حين يطلب الرأي من المتخصص، فإنه لا يقول عن هوى، وإنما يقول عن دراسة، يقول وهو واضع نفسه تحت رقابة صحيحة.

التسجيل الفرعي الثالث عن قبول من في السلطة لراي المتخصصين واستشارة المسؤولين في عمله. وقد أسهب في ذلك أبو يوسف، وقال الكثير عن النماذج السلوكية التي أعطاها الرسول ﷺ، ومن بعده الخلفاء مثل **أبي بكر وعمر**. ونقل عن النبي ﷺ لما سأله **أبو ذر** عن الإمارة: أنت ضعيف، وهي أمانة، وهي يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى ما عليه فيها. ونقل عن عمر رضي الله عنه: أيها الناس إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعونة على الخير.

الموضوعات التي كتب عنها المؤلف..

يمكن أن تقسم الموضوعات التي عناها أبو يوسف في كتابه محل البحث إلى ثلاثة موضوعات:

١ - الموضوع الأول الذي استغرق الجزء الرئيسي في الكتاب هو ما نصنفه في المالية العامة تحت عنوان **الإيرادات**.

٢ - الموضوع الثاني الذي بحث تبعاً، هو ما نصنفه تحت عنوان **النفقات**.

٣ - أما الموضوع الثالث الذي تضمنه الكتاب فنقترح أن يصنف تحت عنوان **اخلاقيات النظام المالي في الاقتصاد الإسلامي**.

وسوف نعرض هذه الموضوعات الثلاثة وفق الترتيب السابق.

الإيرادات...

انواع الإيرادات التي يتكلم عنها **ابو يوسف هي** الموضوعات التي درج الفقهاء على دراستها في كتب الفقه. وما أراه: ألا ننفق وقتاً لتتبع ما قاله عنها إذ ان ذلك أصبح معروفاً، والأكثر فائدة هو أن نحللها بلغة اقتصادية حديثة، وسوف يأخذنا ذلك إلى ما في كتاب الخراج من اقتصاد إسلامي.

إيرادات الممتلكات..

(١) الإيرادات التي كتب عنها **ابو يوسف لهارون الرشيد** ينظم بها مالية الدولة الإسلامية تشمل الإيرادات التي نصنفها حديثاً في المالية العامة تحت **مصطلح الضرائب والرسوم**، وتشمل نوعاً آخر من الإيرادات هي إيرادات الدولة

من ممتلكاتها . من أمثلة النوع الأول : الزكاة ، الغنيمة ، الفيء ، الخراج .

ومن أمثلة النوع الثاني : إيراد الدولة من ممتلكاتها ، مثل إيرادها من الأرض المعروفة باسم أرض السواد . ويعني الوجه الاقتصادي لظهور نوعي الإيرادات في التنظيم المالي الإسلامي أن الاقتصاد الإسلامي من حيث طبيعته المذهبية ليس من قبيل الاقتصاديات الفردية ، أو ما تسمى بعبارة أخرى : اقتصاديات السوق أو الاقتصاد الرأسمالي ، وأيضاً ليس من قبيل الاقتصاديات الجماعية ، أو ما تسمى بعبارة أخرى : اقتصاديات التدخل أو التخطيط ، أو الاقتصاد الاشتراكي .

المال الذي يخضع لفرض العشور

(٢) ظهرت العشور ضمن الإيرادات المالية للدولة الإسلامية ، وهي تقابل حديثاً ما نسميه الرسوم أو الضرائب الجمركية . ويكشف ما قاله أبو يوسف عن تنظيم متقدم لهذا النوع من الالتزامات المالية . المال الذي يخضع لفرض العشور عليه هو ما يكون للتجارة . وهذا مبدأ لقانون جمركي يعكس تنظيماً متقدماً .. وهناك مبلغ معفى من الخضوع للجمارك ، وهذا أيضاً سبق إسلامي . في الأمثلة التي ذكرها أبو يوسف ما قد يسمح أن نبحث موضوع منع ازدواج الضرائب الجمركية ، وذلك فيما ذكره عن منع خضوع المال نفسه للضريبة الجمركية مرتين . وهذه القاعدة مرفوعة إلى **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه .

لا يعفى مال من الخضوع للالتزامات المالية وقد يختلف المعدل

(٣) إذا حللنا الأموال التي ذكرها **أبو يوسف** والتي تخضع لنوع من الالتزامات المالية الإسلامية ، فإن هذا التحليل يبين أنه لا يوجد مال يعفى من الخضوع للالتزامات المالية في الاقتصاد الإسلامي ، وأيضاً لا يوجد نشاط اقتصادي مميز بعدم الدخول أو المساهمة في وعاء مالية الدولة الإسلامية . وإذا سجل هذا في ضوء ما قاله **أبو يوسف** ، فإن مما يسجل أيضاً اختلاف المعدل الذي يستقطع به من كل مال . ويكشف التحليل الاقتصادي أن اختلاف المعدل يربط إما بالتفاوت في التكلفة الخاصة بكل مال أو نشاط اقتصادي ، وإما بصفة خاصة بهذا المال ، ومثال على النوع الأخير فرض الخمس على ما يخرج من البحر .

المساواة الاقتصادية بين المسلمين وغير المسلمين

(٤) يدخل في الوعاء المالي للدولة الإسلامية المسلمون ، ويدخل معهم أيضاً غير المسلمين الذين يقيمون إقامة مشروعة في الأراضي الإسلامية . ويشير ذلك إلى درجة المساواة الاقتصادية في الدولة الإسلامية . وهذا برغم اختلاف المعدل الذي قد يفرض به الالتزام المالي ، أو اختلاف مسمى هذا الالتزام .

ضريبة الرؤوس ضريبة غائبة .

(٥) ضريبة الرؤوس ضريبة شبه غائبة في النظام المالي الإسلامي ، بل لا نتعدى الحقيقة إذا قلنا إنها غائبة . لا تفرض ضريبة الرأس على المسلم ، وما يقع عليه من التزامات فإنما يرد على ماله . **ولا يمكن أن نعد زكاة عيد الفطر من قبيل الضريبة على الرؤوس . ضريبة الرؤوس على غير المسلمين تتمثل في الجزية** . ويتبين من تحليل هذا الالتزام المالي **أن الجزية تفرض على غير المسلمين ، بشروطها ، مقابل الزكاة التي فرضت على المسلمين . والزكاة هي التزام يرد على المال ، وليس على الشخص ، وكان الجزية بهذا هي التزام يقع على المال** لأنه في مقابل التزام يقع على مال . وبجانب ذلك فإن في التشريع الإسلامي للجزية جوانب أخرى تجعل الضريبة على الراس فكرة يمكن أن تغيب في الاقتصاد الإسلامي . من ذلك **أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسقط الجزية عن نصارى بني تغلب لأسباب ارتآها وضاعف عليهم الصدقة** ، أي أنه أسقط ضريبة الرأس واستبدلها بالتزام يقع على المال (ص١٢٩ ـ ١٣٠) .

■ **برغم كثرة ما قيل عن خطط فإن العالم الإسلامي لايزال متخلفاً والاقتصاديون يضعون المبررات ويختلقون المعاذير .**

النفقات ...

قد يعتقد أن النفقات لم تكن موضوعاً مستهدفاً مباشراً في كتاب **القاضي أبي يوسف** ، وذلك بسبب أنه افتتح كتابه : **إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى** سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج ، والعشور والصدقات والجوالي .. (ص٣) . وهذا الاعتقاد السلبي يضع تساؤلاً عما إذا كان **الخراج** كتاباً في المالية العامة بالمعنى الذي يفهم به هذا المصطلح في علم الاقتصاد .

فالنفقات أحد العناصر المالية العامة ، واستطراداً من هذا التساؤل التشكيكي ، فإن من يعتقد فيه ينتقل إلى الحكم على **كتاب الخراج** بأنه ليس أكثر من كتاب إيرادات الدولة الإسلامية .

ونحن نكتب عن **الخراج** . كيف نرى هذا الكتاب ؟ لا نقر الاعتقاد السلبي ، **ولهذا يسقط التساؤل التشكيكي المثار عنه** ، وسوف يظهر هذا في السياق الذي يرد . على غرار كتابنا عن الإيرادات في الفقرة السابقة ، سوف نبحث النفقات في **كتاب الخراج** ، يعني ذلك أننا لن نتتبع أنواع النفقات التي تكلم عنها **أبو يوسف** ، وننفق في ذلك الوقت والجهد ، وإنما سوف نتجه إلى دراسة تحليلية اقتصادية ، وهذا يتجه بنا في الدراسة إلى فهم المعطيات الاقتصادية في الكتاب موضوع البحث .

قضية استهداف النفقات ...

أولاً : نأخذ أولاً قضية استهداف أو عدم استهداف النفقات في **كتاب الخراج** .

الذين يعتقدون أنه ليس دراسة في النفقات ينطلقون إلى هذا الاعتقاد من فهمهم للاقتصاد الوضعي ، حيث ندرس فيه الإيرادات كموضوع منفصل انفصالاً كاملاً عن النفقات كموضوع هو الآخر مستقل ومنفصل . **وليس هذا هو الأمر في النظام المالي الإسلامي** . إن كل إيراد في هذا النظام مربوط إلى الأوجه التي ينفق فيها ، أي مربوط إلى مصادر الإنفاق . **وهذه قاعدة عامة في النظام المالي الإسلامي** ، والاستثناء منها قليل للغاية .

وهكذا من هذا الوجه ينفصل النظام المالي الإسلامي عن النظام المالي في المالية العامة التي نعرفها كأحد فروع الاقتصاد الوضعي . وعندما نقرر هذا الانفصال ، فعلينا أن نواجه سؤالين كبيرين .

السؤال الأول عن قضية نعرفها في المالية العامة تحت اسم **تخصيص الإيرادات** ، أي ربط إيراد ما بإنفاق معين .

والسؤال الثاني عن النتائج المطلوب تحقيقها من **الربط بين الإيراد وإنفاقه** إن وجد ، أو عدم الربط إن قيل به . وكما نرى ، فإن السؤالين متداخلان .

في المالية العامة الأمر فيها واضح وصريح ومحدد ، لا ربط بين الإيراد وبين إنفاقه . وهكذا يكون تخصيص الإيرادات لإنفاقات معينة مسألة خرج عليها الاقتصاد الوضعي ، والمشروع المالي الوضعي . في مقابل الوضوح والصراحة في الاقتصاد الوضعي نقابل في الاقتصاد الإسلامي بوضوح محدد قاطع : الربط بين كل إيراد والأوجه التي ينفق فيها ، **والاستثناء في هذه القاعدة محدد للغاية إن وجد** . قضية تخصيص الإيرادات لإنفاقات محددة قضية تباين بين النظام المالي الإسلامي وبين غيره من النظم . وهي قضية محسومة ولا ينبغي أن ندور بشأنها حول اقتصادنا .

قضية فصل الإيرادات عن النفقات . .

عند هذا الحد ينتقل بنا الاستطراد إلى الإجابة عن السؤال الثاني الذي يثير قضية النتائج المطلوب تحقيقها . في المالية العامة ، قرر فصل الإيرادات عن النفقات لإعطاء الحرية للسلطات المالية ، أياً كان مستواها ، ولعدم إخضاعها عند البت في القرارات المالية لأية قيود أو التزامات . ويعتقد في الاقتصاد الوضعي أنهم بذلك يصلون إلى التخصيص الأمثل للإيرادات . **هذا التسبيب مرفوض** إسلامياً ، **كيف نعطي الحرية المطلقة للسلطات المالية للتصرف كما تشاء وكما ترى في الإيرادات التي هي في الواقع استقطاع من دخول الأفراد في المجتمع . هذه الحرية في مال لا يدخل في حيازة متخذ القرار المالي قضية مغلوطة** . وهكذا حين يقنن في النظام المالي الإسلامي ربط الإيرادات بأوجه إنفاقها ، فإن هذا التقنين لترشيد القرار المالي الذي تتخذه السلطات المالية .

■ إن قضية وضع خطة مالية للدولة الاسلامية قضيه تخصص ، والقرار وإن اتخذ على مستوى سياسي إلا أنه محكوم بمقولات المتخصصين .

اقول استطراداً على ما سبق : لننظر بأمانة محايدة أو بجدية أمينة إلى الانحرافات في قرارات السلطات المالية ، والتي تتمثل في الإرهاق والعنت في فرض إيرادات عديدة ، وأيضاً تتمثل في الإسراف والتبديد في الانفاقات ، وسوف نجد أن ذلك إنما جاء **بسبب الأخذ بقاعدة عدم تخصيص الإيرادات** ، وهكذا فإن متخذ القرار المالي نفسه غير ملتزم بأي التزام إلا مايراه هو . وهنا يرد علينا سؤال : **ولكن في الدول الحديثة ، تتصرف السلطات المالية وفق ما نسميه الموازنة العامة للدولة ، وهي معتمدة من ممثلي الأمة في المجلس التشريعي** ؟ وما اراه من واقع عالمنا الإسلامي ، أن هذه مقولة نخدع بها انفسنا اكثر مما نصلح بها مالية الدولة الإسلامية .

تخصيص الإيـــرادات . . .

ثانياً : عندما نقرر إسلامياً تخصيص الإيرادات ، فإن علينا أن نجيب على أسئلة كثيرة . والسؤال الرئيسي فيها أن المالية العامة في الاقتصاديات الحديثة أصبحت لها وظائف محددة ، وهي : **إعادة توزيع الدخل ، تحقيق التخصيص الأمثل مثل الموارد ، تحقيق النمو ، تحقيق الاستقرار الاقتصادي** . وقاعدة عدم تخصيص الإيرادات تمكن السلطات المالية أن تقوم بهذه الوظائف . نجيب على هذا السؤال إسلامياً بتحديد الانفاقات التي تغطى مع تخصيص الإيرادات . ونعرف بواسطة ذلك وظائف النظام المالي الإسلامي : ثم نقول عنها مقارنة بوظائف المالية العامة في الاقتصاد الوضعي .

نسجل في البداية أن الإيرادات التي ذكرها **القاضي أبو يوسف** في كتابه لا تشمل كل الإيرادات المالية التي يمكن أن تحصل عليها الدولة الإسلامية ، وإنما في الإسلام إيرادات أخرى غير الإيرادات التي ذكرت ، ومن ذلك ما يدخل فيما نسميه **الضمان الاجتماعي** ، وفيما نسميه **مبدأ التوظيف** . إذا حصرنا الحديث عن الوظائف الاقتصادية لإيرادات الدولة الإسلامية ، فإنه يمكن أن نعد الوظائف التالية كوظائف للنظام المالي الإسلامي .

وظائف النظام المالي الإسلامي . .

١ - **جانب الضمان الاجتماعي لأفراد الجماعة الإسلامية** . والمعاني البارزة في هذا الجانب هي :

(أ) ضمان حد أدنى من الدخل للذين قعدت بهم وسائلهم الخاصة عن تحقيق ذلك .

(ب) مواجهة تفاوت داخلي يخل بالتوازن في المجتمع الإسلامي .

(ج) مد مظلة التأمين لتشمل غير المسلمين الذين يقيمون في ظل الدولة الإسلامية .

٢ - **جانب المصالح العامة للمسلمين** ، ويدخل في هذه المصالح كل نشاط اقتصادي يكون ضرورياً للمجتمع الإسلامي . ومن ذلك التنمية الاقتصادية على سبيل المثال .

■ لو تقربت إلى الله يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر والشهرين مجلساً واحداً تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم ...
فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترىء على الظلم .
ـ أبو يوسف ـ

وما يلزم للدفاع الخارجي والأمن الداخلي .

٣ ـ **مواجهة الأوضاع الطارئة وغير العادية** . فإذا حدثت مثل هذه الأوضاع ، ولم يكن في خزانة الدولة ما يواجه ذلك ، فإن لولي الأمر أن يوظف على الأغنياء . ومن أمثلة هذه الأوضاع الأزمات الاقتصادية ، المجاعات ، والحروب . وهذا النوع من الأوضاع الطارئة يتعلق بالمسلمين عامة ، ونميزه عن نوع آخر من الأوضاع الطارئة والذي يواجهه الإسلام بواسطة ما يسمى مبدأ الضمان الاجتماعي ، فهذا النوع يتعلق بأوضاع الفقراء الذين لم تغط حاجتهم من الموارد المالية السابقة .

٤ ـ **مواجهة أوضاع التوازن والاستقرار بين أجيال الأمة الإسلامية** . هذه وظيفة أخرى من وظائف النظام المالي الإسلامي . من الموارد التي استخدمت لأداء هذه الوظيفة استبقاء **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه أرض العراق ورفض توزيعها على الفاتحين .

الإيرادات والنفقات العامة

ثالثاً : ما قلناه في أولاً وثانياً يثير قضية تسمية الإيرادات والنفقات في النظام المالي الإسلامي . في المالية العامة نقول : إيرادات عامة ونفقات عامة ، فهل يمكن أن نستخدم في النظام الإسلامي الصفة نفسها ، أي « عامة » لنصف بها كلاً من الإيرادات والنفقات ؟ والتسمية ليست موضوعاً يتعلق بالشكل ، وإنما تترجم التسمية حقيقة وطبيعة المضمون . لهذا لا يلائم مصطلح « عامة » الذي نصف به الإيرادات والنفقات في المالية العامة ، لا يلائم حقيقة وطبيعة مضمون الإيرادات والنفقات في النظام المالي الإسلامي .

فيما قاله **أبو يوسف** في مؤلفه **الخراج** الكثير مما يصنف تحت مصطلح المعايير الأخلاقية . وأقترح أن ندرسها مجمعة كبديل عن دراستها كجزئيات ، وذلك حتى يظهر الارتباط بين هذه المعايير .

أولاً ـ المال : طيب المورد وعدل الإنفاق

حرص القاضي **أبو يوسف** أن يبرز لهارون الرشيد وهو يكتب له عن النظام المالي الإسلامي باعتباره ولي الأمر ، حرص أن يبرز له التزام الإسلام على أن يكون المال الذي يجيء طيباً . ويعني بذلك **أن يكون أساس الالتزام به أساساً شرعياً صحيحاً . وهذا هو عمل الرسول ﷺ وعمل الخلفاء الراشدين من بعده** . فهذا **هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه** عندما يصل إليه مال العراق يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد ... » (ص١٢٤) . هذه أول القيم التي تخضع لها إيرادات النظام المالي الإسلامي . أما القيمة الثانية فهي العدل في إنفاق هذه الإيرادات : « ... والله الذي لا إله إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو أمنعه ، وما أحد أحق به من أحد ... » (ص٥٠) . ونلاحظ أن المصطلح الذي يستخدم هو **الحق وليس العدل** . ويعني ذلك **أن الأمر في النظام المالي الإسلامي ليس أمر عدل يجريه من يتولى الأمر ، وإنما هو أمر حق يجب أن يتمسك به صاحب الحق** . أما القيمة الثالثة فهي تؤصل للمساواة أو عدم المساواة عند الإنفاق . يذكر **أبو يوسف** عن ذلك : بأن **أبا بكر رضي الله عنه** كان يقسم بالسوية ، وقال عبارته المشهورة : **هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة** . ثم جاء **عمر** فرأى الأخذ **بالتفاوت في العطاء** (ص٤٥/٦) . يوجد معنى اقتصادي يجمع كلا من فعل **أبي بكر** وفعل عمر على الرغم مما يبدو بينهما من اختلاف . هذا المعنى هو أنه لو كانت الأوضاع الاقتصادية تلزم بالمساواة في العطاء وذلك عندما يكون مستوى المعيشة منخفضاً بحيث لا يوجد فائض يسمح بالتفاوت ، فإن المعتبر إسلامياً **هو المساواة في العطاء** . وهذه هي حالة عهد **أبي بكر رضي الله عنه** ، أما حين تسمح الأوضاع الاقتصادية بتفاوت الدخول ، **فإن الإسلام يجيز التفاوت في العطاء ، وهذا ما فعله عمر رضي الله عنه** .

أما قول **عمر** : **لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه ، وفاوت في العطاء على هذا الأساس ، فإن هذه معايير تعمل حين توجد الوفرة التي تسمح بالتفاوت** . أما إذا لم تكن هناك وفرة فلا إعمال لهذه المعايير ، وهذا هو ما فعله عمر نفسه في عام المجاعة ، وهي الحالة التي اختفت فيها الوفرة .

هذه هي القيم الثلاث التي اعتبر أنها معاً تشكل الأساس الأول في أخلاق النظام المالي الإسلامي ، وهو ما أسميه طيب المورد وعدل الإنفاق .

ثانياً ـ صفات من يتولى أمر الجباية :

ليس كل شخص صالحاً لأن يتولى أمر الجباية . الإسلام ينظر إلى هذا الأمر نظرة غاية في الدقة . ويظهر ذلك من الشروط التي يشترطها فيمن يقوم بذلك ، ومن الرقابة التي يخضعه لها . وقد حرص **أبو يوسف** أن يقول ذلك **لهارون الرشيد** فيما قاله عن النظام المالي الإسلامي :

١ ـ **قال له إن الرسول ﷺ** لم يستعمل أقاربه في تحصيل الإيرادات ، أي لم يعينهم في ذلك (ص١٢٣) . وقد كانوا أهل فقه وأهل كفاية . **هذه خطوة أولى من خطوات بدايات إصلاح النظام المالي في عصرنا الحاضر** .

٢ ـ **قال أبو يوسف لهارون الرشيد** عن الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى أمراً

في النظام المالي الإسلامي : **أن يكون فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي ، عفيفاً ، لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يخاف في الله لومة لائم** ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، وما عمل من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت ، تجوز شهادته إن شهد ، ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم ... ثم يذيل **أبو يوسف** هذه الشروط بقوله : فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها من حلها وتجنب ما حرم منها ، يرفع من ذلك ما يشاء ويحتجز منه ما يشاء ، فإذا لم يكن عدلاً ، ثقة ، أميناً فلا يؤتمن على الأموال ... ثم يضيف مجموعة جديدة من الشروط : أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ، ولا محتقراً لهم ، ولا مستخفاً بهم ... اللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة ، وإنصاف المظلوم ، والعفو عن الناس ، وأن تكون جبايته للخراج كما يرسم له ، وترك الابتداع فيما يعاملهم به ، والمساواة بينهم في مجلسه ووجهه ، حتى يكون القريب والبعيد والشريف والوضيع عنده في الحق سواء ، وترك اتباع الهوى ، فإن الله ميز من اتقاه وآثر طاعته وأمره على من سواهما . (ص١١٥ ، ١١٦) .

٣ ـ ثم قال **أبو يوسف** ثالثاً : إن عمال الجباية يجب أن يخضعوا للرقابة ، وقد جعل هذه الرقابة على درجات متعددة . قال **لهارون الرشيد** : أرى أن تبعث قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سير العمال وما عملوا به في البلاد وكيف جبوا الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر (ص١٢٠) . وهذه رقابة عليهم في أعمالهم . كما أن هناك رقابة عليهم في أموالهم وتضخم ثرواتهم .

تجمل لنا هذه العناصر الثلاثة معاً الشروط فيمن يتولى أمر الأموال في النظام المالي الإسلامي . وفيها شروط الخبرة والكفاية والمعرفة ، وهي التي تتعلق بها النظم المالية الوضعية ، ولكن في النظام الإسلامي شروطاً أخرى ، منها الصلاح والتقوى إلى آخر ما ذكرناه من شروط .

ثالثاً ـ مراعاة الطاقة عند فرض الإلزام المالي :

تتحقق هذه القيمة في النظام المالي الإسلامي بمجموعة من العناصر :

(١) إن المنهج الإسلامي في الإلزام المالي يأخذ **بفكرة النصاب** ، وهي تعني **أن الإلزام المالي لا يجيء إلا إذا كان المال الواقع عليه الالتزام قد بلغ حداً معيناً** . ويترتب على ذلك أن الإلزام المالي في الإسلام يجيء مع الطاقة بل إن المعدل الذي يفرض به الإلزام المالي يختلف حسب طبيعة التكلفة اللازمة لإنتاج المال الخاضع لهذا الإلزام .

(٢) الأساس في الالتزام المالي الطاقة ، يقول الرسول ﷺ « **من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه حقاً من حقوقه فأنا خصيمه** » . وهذا هو ما التزم به **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه إذ كان يسأل من يفرض عليهم الخراج أيطيقون ما فرض عليهم أم لا ؟ (ص٩٢) . وهذه عدالة في فرض الالزامات المالية غير مسبوقة ، ولا نعتقد أنها متبوعة ، ويكتب **عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه** إلى أحد عماله أن يراعي الطاقة عند فرض الإلزام المالي (ص٩٣) .

(٣) يكتب **أبو يوسف لهارون الرشيد** : **لو تقربت إلى الله يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر أو الشهرين مجلساً واحداً تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم ، ويسير ذلك في الأمصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترىء على الظلم ، ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونظرك في أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه** . (ص١٢١) . **هذا الذي يطلبه أبو يوسف** من ولي الأمر فيه مراجعة ومراقبة لسلوك الذين يتولون تحصيل الإيرادات .

(٤) إعمالاً لما سبق ، فإن للإمام أن يخفض ويزيد فيما يوظفه من الخراج على أهل الأرض على قدر ما يحتملون ، وأن يصير على كل أرض ما شاء بعد أن لا يجحف ذلك بأهلها (ص٩٢) .

رابعاً ـ آداب تحصيل الإيرادات :

تتحقق آداب تحصيل الإيرادات في المنهج الإسلامي باتباع مجموعة من القيم السلوكية :

(١) **منع التفتيش للجباية** . وهذا ما نقله **إبراهيم بن المهاجر** عن **عمر بن الخطاب رضي الله عنه** : « **أمرني ألا أفتش أحداً** » (ص١٣٠) .

(٢) **منع الالتزام** ، وهو الأسلوب الذي شاع في العصور المتأخرة ، ويعبر عن الالتزام بمصطلح التقبيل . ورأيت أن لا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد فإن المستقبل إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم ، وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه ، وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية . والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره قباله ، ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضلاً كثيراً ، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية ... وإنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو ، وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم ، (ص١١٤) . وكان **القاضي أبا يوسف** رحمه الله رأى بالفقه الذي أعطاه الله ما سوف يحل بالعالم الإسلامي من خراب عند تطبيق أسلوب الالتزام في تحصيل الإيرادات .

صفات سلوكية . . .

(٣) **حرص أبو يوسف** أن يكتب **لهارون الرشيد** عن العلاقة التي يجب أن تكون بين متولي أمر تحصيل الإيرادات وبين من ولي عليهم ، وكذلك الصفات السلوكية التي يجب أن يلتزم بها . كان عمر يشترط فيمن يستعمله : أن لا يركب برذوناً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يأكل نقياً ، ولا يغلق بابه دون حوائج الناس ، ولا يتخذ حاجباً (ص١٢٥/٦) . وكان رضي الله عنه إذا بلغه أن عاملاً لا يعود المريض ولا يدخل عليه الضعيف نزعه (ص١٢٦) .

ما قلته في الصفحات السابقة هو دراسة وتحليل لما قاله **القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج** . وإذا كان هناك ما أريد إضافته للتأكيد عليه ، فهو البعد التاريخي لهذا الكتاب ، لقد كتبه **أبو يوسف** في القرن الثاني الهجري ، ويوافق ذلك القرن الثامن الميلادي ، والارتباط بهذا التاريخ يسجل أهمية وسبقاً ما جاء في هذا الكتاب ويتضمن ذلك أهمية وسبقاً لاقتصادنا الإسلامي .. وبالله التوفيق .

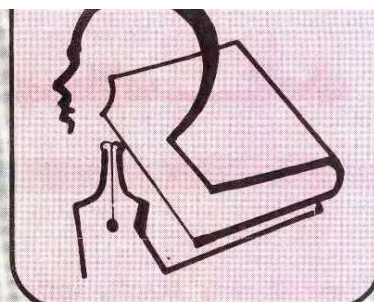
هوامش ومراجع :

(١) **الدكتور محمد إبراهيم البنا ، « من عيون التراث : وصية أبي يوسف لهارون الرشيد » دار الاعتصام ، ص٥ .**

(٢) **ابن النديم « محمد بن إسحاق النديم » ، الفهرست ، بيروت : دار المعرفة ص٢٨٦ .**

(٣) **سوف نعتمد في دراسة هذا الكتاب على الطبعة التالية : « كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم [١١٣ ـ ١٨٢م] نشره قصي محب الدين الخطيب ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها .**

(٤) **انظر مؤلفنا : منهج الادخار والاستثمار في الاقتصاد الإسلامي ، الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية القاهرة ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م ، الفصل الرابع .**



قراءة اقتصادية في كتاب: الكسب للإمام محمد بن الحسن الشيباني

عالم وكتاب

أولاً: المؤلف ..

■■ مصنف هذا الكتاب هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، والده من ديار شيبان في منطقة الجزيرة العربية. ولد إمامنا في عام ١٣٢هـ [٧٥٠م] في مدينة واسط، عاصمة العراق الأموي الأخيرة. انتقل به والده إلى مدينة الكوفة، وهي آنذاك واحدة من المدن التي تزخر بحركة علمية نشطة ورائدة، وفيها أخذ العلم عن كبار العلماء والفقهاء ورجال الأدب واللغة والحديث، لقي أبا حنيفة في الكوفة وسنه أربع عشرة سنة، فلازمه ملازمة كاملة، يسمع منه ويكتب عنه، واستمر في حاله هذه أربع سنوات حتى توفي الإمام أبو حنيفة، فتابع الاستماع إلى الفقه من تلميذه وخليفته القاضي أبي يوسف. ■■

سمع بالإمام مالك، فرحل إليه بالمدينة، وسمع منه وأخذ عنه، ودوّن الموطأ، وتعتبر روايته للموطأ من أفضل الروايات قدماً وصحة وضبطاً. وقد تعرف على الإمام محمد بن إدريس الشافعي في مجلس الإمام مالك. رحل إلى مكة بعد ذلك حيث لزم كبار علمائها ومنهم سفيان بن عيينة. ثم رحل إلى الشام وأخذ عن الإمام الأوزاعي، وأخيراً زار البصرة وخراسان آخذاً عن كبار العلماء.

بعد أن نال إمامنا هذا القدر الوافر من العلم، وبعد أن استمع وتعرف بكبار علماء عصره، عاد إلى بغداد، حيث كانت الخلافة العباسية قد استقرت. وفيها أخذ مجلس العلماء، وتوافد عليه طلاب العلم ينهلون من علمه. **ثم ولاه الخليفة الرشيد ولاية القضاء**، ولكنه لم يمكث فيه طويلاً حيث تخلى عنه، ووقف نفسه على الفقه تعليماً وتصنيفاً.

زامله الإمام الشافعي في التلمذة على الإمام مالك، ثم تتلمذ عليه الشافعي في بغداد، وقال عنه: **لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت لفصاحته**. وهذا هو الإمام الشيباني في المذهب الشافعي. تتلمذ عليه أسد بن الفرات، **فاتح صقلية، وصاحب المدونة الأولى في تاريخ الفقه المالكي، وهي أصل مدونة الإمام سحنون الشهيرة، وهذا هو الإمام الشيباني في المذهب المالكي**. من هنا نقول، حين نكون مع الإمام الشيباني فنحن مع تلميذ وصاحب أئمة، وإمام أئمة.

ثانياً: الكتاب: الكسب

روى هذا الكتاب عن **الإمام الشيباني محمد بن سماعة التميمي**، وقد وجدت مخطوطة كاملة له في مكتبة أحمد الثالث باستنبول، وتقع في ثلاث وخمسين ورقة.

وكانت له نسخة أخرى في دار الكتب المصرية بالقاهرة، وتقع في نحو خمس وأربعين صفحة، وتحمل عنوان: **كتاب الاكتساب في الرزق المستطاب**[1].

يقال إن تصنيف هذا الكتاب كان من دوافعه الرد على حركة الزهد الأعجمي، التي نشطت في القرن الثاني للهجرة مع **نشاط الديانة المانوية**[2] **والحركة الشعوبية**، كما احتوى بعض الردود على جماعة القدرية وسواهم (ص١٦).

أملى **الشيباني** كتابه سرداً دون أن يقسمه إلى أقسام. ونتبين بعد قراءته أنه عالج فيه موضوعات كثيرة، ولكنها مترابطة ومتحدة المحتوى، بحيث إنها تؤلف معاً معالجة لموضوع الكسب. لقد كتب عن تعريف الكسب وفوائده، وأنواعه، والاشتغال به ومراتبه، وكان لزاماً عليه وقد كتب عن هذه الموضوعات أن يكتب عن الغنى والفقر، فكتب عنهما. ثم كتب عما تقوم به أبدان أولاد آدم، أي: **الحاجات الاقتصادية**. ثم وصلت به دراسته للموضوعات السابقة أن يتكلم عن العمل والزهد وأخذ الصدقة ومعطيها.

وهكذا جاء الكتاب معالجة للموضوع الذي عُنون به وهو «**الكسب**». **وبالرغم من صغر حجمه إلا انه أوفى موضوعه، ويعتبر هذا الكتاب المحاولة الأولى باللغة العربية في الموضوع الذي خصص له**.

التصنيف الاقتصادي للكتاب

إذا أردنا أن نجري تحليلاً اقتصادياً لكتاب الكسب، يرد علينا سؤال: **ما الموضوع الاقتصادي الذي تناوله الشيباني في هذا الكتاب**؟ هذا السؤال يثير التصنيف الاقتصادي لموضوع الكتاب. وما أراه هو أن هذا الكتاب يدخل فيما نسميه في علم الاقتصاد: «**النظرية**

بقلم :
د. رفعت السيد العوضي

- إن الكسب هو طلب تحصيل المال بما يحل من الأسباب ..
- الرشد في الاقتصاد الإسلامي يرتبط بالحلية والمشروعية وليس بالوصول بالمنفعة والربح الى حدهما الأقصى ..

الاقتصادية » . وهو فرع من فروع المعرفة الاقتصادية ، تدرس فيه التحليل الاقتصادي ، وتمتد موضوعاته على مساحة متسعة ، ويقدم لدراستها بتمهيد عن السلوك المعتبر في علم الاقتصاد ، ويثير ذلك دراسة ما نسميه في علم الاقتصاد بـ **« الرشد الاقتصادي »** : للمستهلك وللمنتج . كما يجيء في هذه الدراسة التمهيدية مناقشة عن التخصص وتقسيم العمل ، وعن الحاجة الاقتصادية : معناها وخصائصها ، وعن عوامل الانتاج ، متضمناً دراسة حول العمل وانواعه ، وانواع النشاط الاقتصادي .

في ضوء هذا التصنيف الذي اقترح أن نصنف فيه موضوع **كتاب الكسب** ، يصبح **هذا الكتاب هو المدخل التمهيدي للاقتصاد الإسلامي** . بعبارة اخرى ، إن موضوعه يعطي لمن يريد أن يكتب عن الاقتصاد الإسلامي الفقرة الأولى التي يجب عليه ان يبدأ بها .

وفي ضوء هذا التصنيف الذي أقترحه ، اقول باعتباري اعايش الاقتصاد الإسلامي منذ بضع سنين : كتابة وتدريساً وحواراً مع نفر آخر من الذين يعطون من وقتهم لهذا الفرع من فروع المعرفة الإسلامية ، اقول **إننا كنا على يقين أن الاقتصاد الإسلامي يتميز بكثير من الجوانب عن الاقتصاد الوضعي** . وكان كل منا يجتهد أن يقدم لكتابته بما يعتقد أنه يوضح هذا التمايز . كنا نعمل هذا ، وكنا نختلف في الاجتهادات ، كل في حدود وسعه . ولكن بعد الاطلاع على **« كتاب الكسب » للإمام الشيباني** ، فإننا سوف نلتقي على كلمة سواء ، وهي أن ما قيل في هذا الكتاب هو المدخل الطبيعي للقول عن الاقتصاد الإسلامي .. ذلك أنه يعالج موضوعاً فنياً يدخل دخولاً مباشراً في النظرية الاقتصادية ويمهد لها ، ومع ذلك يقول كل ما قاله بلحن إسلامي ، فيه كل أصالة القرن الثاني الهجري .

دراسة اقتصادية للكتاب ..

اشرت منذ قليل إلى أن **الإمام الشيباني** كتب عن كثير من الموضوعات التي تدخل في إطار الموضوع الرئيسي الذي جعله عنواناً لكتابه . وسوف أحاول فيما يلي أن أعطي رؤية موجزة لموضوعات هذا الكتاب ، وسوف اعالجها في موضوعات إجمالية ؛ وذلك ليسهل للقارىء أن يلم بما جاء في الكتاب ، وليسهل كذلك التحليل أو التعليق على هذه الموضوعات اقتصادياً .

أولاً ـ الكسب :

١ ـ يعرف **الإمام الشيباني « الكسب »** :

بانه طلب تحصيل المال بما يحل من الأسباب (ص٣٢) . ويقرر أن طلب الكسب فريضة على كل مسلم ، ويستند في ذلك إلى ادلة كثيرة .

كما قرر أن الكسب هو طريق المرسلين ، وذكر حرفهم عليهم السلام ، ونقل عن مجاهد[٣] قوله : **لا تاكل خبزاً بزيت حتى تعمل عملاً إلى الموت** (ص٣٤) .

وهذا القول الأخير كأنه بمثابة : من لا يعمل لا يأكل ، للقادرين على ذلك . واستشهد أيضاً بأن الكبار من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يكتسبون : **كان أبو بكر بزازاً ، وعمر يعمل بالادم ، وعثمان بالتجارة ، واجر علي نفسه غير مرة** (ص٤١) .

ثم يذكر أخيراً عن الاستدلال على الكسب ان المذهب عند جمهور الفقهاء من أهل السنة والجماعة أن الكسب بقدر ما لابد منه فريضة (ص٤٤) .

ويذكر بجانب ما سبق من أدلة الدليل العقلي التالي : الاكتساب في الابتداء كد وتعب ، وقد تعلق به بقاء نظام العالم ، فلو لم يجعل أصله فرضاً لاجتمع الناس عن آخرهم على تركه ، لأنه ليس في طبعهم ما يدعو إليه الكد والتعب ، فجعل الشرع أصله فرضاً لكيلا يجتمعوا على تركه (ص٤٧) .

ما الذي نستطيع أن نقرره اقتصادياً على الذي قرره الشيباني فقهياً ؟ ونطرح السؤال بصيغة أخرى .

ماذا قال الشيباني اقتصادياً بتحليله السابق ؟

مفهوم الكسب والإنتاج في علم الاقتصاد الوضعي

شغلنا في علم الاقتصاد الوضعي بما قالته مدارس اقتصادية متعددة عن العمل المنتج والعمل غير المنتج . وظل هذا يشغلنا إلى مدرسة الطبيعيين التي ظهرت في القرن الثامن عشر ، ودار مفكروها في حلقة العمل المنتج والعمل غير المنتج ، سواء استخدموا ذلك أم استخدموا مصطلحات أخرى ، مثل : العمل المنتج والعمل العقيم . ومؤلَّف **آدم سميث « ثروة الشعوب »** الذي يعتبره بعض كتاب تاريخ الفكر الاقتصادي بداية علم الاقتصاد الحديث ، والذي افتتحت به كبريات المدارس الاقتصادية ، وهي المدرسة الكلاسيكية ، هذا المؤلف نفسه ظهرت فيه بصمات حكاية **العمل المنتج والعمل غير المنتج**[٤] .

مشروعية العمل في مفهوم الكسب إسلامياً

في مقابل هذه الحكاية التي طالت في علم الاقتصاد ، يضعنا **الشيباني** أمام حقيقة كبيرة من حقائق الاقتصاد الإسلامي ، وهي

لو أن الناس قنعوا بما يكفيهم وعمدوا إلى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم لكان خيراً لهم ..

« محمد بن الحسن الشيباني »

أن المعتبر إسلامياً هو حلية أو مشروعية العمل . إن الكسب عنده هو طلب تحصيل المال بما « **يحل** » من الأسباب ، ويعني ذلك : **أن إنتاجية عمل ما أو عقمه هي لازمة لمشروعيته أو عدم مشروعيته** ..

حين نقرر مشروعية أو حلّية العمل ، فإن هذا لا يعتبر من قبيل تأصيل المبادىء ، وإنما بالإضافة إلى ذلك فإنه يرتب نتائج في التحليل الاقتصادي . بعبارة أخرى ، إن هذا التقرير سوف يثير الاضطراب في التحليل الاقتصادي ، الذي نقول به في الاقتصاديات الوضعية ، وهذا التقرير نفسه سوف يجعل التحليل الاقتصادي الإسلامي يأخذ صيغة أخرى ولوناً آخر عن نظيره في **الاقتصاد الوضعي** .

أحس أن الأمر واضح في رأسي ، ولكنه قد يكون غير واضح أمام القارىء ، **وخاصة الذي لم تتح له معرفة بالاقتصاد الوضعي** . ولهذا ، فعلينا أن نتقدم في عرضنا إلى مرحلة أخرى .

ما هي حكاية التحليل الاقتصادي الذي سوف يثار فيه الاضطراب إذا قررنا الأخذ بمبدأ حلّية العمل الاقتصادي ؟ **نرتبط لزومياً في الاقتصاد الوضعي بمبدأ الرشد الاقتصادي**[٥] ، ونفرع عليه تفريعاً آخر هو الرجل الاقتصادي[٦] . ونعرف الرجل الاقتصادي بأنه الذي يسلك سلوكاً اقتصادياً رشيداً .. والرشد الاقتصادي الذي نلصقه به يعني أن يحصل هذا الرجل على أقصى منفعة من دخله إذا كان مستهلكاً ، وأن يحقق أكبر ربح مادي إذا كان منتجاً . **وإذا كان سلوكه غير ذلك ، فإن الاقتصاد الوضعي يعتبره غير رشيد اقتصادياً** .

فإذا قررنا في الاقتصاد الإسلامي أن الرشد الاقتصادي يرتبط بالحلية والمشروعية وليس بالوصول بالمنفعة والربح إلى حدهما الأقصى ، فإن النتيجة التي ستترتب هي أن تحليل نظرية المستهلك ونظرية المنتج سوف يثار فيه الاضطراب . والتحليل البياني والرياضي الذي نقوله كاقتصاديين في نظرية المستهلك ونظرية المنتج هو ذروة وقمة ما عند الاقتصاد الوضعي من تحليل .

لنبق مع الاقتصاد الإسلامي لحظة أخرى ، ونسأل :

وماذا عن معيار الربح المادي ، أمرفوض كلية ؟

في التحليل الذي قاله **الشيباني** : ليس هناك أبعاد لهذا المعيار ، وإنما هو معتبر تحت أوضاع وشروط معينة . وأقترح للإجابة على سؤال المعيار الإسلامي بشأن ما نتكلم عنه أن نتقدم مع دراسة **الشيباني** خطوة أخرى .

ثانياً ـ الغنى والفقر :

« **كسب ما لابد منه فريضة** » أمر تقرر في الفقرة السابقة . وفي تسلسل منطقي منهجي ، ينتقل الشيباني إلى دراسة قضية الغنى والفقر ترتيباً على سؤال أثاره بعد ما قرره عن الكسب وهو : **هل التفرغ للعبادة أفضل من الاشتغال بالكسب بعدما حصل ما لابد منه** ؟ قبل أن نعرض ما قاله **الشيباني** عن قضية الغنى والفقر في الاقتصاد الإسلامي ، أريد أن أجذب الانتباه إلى ما تكشف عنه الآراء التي تتفرق حول هذا الموضوع ، ويكشف تفرقها حول هذا الأمر عن قمة التوازن في الاقتصاد الإسلامي ، وهو توازن مضبوط وفق معيار إلهي :

﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ .

قال **الشيباني** : إن هناك من فضل الغنى على الفقر ، وعرض بتفصيل أدلة هذا الفريق ، ومن الأدلة التي ذكرها : حديث **الرسول ﷺ لسعد بن أبي وقاص** : « **إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس** » .

مذهب **الشيباني** : أن صفة الفقر أعلى ، ويحتج بأن الناس لو قنعوا بما يكفيهم وعمدوا إلى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم لكان خيراً لهم . ما زاد على ما لابد منه يحاسب المرء عليه (ص٥٠ ، ٥١) .

ونحتاج هنا إلى وقفتين : وقفة نحدد فيها **صفة الفقر** التي فضلها **الشيباني** ، ووقفة **نفهم فيها فهماً شمولياً الرؤية الإسلامية لهذه القضية الاقتصادية التي تفرقت حولها النظم الاقتصادية الوضعية** .

ما هي **صفة الفقر الأعلى** التي اعتبرها **الشيباني** ؟! إنه لم يمتدح الفقر بالمعنى الذي نفهمه ، وإنما امتدح الحالة التي يغطي فيها الفرد ما يكفيه ، وبعبارته : **لو أن الناس قنعوا بما يكفيهم وعمدوا إلى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم لكان خيراً لهم** .

وقال في موضع آخر : **وما زاد على ما لابد منه يحاسب المرء عليه** (ص٥٠) .

وهذه الحالة التي اعتبرها **الشيباني** حالة فقر ، لا نقول عنها في لغتنا الاقتصادية المعاصرة إنها حالة فقر .. بل إن التعبير الذي أستخدمه « **الكفاية** » يعني : أن الحالة المعتبرة عنده ليست حالة الكفاف ، وإنما حالة **الكفاية** . وهذه الحالة التي اعتبرها **الشيباني** حالة فقر ، وجعلها صفة أعلى من صفة الغنى هي الحالة التي يجب أن نحيل إليها أقوالاً مماثلة وردت في الفكر الإسلامي يظن منها أن الفقر يكون موضع مدح . فمدح حالة الفقر ، في معناه الخالص لا يتصور أن يقره فقيه بعد أن قال

○ القيام بكل نشاط اقتصادي من الأنشطة اللازمة للجماعة الاسلامية مقرر على سبيل فرض الكفاية ..

الرسول ﷺ : « **اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك** » (ص٥١) .

فروق بين حد الكفاية والكفاف تنسحب على معنى « الفقر » . .

عندي أقوال عن الاقتصاد الوضعي أذكرها ونحن بصدد التعليق على رأي **الشيباني في الفقر . فهناك نفر من الاقتصاديين المرتبطين بالاقتصاد الوضعي ، والذين اطّلعوا بالصدفة البحتة على فقرة شاردة في التراث الإسلامي فهموا منها أن الإسلام يعايش الفقر مادحاً له . نقول لهم ولضربائهم :**

[١] ما فهمتموه ليس صحيحاً ، فالرجل لم يمتدح الفقر ، وصفة الفقر الأعلى التي قال بها هي عن حالة ما بعد الكفاية وليس ما بعد الكفاف .

[٢] **ارتباط الإمام الشيباني** بمستوى الكفاية وليس بمستوى الكفاف ، وبين المستويين بون شاسع ، **هذا الارتباط يجعلنا نثير قضية في الاقتصاد ، وهي قضية « أجر الكفاف »** .

إن المدارس الاقتصادية منذ « **آدم سميث** » مؤسس المدرسة الكلاسيكية ، بل من قبله ، يربط فيها تحليل نظرية توزيع الدخل بفرض أجر الكفاف . **وأجر الكفاف هو دون مستوى الكفاية بكثير** . وعلى الرغم من بشاعة هذا الفرض التحليلي ، فلم نسمع في الاقتصاد من يقول إن هذه المدارس تدعو إلى الفقر أو تعايشه أو تمتدحه . وهذا التعميم الذي نقوله عن المدارس الاقتصادية ينسحب على كل اتجاهاتها ، **فماركس** نفسه ، وهو يضع نظريته الماركسية عن النظام الراسمالي ارتبط بهذا الفرض ؛ أي بأجر الكفاف .

[٣] لم يمنع **الشيباني** الاشتغال بكسب ما فوق الكفاية ، وهو فوق مستوى الكفاف بكثير الذي ترتبط به المدارس الاقتصادية . نص عبارته : ولو أن الناس قنعوا بما يكفيهم وعمدوا إلى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم لكان خيراً لهم (ص٥٠) .

يفيد هذا النص أن **الاشتغال بكسب ما فوق الكفاية ليس المنع وارداً عليه ، وإنما المطلوب هو إنفاقه في أوجه الخير ، وأوجه الخير في الاقتصاد الإسلامي هي من أكثر الأعمال الاقتصادية إنتاجية**[٧] .

[٤] تربطنا مطالبة **الشيباني** بإنفاق ما فوق الكفاية في أوجه الخير بما نقوله في الاقتصاد الوضعي ونحن نتكلم عن نظرية الرفاه ، وعن الفرع الواسع الاهتمام به في الاقتصاد الآن وهو اقتصاديات الفقر . نقول في دراسة هذه الموضوعات الاقتصادية ، ومن منطلق رأسمالي بحت ، إن النقود تخضع لقانون تناقص المنفعة الحدية . **وهذا معناه أنه عند مستوى معين من الغنى ، يستلزم السلوك الاقتصادي الرشيد أن يعاد توزيع النقود الزائدة (الدخل الزائد) بحيث توضع في أيدٍ أقل دخلاً فتكون منفعتها الحدية أكبر .**

ويقول لنا التحليل الاقتصادي إنه بهذه الوسيلة سوف تكون المنفعة الإجمالية للدخل القومي أكبر مما لم توزع هذه الدخول .

أقول بصدد ذلك : **أحين يقول الاقتصاد ذلك نبهر به ، وحين يقول الشيباني الشيء نفسه ولكن باسم الإسلام نتهم الإسلام بأنه دين يمتدح الفقر ويعايشه** ؟!.

ثالثاً ـ أنواع النشاط الاقتصادي :

قسم **الشيباني** المكاسب أو الأعمال الاقتصادية إلى أربعة أصناف : **الإجارة ، والتجارة ، والزراعة ، والصناعة** (ص٦٣) . ولا يخرج التقسيم الحديث للأنشطة الاقتصادية في الاقتصاد الحديث عن هذا التقسيم .. ففي هذا الاقتصاد نقول : إن النشاط الاقتصادي ينقسم إلى ثلاثة قطاعات : **قطاع الزراعة ، وقطاع الصناعة ، وقطاع الخدمات** ، وهذا القطاع الأخير يشمل التجارة وغيرها من الخدمات . ونقول أحياناً عن هذا النشاط الأخير القطاع الثالث .

قد لا يكون في هذا التقسيم الذي قال به **الشيباني** ما يجذب الانتباه ، ذلك أنه تقسيم بدهي ، ومسألة التقسيم لا نتوقف عندها طويلاً في **الاقتصاد الوضعي** . هذا وجه للصورة ، والوجه الآخر لها هو أن **الشيباني** سيجذب الانتباه الواسع عندما يذكر لنا حكم الإسلام في الأنشطة الاقتصادية السابقة ، أي في ممارستها .

يقول **الشيباني** :

إن كل ذلك في الإباحة سواء عند جمهور الفقهاء رحمهم الله (ص٦٣) . أي أن كل أنواع الأنشطة الاقتصادية السابقة يباح ممارستها في الإسلام . ولا يقف الأمر عند حد الإباحة ، ذلك أن **الشيباني** يذكر وهو بصدد دراسة الأنشطة الاقتصادية نوعي الفرض : **فرض العين وفرض الكفاية** (ص٧١) . ومقتضى ذلك أن القيام بكل نشاط من هذه الأنشطة اللازمة للجماعة الإسلامية هو مقرر على سبيل فرض الكفاية .

نتوجه إلى أنفسنا بالسؤال التالي : ما هي الإثارة الاقتصادية فيما قاله **الشيباني** عن إباحة ممارسة كل أنواع النشاط الاقتصادي ؟

إن ما قاله **الشيباني** يمثل إثارة اقتصادية تاريخية . لقد قال : **إن كل أنواع النشاط الاقتصادي بالتقسيم الرباعي الذي قال به حلال ممارستها ، وإن القيام**



○ إن المقولة الاقتصادية - لانهائية الحاجات - هي مقولة موضوعة تحت التحفظ في الاقتصاد الاسلامي ..

بها فرض كفاية ، وقد يرتفع فيصبح فرض عين . قال هذا في القرن الثامن الميلادي . بينما ظل الفكر الأوروبي إلى القرن الخامس عشر يعتقد ان التبادل نشاط غير نظيف ، وظل إلى القرن الثامن عشر يعتقد أن الصناعة والتجارة أنشطة اقتصادية عقيمة . وهكذا تظهر الإثارة التاريخية أن الفكر الإسلامي على يد الشيباني سبق الفكر الأوروبي فيما يتعلق بالموضوع الذي نتكلم عنه بأكثر من الف عام . وهذه الرسالة أرجو أن تكون واضحة لكل الذين يكتبون عن تاريخ الفكر الاقتصادي .

رابعاً - الحاجات الاقتصادية :

يقول **الإمام الشيباني** :

« **إن الله خلق أولاد آدم خلقاً لا يقيم أبدانهم إلا بأربعة أشياء : الطعام والشراب واللباس والسكن** » (ص٧٤) .

هذا الموضوع الذي يثيره **الشيباني** في مقولته هذه هو ما ندرسه في الاقتصاد تحت عنوان الحاجات الاقتصادية . ما الذي يشغلنا في الاقتصاد الوضعي بشأن الحاجات الاقتصادية ؟ من أبرز ما شغلنا به في الدراسة الاقتصادية عن الحاجات هو ما يتعلق بخصائصها . قلنا عنها إنها متعددة وقابلة للإشباع وقابلة للتجدد ، وقابلة للتطور . خصائص أربع ألصقناها كلوازم لما أسميناه الحاجة الاقتصادية .

المثير في الدراسة الاقتصادية التي شغلنا بها الاقتصاد ، أو شغلنا نحن بها الاقتصاد الوضعي هو أننا استنتجنا بسبب الخصائص التي جعلناها لوازم للحاجات الإنسانية أن هذه الحاجات غير متناهية . وهي نتيجة مثيرة إنسانياً ، ولكن إثارتها الاقتصادية كانت أعنف ، ذلك أن الحاجات تشبع بموارد ، وبسبب فروض معينة افترضناها عن الموارد الاقتصادية الموجودة في العالم ، وعن الاستعمالات الواردة عليها قلنا إن اللازمة الاقتصادية لهذه الموارد أنها نادرة نسبياً . وبلغت الإثارة الاقتصادية قمتها حين قابلنا بين الحاجات اللانهائية والموارد النادرة نسبياً واستنتجنا فكرة الندرة وسمينا ذلك المشكلة الاقتصادية ، وقلنا إن ذلك هو موضوع علم الاقتصاد .

الخصائص التي قلناها ، نحن الاقتصاديين ، عن الحاجات هي صحيحة .

ولكن الطبيعة التحليلية التي وضعناها فيها هي التي يلزم أن نراجعها هنا ، وفي مرحلة المراجعة هذه تظهر لنا المساهمة التي قدمها **الشيباني في دراسة الحاجات الاقتصادية . في تناسق مثير للانتباه ، نجد أن الشيباني** بعد أن تكلم عن الحاجات يستعرض مجموعة من المواقف المنظمة لهذه الحاجات .

إن **الشيباني** حين حلل الحاجات الاقتصادية ، لم يحللها قابلاً لها في انطلاقاتها غير المحدودة جرياً وراء الرغبات الإنسانية وإنما حللها في ضوابط ، وهذه الضوابط لا تغير الخصائص للحاجات التي ذكرناها وإنما تنظمها ، وبعبارة شائعة الآن في الاستخدامات : **ترشدها . كيف** ؟ سؤال نجيب عنه باختصار .

يضع **الشيباني** الحد الإسلامي الأول ، أو يحدد أحد أطراف نهاية سلسلة إشباع الحاجات . يتمثل هذا الحد في ضرورة إشباع هذه الحاجات . يقول **الشيباني** :

« **من امتنع عن الأكل والشرب والاستكنان حتى مات وجب عليه دخول النار ، لأنه قتل نفسه قصداً** .. » (ص٧٨) .

هذا هو الطرف الأول في قضية **إشباع الحاجات الاقتصادية للإنسان** . ويعني هذا الطرف أن الإسلام يلزم بإشباعها . يتمثل الحد الأخير او الطرف الأخير في مجموعة من الضوابط ترشد إشباع هذه الحاجات . وقد أفاض **الشيباني** في دراسة هذه الضوابط إفاضة واسعة ، وعلى الرغم من صغر حجم مؤلفه : « **الكسب** » فإن ضوابط ترشيد إشباع الحاجات الإنسانية قد استوعبت عنده أكثر من خمس عشرة صفحة ، وفي موضوع آخر ، يقول **الشيباني** عن إشباع الحاجات :

« ... **المسألة على أربعة أوجه : ففي مقدار ما يسد به رمقه ويتقوى على الطاعة هو مثاب غير معاقب ، وفيما زاد على ذلك إلى حد الشبع هو مباح له محاسب على ذلك حساباً يسيراً بالعرض ، وفي قضاء الشهوات ونيل الملذات من الحلال هو مرخص له فيه محاسب على ذلك مطالب بشكر النعمة وحق الجائعين ، وفيما زاد على الشبع هو معاقب ، فإن الأكل فوق الشبع حرام** » (ص١٠٤) .

والنتيجة الإجمالية التي تعطيها لنا هذه الضوابط تتلخص في أن المقولة الاقتصادية - لا نهائية الحاجات - هي مقولة موضوعة تحت التحفظ في الاقتصاد الإسلامي . وتنقلنا هذه النتيجة إلى نتيجة أخرى ، وهي أن وضع لا نهائية الحاجات موضع شك يسقط أحد ركني قضية الندرة أو المشكلة الاقتصادية . وهكذا تكون مشكلة **الندرة الاقتصادية** قد وضعت موضع الشك .

عندي تعليق أخير على فكرة ضبط الحاجات الاقتصادية أو الرغبات الإنسانية التي نظرها **الشيباني** . هذا الموضوع هو شاغلنا الاقتصادي الآن ، وهو شاغل على مستوى العالم كله . المؤتمرات التي تعقد مؤتمر تلو مؤتمر **بقصد ترشيد استخدام الموارد الاقتصادية** : على سبيل المثال **مؤتمر ترشيد استخدام الطاقة ، او مؤتمر ترشيد الاستهلاك** ، موضوع هذه المؤتمرات كلها سبق به ، أو سبق بإثارة الاهتمام به الإمام **الشيباني** . ونقول بصدد ذلك : إن بعض الاقتصاديين يشيح بوجهه ونحن نحكي له قصة **عمر بن الخطاب** عندما قالوا له : **ألا نتخذ لك جوارشاً** ؟ قال : **وما يكون**

○ التخصص وتقسيم العمل ليس ضرورة اقتصادية فحسب وانما هو إلزام ديني ..

الجوارش ؟ قيل هاضوم يهضم الطعام . فقال : **سبحان الله أوياكل المسلم فوق الشبع ؟!**

هؤلاء الاقتصاديون الذين يشيحون بوجوههم عن الاقتصاد الإسلامي في هذه الصورة التي حكاها **الشيباني** في القرن الثاني الهجري ناقلاً لها عن صدر الإسلام . **هم أعلى الأصوات تحذيراً من الأخطار الاقتصادية لانفلات الاستهلاك في المجتمعات الحديثة** ، نسمع منهم ذلك في مؤتمر مثل مؤتمر ترشيد الاستهلاك ، ولعلني بهذه الحكاية أكون قد قلت عن أحد عناصر مشكلة الاقتصاد الإسلامي ونحن نعرضه اليوم **كبديل عن الاقتصاد الوضعي** .

خامساً - التخصص وتقسيم العمل :

أثار **الشيباني** فيما كتبه موضوع التخصص وتقسيم العمل ، وهو واحد من موضوعات الدراسة التمهيدية للنظرية الاقتصادية .

فمن أقواله : « ... **إن كل واحد لا يتمكن من تعلم جميع ما يحتاج إليه في عمره ، فلو اشتغل بذلك فني عمره قبل أن يتعلم ، وما لا يتعلم لا يمكنه أن يحصله لنفسه ، وقد تعلق بهذا مصالح المعيشة لهم : فيسر الله تعالى على كل واحد منهم تعلم نوع من ذلك حتى يتوصل إلى ما يحتاج إليه من ذلك النوع بعمله ، ويتوصل غيره إلى ما يحتاج إليه بعمله أيضا** ... » (ص٧٥) .

ومن أقواله أيضاً :

« ... **إن الفقير يحتاج إلى مال الغني ، والغني يحتاج إلى عمل الفقير ، فهنا أيضاً الزارع يحتاج إلى عمل النساج ليحصل اللباس لنفسه ، والنساج يحتاج إلى عمل الزارع لتحصيل الطعام ، والقطن الذي يكون منه اللباس لنفسه ، ثم كل واحد منهما يقيم من العمل ما يكون معيناً لغيره فيما هو قربة وطاعة ، فإن التمكن من إقامة القربة بهذا يحصل ، فيدخل تحت قوله تعالى** : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى** ... ﴾ ، **وقال** ﷺ : [**إن الله تعالى في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم**] » (ص٧٥) .

ومن أقوال **الشيباني** أيضاً عن التخصص وتقسيم العمل :

« ... **إذا نوى العامل بعمله التمكن من إقامة الطاعة أو تمكين أخيه من ذلك كان مثاباً على عمله باعتبار نيته** ... » (ص٧٦) .

وهكذا نلاحظ أنه يوجد عنصر اتفاق في كلا التحليلين : **التحليل الإسلامي ، والتحليل الوضعي . كلاهما يعتبر التخصص وتقسيم العمل ضرورة اقتصادية** .. هذا العنصر واضح عند **الشيباني** وهو واضح أيضاً عند **افلاطون** وعند آدم سميث وعند غيرهما .

فيما وراء الاتفاق حول هذا العنصر فإن تحليل التخصص وتقسيم العمل في الاقتصاد الإسلامي وفق ما قاله **الشيباني** يملك عنصراً يتميز به . ما هو هذا العنصر ؟ نراجع مرة أخرى تحليل **الشيباني** .

إنه لا يعتبر التخصص وتقسيم العمل ضرورة اقتصادية فحسب ، وإنما هو أيضاً إلزام ديني . إن الأدلة التي اعتمد عليها واختارها تجعل التخصص وتقسيم العمل بجانب أنه الوسيلة لتوفير المتطلبات الاقتصادية للجماعة ككل - وهذا هو العنصر الاقتصادي - فإنه أيضاً وسيلة للحصول على المثوبة من الله ، لأنه بالتخصص وتقسيم العمل كان في عون أخيه فكان الله في عونه ، كما نقل **الشيباني** عن **رسول الله** ﷺ .

كلمة ختامية ...

ما قلته في كل الصفحات السابقة هي رؤياي الاقتصادية لما قاله الإمام الشيباني ، باسم الإسلام ، في كتابه « الاكتساب في الرزق المستطاب » ، واعتقد أنه أعطانا بعض فروض الأساس التي تدخل في التمهيد للنظرية الاقتصادية في الإسلام .

جزى الله **الإمام الشيباني** جزاء من أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وندعو الله أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم .

هوامش ومراجع :

(١) استند في الدراسة التي أعملها على النسخة التي حققها وقدم لها الدكتور سهيل زكار ، وتحمل عنوان : «الكسب» - تصنيف الإمام الحسن الشيباني [١٣٢ - ١٨٩هـ - ٧٥٠ - ٨٠٤م] . نشر وتوزيع عبدالهادي حرصوني ، دمشق ، [١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م] .

(٢) جاء بها ماني القرن الثالث الميلادي ، مزج فيها تعاليم الزرادشتية والنصرانية واليهودية ، وعرف نشاط هذه الديانة عند المسلمين باسم حركة الزندقة ، وحاربت الإسلام بشكل مباشر ، أو غير مباشر عن طريق حركة زهد .

(٣) مجاهد بن جبر : مكي ، تابعي ، مفسر ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، مات سنة ١٠٤هـ .

(٤) انظر مؤلفنا : تاريخ الفكر الاقتصادي : رؤية جديدة في ضوء الاقتصاد الإسلامي ، (تحت الطبع) .

(5) La ratonalitisme .

(6) The economic man .

(٧) انظر بحثنا : منهج الادخار والاستثمار في الاقتصاد الإسلامي ، الناشر : الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية ، الفصل الثالث .

الإمام أبو داود السجستاني وكتابه السنن



عالم وكتاب

■■ عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» [رواه غير واحد من الصحابة، أخرجه ابن عدي والدارقطني وأبو نعيم].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره» [أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي، وهذا لفظ الترمذي].

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «ليس من أهل الحديث أحد إلا وفي وجهه نضرة لهذا الحديث» [قواعد التحديث: ٤٨].. وكان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: «لولا أهل المحابر، لخطبت الزنادقة على المنابر» [قواعد التحديث: ٤٩].

ومع هذه المنزلة الرفيعة لأهل الحديث، فإن الغارة كانت ـ ولا تزال ـ تقام عليهم بقصد التشكيك في الركن الركين والحصن الحصين للإسلام وهو السنة: وأكثر ما يستغله المشككون ـ بل أخطر ما يستغلونه ـ هو جهل كثير من المسلمين بهؤلاء الأئمة العظام مما يهيء الأجواء الفكرية لديهم لبناء رأي عام خاطيء عن هؤلاء الأعلام، مما يستلزم أن يعرف القارىء ويرى صورة ـ ولو مجملة وموجزة ـ لهؤلاء الأئمة.

وفي هذه السطور نقدم صورة مجملة للإمام أبي داود السجستاني. ■■

كنيته، واسمه، ونسبته

هو أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق ... **السجستاني**، نسبة إلى «**سجستان**» وهي إقليم متاخم لبلاد الهند.

مولده

قال **ابن حجر**: وقال **الآجري**: **سمعت سليمان بن الأشعث يقول: ولدت سنة اثنتين ومائتين ...».**

العصر الذي عاش فيه أبو داود

عاش **الإمام أبو داود في القرن الثالث الهجري في خلافة بني العباس**، وكان الزنج قد خرجوا على الدولة، حيث قام علي بن محمد بن عبد الرحيم القيسي، فجمع إليه الزنج الذين يسكنون السباخ في جهة البصرة، وادعى أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولما كثر أتباعه قاموا بأعمال التخريب، وقد نزل البصرة سنة ٢٥٤هـ فاستفحل أمره بها وبثَّ أصحابه يميناً وشمالاً للإغارة والنهب حتى انقطع عنها طلاب العلم بعد أن كانت عامرة بهم [المختصر في أحوال البشر: ٢/٤٦].

وكان لأبي داود الفضل في عمرانها مرة أخرى بطلاب العلم بناءً على رغبة الأمير أبي أحمد الموفق ...

ويعتبر عصر **أبي داود** أزهى عصور جمع الحديث، فقد ازدحم بحفاظ الحديث وجُمَّاعه، كعلي بن المديني، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم وغيرهم ...

طلبه للعلم ورحلته فيه

جدَّ **أبو داود** في طلب العلم، واجتهد في جمع الحديث، ورحل في ذلك إلى كثير من البلاد وسمع من شيوخها، فطاف بمصر والشام والعراق والجزيرة وخراسان، وغيرها، وقد صنَّف كتابه «**السنن**» ببغداد، وخرج منها سنة (٢٧١هـ) ولم يعد إليها، ونزل البصرة فسكن فيها واستقر، وكان فيها وفاته.

وقد تتلمذ أبو داود على كثير من كبار مشايخ عصره في علم الحديث، كأحمد بن حنبل الذي عرض عليه **أبو داود** كتاب «**السنن**» فاستجاده واستحسنه، وكعبد الله بن سلمة، وأبي سلمة التُبُوذكي، ومسلم بن إبراهيم، وإسحاق بن راهويه وغيرهم ...

تلاميذه

وقد تتلمذ على **أبي داود** كبار علماء الحديث وحفاظه، ومنهم: رواة «**السنن**» عنه، منهم **أبو عبد الرحمن النسائي، وأبو عيسى الترمذي** صاحبا السنن، وغيرهما.

وقد كتب عنه أستاذه **الإمام أحمد بن حنبل** حديث العتيرة [وهي شاة كانوا يذبحونها لآلهتهم في رجب، وهي أول ما ينتج] وهذا الحديث هو ما رواه **أبو داود** من حديث **حماد بن سلمة عن أبي معشر الدارمي عن أبيه أن رسول الله** ﷺ سئل عن العتيرة فحسنها.

وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على

● يحمل هذا العلم من كل خَلْفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين . . .

[حديث شريف]

● أخطر ما يستغله المشككون في السنة النبوية : جهل كثير من المسلمين بالأئمة العظام لهذا العلم ومابذلوه من جهد مبارك للحفاظ على السنة . . .

بقلم : عبد الرحمن عبد الحميد أحمد البر

عظم مكانة **أبي داود** عند شيخه **أحمد بن حنبل** .

أخلاق أبي داود

كان رحمه الله تعالى زاهداً ورعاً في أعلا درجة النسك والعفاف والصلاح والورع .

قال **ابن السبكي** : « قال شيخنا الذهبي رحمه الله :

« **تفقَّه أبو داود بأحمد بن حنبل ولازمه مدة ، وكان يُشَبَّه به ، كما كان أحمد يشبه بشيخه وكيع ، وكان وكيع يشبه بشيخه سفيان ، وكان سفيان يُشَبَّه بشيخه منصور ، وكان منصور يُشَبَّه بشيخه إبراهيم ، وكان إبراهيم يُشَبَّه بشيخه علقمة ، وكان علقمة يُشَبَّه بشيخه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه** » .

« **قال شيخنا الذهبي : وروى أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه كان يشبِّه عبد الله بن مسعود بالنبي ﷺ في هديه ودلِّه** » (الدل كالهدي ، وهما من السكينة والوقار وحسن المنظر) .

الناس في العلم سواء

ومن المواقف التي تسجل عظمة أخلاق أبي داود ، وتستحق أن تكتب له بمداد من ذهب : موقفه من أولاد الأمير « أبي أحمد الموفق » أخي الخليفة حيث رفض أن يفرد لهم مجلساً للعلم دون الناس بناءً على رغبة الأمير .

قال **ابن السبكي** : قال الخطابي : حدثني عبد الله بن محمد المكي ، حدثني أبو بكر بن جابر خادم أبي داود قال : كنت مع أبي داود ببغداد ، فصليت المغرب ، فجاء الأمير « أبو أحمد الموفق » فدخل ، فأقبل عليه أبو داود وقال : ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت ؟!

قال : خلال ثلاث ... قال : وما هي ؟ ... قال : تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطناً لترحل إليك طلبة العلم ، فتعمر بك ، فإنها قد خربت وانقطع عنها الناس لما جرى عليها من محنة الزنج ...

قال : هذه واحدة ... قال : وتروي لأولادي السنن ... قال : هات الثالثة ... قال : وتفرد لهم مجلساً ، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة ...

قال : أما هذه فلا سبيل إليها ، لأن الناس في العلم سواء .

قال ابن جابر :

فكانوا يحضرون وبينهم وبين العامة ستر » .

وهكذا اعتز أبو داود بكرامة العلم والعلماء التي لا يفرق فيها بين الناس في طلب العلم .

ثناء العلماء عليه

أثنى العلماء كثيراً على **أبي داود** ، وقدموه على أقرانه وعلى مشايخ عصره ، وشهدوا له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ أبو عبد الله بن مندة :

« **الذين أخرجوا وميزوا الثابت من المعلول ، والخطأ من الصواب أربعة : البخاري ومسلم ، وبعدهما : أبو داود والنسائي** » .

وقال موسى بن هارون الحافظ :

« **خُلِقَ أبو داود في الدنيا للحديث وفي الآخرة للجنة ، ما رأيت أفضل منه** » .

وقال الحاكم أبو عبد الله :

« **أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة** » .

وقال أبو بكر الخلَّال :

« **أبو داود الإمام المقدَّم في زمانه ، لم يُسبق إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بمواضعه . رجل ورع مقدم** » .

وقال أبو حاتم بن حبان :

« **كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وحفظاً ونسكاً وورعاً وإتقاناً ، جمع وصنَّف وذبَّ عن السنن** » .

وبلغ من تقدير العلماء **لأبي داود** ما ذكره **ابن خلكان** من أن سهل بن عبد الله التستري جاءه فقيل له : **يا أبا داود : هذا سهل بن عبد الله قد جاءك زائراً . فرحَّب به وأجلَّه . فقال : يا أبا داود : لي إليك حاجة** . قال : **ما هي ؟** . قال : **حتى تقول : قد قضيتها مع الإمكان** .. قال : **قد قضيتها مع الإمكان** .. قال : **أخرج لي لسانك الذي حدَّثت به عن رسول الله ﷺ حتى أقبِّله** . قال : **فأخرج له لسانه . فقبَّله** .

آثار أبي داود العلمية

ترك الإمام **أبو داود** رحمه الله تعالى ثروة علمية كبيرة من الكتب والمؤلفات الشيقة التي ضاع معظمها في زحام الأزمات والنكبات . ومنها : كتاب « **السنن** » وهو أشهرها ، وكتاب « **القدر** » ويرد فيه على أهل القدر ، و « **المسائل** » وهي مسائل خالف عليها الإمام أحمد بن حنبل شيخه وكتاب

« الناسخ والمنسوخ » ، وكتاب « دلائل النبوة » ، وكتاب « أخبار الخوارج » ، وكتاب « المراسيل » ، وكتاب « فضائل الأعمال » وكتاب « الزهد » ، وغير ذلك من الكتب التي كونت بمجموعها ثروة علمية متكاملة .

كتاب « السنن » لأبي داود

اشهر كتب أبي داود واعظمها ، دوَّن فيه اربعة آلاف وثمانمائة حديث انتقاها من بين خمسمائة ألف حديث .

قال تلميذه أبو بكر بن داسة ـ وهو أحد رواة السنن عنه ـ :

« سمعت أبا داود يقول : كتبتُ عن رسول الله ﷺ خمسمائة الف حديث ، انتخبتُ منها كتاب السنن فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ، ذكرتُ الصحيح وما يشبهه ويقاربه ، وما كان فيه وهن شديد فقد بيَّنْتُه » .

قال ابن السبكي : قال شيخنا الذهبي :

« وقد وفَّى بذلك ، فإنه بيَّن الضعيف الظاهر ، وسكت عن الضعيف المحتمل ، فما سكت عنه لا يكون حسناً عنده ولا بد ، بل قد يكون مما فيه ضعف » .

وقد سار **أبو داود** فيه على طريقة التخصص ، فحدد جانباً من جوانب السنة المشرفة وهو أعظمها وأكثرها نفعاً ، وهو الجانب الفقهي ، فجعل كتابه خاصاً بالأحكام والسنن ، فأبرز فيه ثروته الفقهية التي امتاز بها على من عدا البخاري ، فقسم كتابه إلى كتب ، وقسم الكتب إلى أبواب ، وجمع في هذه الأبواب الأحاديث التي يستدل بها الفقهاء ويبنون عليها الأحكام ، كما سجل التراجم على الأحاديث في براعة تدل على كمال إحاطته بمذاهب العلماء ومعرفته بمسالكهم في الاستدلال .

قال **أبو داود** في رسالته لأهل مكة :

« ولم أصنِّف في كتاب السنن إلا الأحكام ، ولم أصنِّف كتب الزهد وفضائل الأعمال وغيرها ، فهذه أربعة آلاف وثمانمائة حديث كلها في الأحكام ، وهناك أحاديث كثيرة في الزهد والفضائل وغيرها لم أخرجها » .

● سار «أبو داود» في كتابه «السنن» على طريقة التخصص ، فجمع في أبوابه ثروة فقهية من الأحاديث التي يستدل بها العلماء ويبنون عليها الأحكام . .

أهميـة كتاب السنن

ولقد أوضح **أبو داود** أهمية كتابه في قوله في رسالته لأهل مكة :

« وهو كتاب لا تَرِدُ عليك سنة عن النبي ﷺ بإسناد صالح إلا وهي فيه ، إلا أن يكون كلاماً استخرج من الحديث ، ولا يكاد يكون هذا ، ولا أعلم شيئاً بعد القرآن ألزم للناس أن يتعلموا من هذا الكتاب ، ولا يضر رجلاً ألَّا يكتب من العلم شيئاً بعد ما يكتب هذا الكتاب ، وإذا نظر فيه وتدبره وتفهمه ، حينئذ يعلم مقداره » .

قال **الخطابي** :

« وقد جمع أبو داود في كتابه هذا من الحديث في أصول العلم وأمهات السنن وأحكام الفقه ما لا نعلم متقدماً سبقه إليه ولا متاخراً لحقه فيه » « ولهذا » ـ يقول **الخطابي** ـ **« حلَّ كتابه من أئمة أهل الحديث وعلماء الأثر محل العجب ، فضربت فيه أكباد الإبل ودامت إليه الرحل » .**

وقد عدَّ الإمام شاه ولي الله الدهلوي كتاب « **السنن** » في الطبقة الثانية من كتب الحديث والتي تلي الصحيحين والموطأ .

أقـوال العلمـاء في « السنن » واعتناؤهم به

قال **الإمام الغزالي** : **« إن السنن لأبي داود تكفي المجتهد بعد كتاب الله** تعالى » وقال **ابن الأعرابي** ـ أحد رواة السنن ـ :

« لو لم يكن عند رجل إلا المصحف وهذا الكتاب ـ يعني السنن ـ لم يحتج إلى شيء من العلم البتة » .

وقال **إبراهيم الحربي** :

« لما صنف أبو داود السنن أُلين لأبي داود الحديث كما أُلين لداود عليه السلام الحديد » .

وقال **محمد بن مخلد** :

« ولما صنَّف ـ يعني أبو داود ـ السنن وقرأه على الناس صار للناس كالمصحف يتبعونه » .

وقد عرضه **أبو داود** على الإمام احمد فاستجاده واستحسنه .

ولهذا فقد اعتنى العلماء بالكتاب روايةً ودرايةً .

فرواه عنه تلاميذه ، واكمل الروايات عنه رواية تلميذه أبي بكر محمد بن عبد الرزاق بن داسة ، أما أصح الروايات فهي رواية تلميذه أبي علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلئي .

وقد جاوزت شروحه العشرة ، ولبعض شروحه مختصرات ، ومن أشهر شروحه « **معالم السنن** » للإمام أبي سليمان البستي الخطابي (ت ٣٨٨هـ) ، وقد صنف العلماء أيضاً مختصرات للسنن منها « **المجتبى** » للمنذري (ت ٦٥٦هـ) و « تهذيب سنن أبي داود » لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) .

وفـاة أبي داود

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال ، وبعد ثلاثة وسبعين عاماً قضى معظمها في المطالعة والدرس ، وفي خدمة حديث رسول الله ﷺ ، قضى أبو داود نحبه ، ولقي ربه لست عشرة خلون من شهر شوال سنة ٢٧٥هـ .

رحم الله أبا داود رحمة واسعة وجزاه لقاء خدمة حديث رسول الله ﷺ خير الجزاء .. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بقلم : خالد بن جدية

ابن جرير الطبري وكتابه جامع البيان في تفسير القرآن



عالم وكتاب

■■ لمَّا كان القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة وسر وجودها ورقيها ، فقد حَظِيَ بعناية فائقة من لدن المسلمين لم يَحْظَ بها كتاب آخر ... فقد فسره المفسرون ، واستنبط منه الفقهاء مادة فقههم ، وأدلى فيه الأدباء دلاءهم ليقفوا على بلاغته وفصاحته وسر إعجازه ، واحتج به علماء اللغة والنحو فيما استخلصوا من قواعد وأحكام ، وأعجب به الشعراء والكتاب فطفقوا يزينون شعرهم ونثرهم بأقباس من معانيه ولُمَعٍ من ألفاظه . ■■

[١] التفسير لغة واصطلاحاً

(أ) التفسير لغة :

أصل كلمة التفسير « الفَسْر » ، وتعني البيان والإيضاح ، وفي اللسان : الفسر هو البيان ، والتفسير مثله ... الفسر : كشف المغطى ، والتفسير : كشف المراد من اللغة المشكل ...

وقد وردت لفظة التفسير في كتاب الله جلَّ وعلا :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (الفرقان : ٣٣) .

« والتفسير لغة يستعمل في الكشف الحسي كما يستعمل في الكشف عن المعاني ، واستعماله في الأخير أكثر من استعماله في الأول . » (علم التفسير للذهبي : ٥) .

(ب) التفسير اصطلاحاً :

« وكلمة التفسير تطلق في اصطلاح علماء التفسير والمعنيين به على العلم الذي يفهم به كتاب الله ... وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه ، وهو أيضاً علم يبحث عن مراد كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان مراده ... » (علم التفسير للذهبي : ٦) .

[٢] التفسير من الوجهة التاريخية

نظراً لأهمية كتاب الله الحكيم ، فقد عني به المسلمون عناية فائقة ، وشرعوا في تفسير آياته وكشف أسراره منذ العهد النبوي ، ولا تزال عملية التفسير دائبة مستمرة ، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد مرَّ علم التفسير عبر مراحل عدة قبل أن يستقر على صورته الحالية ...

(أ) المرحلة الأولى للتفسير :

لما بعث الله جلَّ وعلا رسوله محمد بن عبد الله ﷺ إلى الناس كافة ، خصه بمعجزة خالدة هي القرآن الكريم بلغة العرب . فكان طبيعياً أن يفهم الرسول ﷺ القرآن جملة وتفصيلاً ، لكن الصحابة لم يكونوا على هذا القدر الرفيع من الفهم ، بل كان فهمهم لكتاب الله ظاهراً ، وجملة فقط ، ولم يكن تفصيلاً إلَّا للباحثين المدققين منهم ، الذين يدأبون على دراسته ، أو بالرجوع إلى الرسول ﷺ ليطلعهم على ما لم يطلعوا عليه ، وليفسر لهم بعض الذي استعصى عليهم ، ومهما يكن فهمهم فلن يصل إلى مستوى فهم الرسول الأعظم ﷺ .

وفي هذه المرحلة كانت مصادر التفسير محدودة أهمها القرآن الكريم ، وما فسَّره الرسول ﷺ ، وتفسير الصحابة بعد أن أعملوا رأيهم واعتمدوا على الاجتهاد وقوة الاستنباط ودقة النظر ... مستعينين في ذلك بأوضاع اللغة وأسرارها ، وما كان معروفاً في بلاد العرب من عادات وأخبار وقصص ، والظروف التي أحاطت بنزول بعض الآيات ، أما المصدر الثالث فهو ، أهل الكتاب الذين أسلموا ككعب الأحبار وعبد الله بن سلام ، وقد استعان بهم الصحابة المفسرون في تفسير بعض القصص القرآنية التي يجدون لها ذكراً في التوراة والإنجيل .

وقد اشتهر في هذه المرحلة : الخلفاء الراشدون خاصة علي بن أبي طالب ، واشتهر من الصحابة الكرام عبد الله بن مسعود ، وابن عبَّاس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو موسى الأشعري ، إلى جانب أنس بن مالك ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وجابر بن

عبد الله ، وعائشة ام المؤمنين رضي الله عنهم اجمعين ...

وقد يتبادر إلى الذهن أن التفسير في هذه المرحلة كان علماً قائماً بذاته ، لكن الصواب انه لم يكن علماً قائماً بذاته بل كان عبارة عن روايات منقولة بالإسناد كالحديث النبوي الشريف ، ومما امتاز به التفسير في هذه المرحلة قلة الاختلاف بين المفسرين والاستغناء عن الخوض العميق في آيات الذكر الحكيم ، والاقتصار على المعنى العام ...

(ب) علم التفسير في المرحلة الثانية :

لما انجلى عصر الصحابة رضي الله عنهم ، خَلَفهم تلامذتهم من التابعين الذين كان لهم فضل كبير في إثراء علم التفسير وتطويره ، وتوضيح معاني القرآن الكريم التي لم يوضحها الصحابة ، وقد برعوا في الاجتهاد براعة كبيرة ، واعملوا رايهم إعمالاً دقيقاً وعميقاً ، وقد كان هؤلاء التابعون مبثوثين في مختلف ارجاء العالم الإسلامي . ففي مكة المكرمة قامت مدرسة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بتخريج اعلام المفسرين كسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ـ وقيل : إنه بربري من أهل المغرب ـ وطاوس بن كيسان اليماني ، ومجاهد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ... أما في المدينة المنورة فقد اشتهر من التابعين زيد بن اسلم ، وابو العالية ، ورفيع بن مهران الرياحي ، وابن كعب القرظي ... أما استاذهم فهو الصحابي الجليل أُبي بن كعب . وبعيداً في ارض العراق اسس عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مدرسته العظيمة ، فنبغ فيها الحسن البصري ، وعامر الشعبي ، وعلقمة بن قيس النخعي ، ومرة الهمذاني ، وقتادة بن دعامة السدوسي ... لكن الذي عكّر صفو التفسير في هذه المرحلة دخول بعض الإسرائيليات التي تسامح بعض التابعين في إدخالها في التفسير مع بطلانها ، وخلال هذه المرحلة احتفظ التفسير بطابعه الأول مع تغيير يسير ، وعرفت هذه المرحلة ايضاً خلافات بين بعض التابعين الذين كانوا ينتصرون لمذاهبهم ، لكن ذلك كان ضعيفاً بالقياس مع من تلاهم .

(ج) التفسير في مرحلته الثالثة :

في هذه المرحلة بدأت حركة التدوين لحديث رسول الله ﷺ ، وخلالها انفصل التفسير عن الحديث ، واستقل عنه[1] ، وقد قام المفسرون بجمع تفاسير الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، وهو ما يسمى التفسير بالمأثور ، وقد امتدت هذه المرحلة من أواخر عهد بني امية إلى أوائل عصر بني العباس ، وخلالها خطا التفسير خطوات عظيمة إلى ان اصبح مرتباً على المصحف ، وقد تم ذلك على يد ابن جرير الطبري الذي يعد من اكبر المفسرين بالمأثور ، في حين تواصلت الخطوات الأخرى لعلم التفسير تباعاً ولا تزال متواصلة حتى عصرنا هذا . فظهرت خلال هذه المرحلة ـ التي لمّا تنته بعد ـ عدة انواع من التفسير يمكن حصرها في خمسة انواع :

(١) التفسير بالمأثور[2] .
(٢) التفسير بالرأي ، أو التفسير العقلي[3] .
(٣) التفسير الموضوعي[4] .
(٤) التفسير الإشاري[5] .
(٥) التفسير العلمي[6] .

[٣] ابن جرير الطبري حياته وآثاره

(أ) حياته :

ولد إمام المفسرين وسلطان المؤرخين وفقيه اللغة الكبير أبو جعفر محمد بن جرير يزيد بن غالب الطبري عام ٢٢٤هـ/٨٣٨م على الأرجح ببلدة « آمد » إحدى قصبات إقليم « طبرستان » المكونة من كلمتي « طبر » أي آلة حربية و « ستان » أي بلاد ، وقد نسب ابن جرير ـ وغيره من أهل طبرستان ـ للمقطع الأول فقيل له الطبري ...

عني به والده عناية عظيمة لرؤية رآها في نومه مجملها انه رأى الرسول ﷺ وإلى جواره ابنه ومعه مخلاة مملوءة بالحجارة يقذف بها بين يديه . فاستفسر عن تأويل رؤياه ، فقيل له : « إن كبر نصح في دينه وذبَّ عن شريعته » . لهذا قام والده بإنشائه نشأة علمية قال عنها ابن جرير نفسه : « حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وصليت بالناس وانا ابن ثماني سنين وكتبت الحديث وأنا ابن تسع » . وقال أيضاً : « حرص أبي على معاونتي في طلب العلم وانا حينئذ صبي صغير » . ولما كانت بلدته بعيدة عن عواصم العلم والمعرفة فقد غادرها قاصداً في البداية مدينة الري ، فأخذ عن أحمد بن حماد الدولابي وسلمة بن الفضل ، وابن حميد الرازي ، ودرس على أيديهم ، حتى إذا آنس من نفسه قدرة على مواصلة الكفاح في سبيل العلم ، انتقل إلى بغداد ثم إلى البصرة فالكوفة وتتلمذ على مشاهير علماء عصره كابن موسى الحرشي وابن عبد الأعلى الصنعاني وأبي كريب محمد بن العلاء الهمذاني وغيرهم ... ولم يلبث ان غادر العراق إلى بيروت فالفسطاط ، ليتصل بأبي الحسن السراج المصري الأديب الكبير ، وخلال هذا الكفاح الطويل في سبيل العلم استطاع الطبري أن يحصل علوماً كثيرة كالقراءات والتفسير والحديث والتاريخ والنحو والبلاغة والفقه ، وقد عرف إلى جانب كل ذلك بخلق متين ، فقد كان عزوفاً عن الدنيا ، شريفاً عفيفاً ، تقياً ورعاً ، أنيقاً جميل المعاشرة ، حسن المؤانسة رقيق الطبع ...

(ب) آثاره :

كدأب من يهب حياته للعلم والانقطاع للدرس والتأليف ، فقد صنف الطبري عدة تصانيف أجاد فيها جميعاً ، واستوفى الغاية منها ، ومن أهم مؤلفاته :

١ ـ « تاريخ الأمم والملوك » ويعد من أكبر الموسوعات التاريخية الإسلامية .
٢ ـ « أدب المناسك » ويدور حول الطريقة التي تتم بها فريضة الحج .
٣ ـ « تهذيب الآثار » وهو في علم الحديث ، ويعد من روائع مصنفاته .
٤ ـ « اختلاف علماء الأمصار » .
٥ ـ « البصير في معالم الدين » .
٦ ـ « الخفيف في الفقه » .
٧ ـ « بسيط القول في أحكام وشرائع الإسلام » .
٨ ـ « آداب النفوس » .
٩ ـ « القراءات » .
١٠ ـ « تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين » .
١١ ـ « العدد والتنزيل » .
١٢ ـ « جامع البيان في تفسير القرآن » ، وله تصانيف أخرى .

[٤] منهج الطبري في تفسيره الخالد

« عرف ابن جرير بمنهجه الخاص في التفسير ، فهو إذا أراد تفسير آية من القرآن يقول : القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا ، ثم يفسر الآية ويأتي ببرهان ما قاله بما يرويه بسند إلى الصحابة والتابعين من التفسير المأثور عنهم ، وإذا كان في الآية قولان أو أكثر فإنه لا يغفلها ، ويستشهد على كل قول بما يرويه من ذلك عن الصحابة والتابعين ... » (الحضارة الإسلامية لإبراهيم يوسف ومحمد النادي : ٢٤) وهو في ذلك كله يستخلص من الأحكام الواردة في الآية ، ويذكر الأقوال ويرجح بعضها على بعض . والطبري يستنكر الرأي المستقل ، ويعتمد على المأثور من تفاسير الصحابة والتابعين ، فإن لم يجد اعتمد على الاستنباط الواعي والذكي ، وفي أثناء ذلك يذكر ابن جرير الروايات ويرجح بعضها على بعض إضافة إلى الإسناد ، ولا يكتفي بذلك ، بل ينتقد رجال الإسناد إذا شك في صحة ما أسند إليهم أو ما رووه ، ويرجح في ذلك مفضلاً بعضهم على بعض ليزيل عن الناظر في كتابه وتفسيره الريبة والشك . ومما يجعل تفسيره صحيحاً

■ أصلح التفاسير التي في أيدي الناس : تفسير محمد بن جرير الطبري ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين . ■

[ابن تيمية]

ومتيناً إقراره بما اجمع عليه العلماء واجمعت عليه الأمة . ومن امثلة ذلك انه لما عرض لقوله تعالى :

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ (البقرة : ٢٣) ، قال ما نصه : قال قائل : فـاي النكـاحين عنى الله تعـالى بقـولـه : ﴿ فَلَا تَحِلُّ ... ﴾ ؟ النكاح الذي هو جماع ام النكاح الذي هو عقد تزويج ؟ فقيل كلاهما : وذلك ان المراة إذا نكحت زوجاً نكاح تزويج ثم لم يطاها في ذلك النكاح حتى يطلقها لم تحل للأول ، وكذلك إن وطئها واطىء بغير نكاح لم تحل للأول لإجماع الامة جميعها ، فإذا كان ذلك فمعلوم ان تاويل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ نكاحاً صحيحاً ثم يجامعها فيه ثم يطلقها . فإن قال : فإن ذلك الجماع غير موجود في كتاب الله تعالى ذكره ، فما الدلالة على ان معناه ما قلت ؟ قيل الدلالة على ذلك إجماع الأمة . » .

ومن خصائص منهجه انه يتحاشى المناقشات عديمة الجدوى والفائدة ، إلى جانب اهتمامه بالقراءات التي هو من كبار علمائها . ويتخلل تفسيره عدد كبير من الإسرائيليات لكن الطبري يورد الصحيح منها والمنسوب للذين أسلموا من اهل الكتاب ككعب الأحبار وغيره .. ، لكنه وقع في بعض الأخطاء كتفسيره لقصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها .

وقد اعتمد في كثير من التفاسير للقصص القرآنية على ما ورد في التوراة والإنجيل وما نقله بالإسناد عن الذين اسلموا من أهل الكتاب كقصة ذي القرنين وموسى ويوسف عليهم السلام .

اما اسلوبه فإنه متميز يتطلب تانياً وتجلداً كبيراً لتتابع معانيه واتصال بعضها ببعض . لكنه مع ذلك إذا آنسه المرء سهل عليه امره ، إلَّا انه يعتريه في بعض الأوقات غموض في الصياغة والتركيب يحتاج إلى صبر غير يسير . يقول العلامة محمود محمد شاكر في مقدمة تفسير الطبري الذي قام بتصحيحه وتحقيقه وشرحه : « كان يستوقفني في القراءة كثرة الفضول في عباراته وتباعد اطراف الجمل فلا يسلم لي المعنى حتى اعيد القراءة مرتين او ثلاثاً ... وكان سبب ذلك اننا الفنا منهجاً من العبارة غير الذي انتهجه ابو جعفر (الطبري) ، ولكن تبيَّن لنا ان قليلاً من الترقيم في الكتاب خليق أن يجعل عباراته أبين ، فلما فعلت ذلك في انحاء متفرقة من نسختي وعدت بعد إلى قراءتها وجدتها قد ذهب عنها ما كنت اجد من المشقة ... » (مجلة العربي ، العدد ١٢٩) .

وهذا لم يقع لمحمود شاكر وحده بل وقع للمفسرين قديماً كالسيوطي والقرطبي وغيرهما . وهذا ليس عيباً في اسلوبه بل هو ضرب من النثر الفني الجميل غير المثقل بالتكلف والألفاظ المنتقاة ، وهو اسلوب جزل يحتاج إلى قليل من الانتباه واليقظة ..

[٥] قيمة تفسير الطبري ومكانته

اجمع العلماء قديماً وحديثاً على عظم مكانة تفسير الطبري ، قال الإمام السيوطي : « وكتابه - اي الجامع - اجلّ التفاسير واعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والاستنباط ، فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين » .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى : « واما التفاسير التي في أيدي الناس فاصلحها تفسير محمد بن جرير الطبري ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين ... » .

وقال الإمام النووي : « اجمعت الأمة على انه لم يصنف مثل تفسير الطبري ... » .

وقال ابو حامد الإسفراييني : « لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً ... » .

ومما كتبه المستشرق « نولْدِكَهْ » الالماني قوله : « لو كان بين ايدينا هذا الكتاب لاستغنينا عن كل التفاسير المتاخرة عليه ، ولكنه يبدو - للأسف - مفقوداً بالكلية وقد كان مثل كتاب التاريخ لنفس المؤلف نبعاً لا ينضب ، استمد منه المتاخرون حكمتهم ... » .

هكذا نلمس المكانة المرموقة التي يحتلها تفسير الطبري . والتي استحقها عن جدارة تامة لأهميته ، وللطريقة القويمة التي سلكها فيه ، فهو - إذنْ - بحق اعظم واشمل تفسير ، فقد جمع كل المحاولات التي سبقته لتفسير كتاب الله تعالى من لدن الصحابة والتابعين وغيرهم ...

[٦] ضياع تفسير الطبري وظهوره مؤخراً

بالرغم من أن - الجامع - قد عدّ من ادقّ وأعظم ما صنف في التفسير فقد اندثر وضاع وفقد ، ولم تر نسخته النور ابداً خلال قرون عديدة ولم يعرفه إلَّا القليل من العلماء ، ولكن الله تعالى اراد ان ييسر ظهور هذا الكتاب ليرى النور من جديد ، وقد وجدت نسخته كاملة في مكتبة امير حائل . يقول العلامة محمود شاكر : « والنسخ المخطوطة الكاملة من تفسير الطبري لا تكاد توجد ، والذي منها في دار الكتب المصرية اجزاء مفردة من الجزء الاول والجزء السادس عشر ، ومنها مخطوطة واحدة كانت في خمسة وعشرين مجلداً ضاع منها الجزءان الثاني والثالث ... وهي على ما فيها تكاد تكون أصح النسخ ، وهي محفوظة بالدار تحت رقم (١٠٠) - تفسير - » (العربي العدد ١٢٩) .

ويقول الدكتور الحوفي الذي كتب عن الطبري في سلسلة اعلام العرب : « طبع - اي الجامع - سنة ١٩٢١م بالمطبعة الميمنية بالقاهرة ، وبمطبعة بولاق سنة ١٩٢٣م ، ويطبع بدار المعارف - الآن - بمصر بتحقيق الأستاذ محمود شاكر ... » (العربي العدد ١٢٩) .

---

(١) لم يتم هذا الانفصال إلَّا في فترة متقدمة من المرحلة الثالثة على يد ابن ماجه : م ٢٧٣هـ ، والطبري : م ٣١٠هـ .

(٢) اشهر التفاسير بالمأثور : تفسير الطبري ، وتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي : (م٧٧٤هـ) ، والدر المنثور لجلال الدين السيوطي : (م٩١١هـ) ...

(٣) التفسير بالرأي صنفان : (الرأي الجائز) كمفاتيح الغيب للفخر الرازي (م٦٠٦هـ) ، وأنوار التنزيل للبيضاوي (م٦٩١هـ) وروح المعاني لشهاب الدين الآلوسي (م١٢٧٠هـ) ... و (الرأي المذموم) كالكشاف للزمخشري (معتزلي) (م٥٣٨هـ) .

(٤) وهو الاهتمام بموضوع خاص من القرآن وأهم التفاسير الموضوعية : التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (م٧٥١هـ) .

(٥) يقوم على تأويل آيات الذكر الحكيم على خلاف ظاهرها ... وأهم التفاسير الإشارية تفسير القرآن العظيم للتستري (م٢٨٣هـ) وعرائس البيان لأبي محمد الشيرازي (م٦٠٦هـ) .

(٦) وهو استخراج ما تحمله عبارات القرآن من آراء علمية وفلسفية ... اهتم بهذا الجانب حجة الإسلام الغزالي ، والسيوطي في كتابيه (الإكليل) و (الإتقان) . أما حديثاً فقد اهتم بهذا الجانب الشيخ طنطاوي جوهري والشيخ مصطفى المراغي والشيخ محمود شلتوت .



إن هذا ليعني أن المحدثين في منهجهم الصارم في رواية الحديث و « نقده » ونقد « رواته » و « حملته » قد أفادوا من هذه الدراسة المنهجية الناقدة في « **الجرح والتعديل** » في الكتابة التاريخية ، وليس عجيباً أن تجد المؤرخين ومنهم : ابن سعد والطبري وابن الأثير وغيرهم ممن سبق وممن خلف نقاداً للمقولة التاريخية يقلّبون فيها الرأي فيسترجحون منه ويرفضون منه ، ويقفون من حَمَلة الأخبار موقفهم من حَمَلة « **العلم الشريف** » وهو حديث رسول الله ﷺ .

وقد كان من عجبي أن أقرأ لعالم جليل من علماء الشيعة تجريحه للإمام البخاري ، ونعته بنعوت لا تليق ، وهو يكتب « **تقديماً** » لكتاب في حديث « **السقيفة** » . قلت : لقد عجبت مما قرأت ، لعلمي أن الإمام البخاري صاحب « **المسند** » وصاحب التاريخ الكبير قد أحسن وأفلح في هذا العلم الشريف من « **الحديث** » و « **التاريخ** » و « **التفسير** » وإنه كان يتحرى العلم الصحيح .

تهـــذيب الآثـــــار للطبـــري . .

وإني لأخلص في هذا الموجز إلى شيء يتصل بكتاب جليل للإمام أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري المشهور ، وكتابه هذا هو « **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ في الأخبار** » وهو الكتاب الذي مات الطبري ولم يُتمه .

أَلّـف **ابو جعفر الطبري الإمـــام** كتابه على طريقة المسانيد ، وهو في أجزاء عدة ضاع أكثرها ولم يبق منه إلا سفر فيه قسم من « **مسند عمر بن الخطاب** » ، وسفر فيه شيء من « **مسند علي بن أبي طالب** » ، وسفر فيه قسم من « **مسند عبد الله بن عباس** » .

وقد جاء في صفة هذا الكتاب ما كتبه **تاج الدين السبكي** فذكر ترتيب المسانيد ، أولها « **مسند العشرة** » ، وهم العشرة المبشرون بالجنة رضوان الله عليهم أجمعين :

ابو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب ، وطلحة بن عبيدالله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن ابي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعبدالرحمن بن عوف ، وابو عبيدة بن الجراح .

وهذا الترتيب أثبته محقق الكتاب من « **مسند احمد بن حنبل** » ، وقد تكلم على هذه المسألة ما فيه الكفاية .

لقد ذهب الأوائل إلى أن **ابا جعفر** قد نهج في كتابه هذا منهجاً فريداً لم يسبق إليه ، ولا يشبهه شيء من الكتب التي أُلِّفت بعده ، ولولا أنه مات قبل إتمامه ، لكان عمدة عند علماء الحديث وأئمة الفقه .

لقد عدّوا « **تهذيب الآثار** » هذا من أجل كتب أبي جعفر ، فقد أثنوا عليه واقتبسوا منه واستشهدوا به ، وكان الحافظ ابن حجر أكثر من أفاد من هذا الكتاب ولا سيما في كتابيه « **فتح البـاري** » و « **تهذيب التهذيب** » ، **كما لا تعدم أن تجد اثر هذا الكتاب في سائر كتبه الاخرى .**

وقد أفاد منه ايضاً ابن التركماني ، من علماء القرن الثامن الهجري في « الجوهر النقي في الردّ على البيهقي » ، وهذا ما افدته مما ذكره المحقق شيخنا الجليل .

لقد اضطلع الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر بتحقيق الأجزاء التي بقيت من « تهذيب الآثار » فظهر منه الآن ثلاثة أسفار ، أولها : « **مسند علي بن ابي طالب** » وهذا هو الذي أقف عليه الآن آملاً أن يتهيأ لي الوقوف على السفرين الثاني والثالث .

قلـــت : لا ادري بأيهما أنا أشد فرحاً ، أبظهور هذا الكتاب بعد أن عفي أثره ، وحُسب من النفائس الضائعات ، أم بتحقيق الأستاذ الجليل الذي اضطلع به وقدَّم له وخرَّج أحاديثه وهو أبو فهر الأستاذ **محمود محمد شاكر** ؟

ومن حق الإنصاف علي أن أشيد بعمل المحقق الذي أضاف إلى فوائد الكتاب النفيسة فوائد أخرى هي أعلاق نفيسة تتجلى في التعليقات البارعة وكالذي ينبهر منه المستفيد من قراءة مقدمة شيخنا المحقق الجليل .

ثم مـــاذا ؟ ما أظن إلا أن طالب هذا العلم ليجد في جهد الأستاذ المحقق

بقلم : الدكتور . ابراهيم السامرائي

■■ لقد عُني المسلمون طوال تاريخهم بالحديث الشريف عنايتهم بالتنزيل العزيز ، فكما كان من عنايتهم بكلام الله أن كان لهم جملة علوم هي علوم القرآن ، وعلوم أخرى هي « العلوم العربية » ، كذلك كان للحديث جملة علوم تتناول « مصطلحه » وفوائد أخرى ، وهي في جملتها « علوم الحديث » ، وقد أُلِّف في هذه المسائل مصنفات جليلة الأثر .

وإذا كانت لغة التنزيل العزيز قد أدَّت فيما أدَّت إليه إلى درس « العربية » وتاريخها ، فإن الحديث الشريف قد أدَّى إلى الدرس التاريخي وأريد به ما يدعى بـ « علم التاريخ » أو « كتابته » وهو الذي يدعوه الغربيون بـ « Historiography » ، وإنه لشيء ذو دلالة أن يكون « المحدِّثون » والذين صنَّفوا في تاريخ المحدثين من أهل الطبقات و « الرجال » ، ممن صنَّف في « التاريخ » على نحو ما درج عليه أهل « الحوليات » مراعاة للسنين ، أو ممن كتبوا في « الخطط » أو ممن صنفوا في « الرجال » . وإنك لتجد طائفة كبار المحدثين الأوائل « مؤرخين » كتبوا في « التاريخ الكبير » وفي « الرجال » أيضاً ■■

محدِّثاً بارعاً ، له مراس جاد ونظر ثابت في معرفة الحديث ورجاله ، وإن ذلك ليبدو مما صنعه من فهارس الأسانيد ورواتها وطبقاتهم ، وقد بلغ في هذا من الإتقان وحسن التأتي حداً يضيء الطريق للسائرين في هذا الجدد .

ثناء الأوائل على الكتاب . . .

وقبل أن آتي إلى مادة « **الكتاب** » يحسن لي أن أستوفي الكلام على « **مقدمة** » المحقق ، وذرءٍ يسير مما قبسته من منهج المؤلف في تصنيف كتابه .

قلت : لقد أعجب بالكتاب الأوائل فقال فيه « **النديم** »[1] في « **الفهرست** » عند ذكره لكتاب الإمام أبي جعفر الطبري : (... **كتاب « تهذيب الآثار » ولم يتمَّه والذي خرّج منه ما انا ذاكره**) غير انه لم يذكر ما وعد به لخرم واقع في نسخة « **الفهرست** » .

وممن أثنوا على الكتاب **الخطيب البغدادي** في ترجمته في « **تاريخ بغداد : ٢/١٦٣** » فقال وهو يذكر بعض كتبه : (... **وكتاب سمَّاه « تهذيب الآثار » لم أر مثله في معناه ، إلَّا انه لم يتمَّه**) .

قلت : وتعليق **الخطيب البغدادي** على الكتاب وإشادته به ذات دلالة كبيرة ، وذلك لعلمنا أن الخطيب من رجال الحديث ، وأنه صاحب دراسة في « **الرواية** » و « **الأثر** » وله في هذه الأبواب مصنفات معروفة .

وذكر « **الكتاب** » وأثنى عليه **ياقوت الحموي** في كتابه « **معجم الأدباء ٦/٤٤٨** » وهو يشير إلى مصنفات الطبري فقال :

(... **ومنها : كتاب « تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الاخبار » ، وهو كتاب يتعذر على العلماء عمل مثله ، وتصعب عليهم تتمته . قال ابو بكر بن كامل**[2] : **لم أرَ بعد ابي جعفر اجمع للعلم وكتب العلماء ، ومعرفة اختلاف الفقهاء ، وتمكنه من العلوم منه ، لأني اروض نفسي في عمل « مسند عبدالله بن مسعود » في حديث منه ، نظير ما عمله ابو جعفر ، فما احسن عمله ولا يستوي لي**) .

وقال أيضاً ، وهو يذكر نصيحة **ابي جعفر** لتلاميذه ، فيما روى عنه ياقوت «٦/٤٤٩» :

(... **وكان « يعني ابا جعفر » يجتهد بأصحابه ان ياخذوا «البسيط»**[3] **و «التهذيب» ، ويجدوا في قراءتهما ، ويشتغلوا بهما دون غيرهما من الكتب**) .

وذكر « **الكتاب** » أيضاً **تاج الدين السبكي** (٧٢٧ ـ ٧٧١هـ) في كتابه « **طبقات الشافعية : ٣/١٢١** » ، **فقال** :

(... **وابتدأ تصنيف كتاب « تهذيب الآثار » وهو من عجائب كتبه ، ابتداه بما رواه ابو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، مما صح عنده سنده ، وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه ، وما فيه من الفقه والسنن واختلاف العلماء وحججهم ، وما فيه من المعاني والغريب ، فتم منه « مسند العشرة ، واهل البيت والموالي ، ومن مسند ابن عباس قطعة كبيرة ، ومات قبل تمامه**) ثم نقل كلام **الخطيب البغدادي** .

وآخر من نوَّه بـ « **الكتاب** » **الحاج خليفة** (١٠١٧ ـ ١٠٦٧هـ) في « **كشف الظنون : ١/٥١٤** » فقال :

(... **تهذيب الآثار لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ، وهو كتاب تفرَّد في بابه بلا مشارك**) .

منهج المؤلف في « تهذيب الآثار » . . .

لقد أشرنا إلى أن العلماء قد أشاروا إلى أن المؤلف لم يسبق إلى مثل هذا الكتاب ، وقد أوفى **تاج الدين السبكي** على ما يمكن أن يكون من خصائص منهج المؤلف فيه .

غير أن ما يجدر أن يشار إليه مما لم يذكروه هو ما أشار إليه شيخنا المحقق البارع في قوله :

(... **إن ابا جعفر حين يفرغ من ذكر اختلاف العلماء ، وذكر حججهم في اختلافهم ، يتبعه بصواب القول عنده ، أي بمذهبه هو في**

المسالة ، وحجته في صواب ما يذهب إليه ، على الأصـــول التي قرَّرها في كتابه « كتاب الرسالة » ، كما اشار إلى ذلك في الصفحتين[١] : ٣٣ ، ٣٤[٥]) .

وقد اشار المؤلف إلى انه صدَّره بمقدمة في « مسند ابي بكر » وهو أول الكتاب ، ذكر فيها ، أكبر الظن ، شروطه ومنهجه في تأليف الكتاب ، وذلك حين سرد الأخبار التي جاءت في ذِكْر الرجل الذي نادى بمنىً بالنهي عن صوم أيَّام التشريق عن أمر رسول الله ﷺ إياه بذلك ، واختلاف الرواية في اسم المنادي بذلك من الصحابة فقال **ابو جعفـــر** :

(... « **فإن قال لنا قائل** : **ما انت قائل** في هذه الأخبار التي رويتها لنا ؟

فإن قلت : إنها صحاح ، قلنا لك : فما وجه اختلافها في المنادي الذي نادى بالنهي عن صوم أيَّام التشريق عن أمر رسول الله ﷺ إياه بذلك ؟

وإن قلت : إنها غير صحاح ، قيل : فما وجه ذكرك لها ، وقد شرطت لنا في أول كتابك هذا ، انك لا ترسم إلا ما كان عندك صحيحاً ؟

قيـــل : أما الأخبار التي ذكرناها ، فإن منها عندنا صحاحاً ، ومنها غير صحاح ، ولم نذكر ما كان عندنا غير صحيح ، استشهاداً به على دين ، ولا على الوجه الذي شرطنا في كتابنا هذا أن لا نذكره ، إذ كان الذي شرطنا في أول كتابنا هذا ترك ذكره فيه ، هو ما لا نراه في الدين حُجَّة ، إلا الحكاية عمَّن احتج به في توهين خبر ، أو تأثير مقالة هو بها قائل ، عند ذكر مقالته ، وما اعتل به لها .

وإنما احضرنا ذكر ما لم نر من هذه الأخبار صحيحاً في هذا الموضوع ، لاعتلال من اعتل به في توهين خبر « **يوسف بن مسعود الثقفي** » الذي رواه يحيى بن سعيد حكاية عنه[٦] ، لا احتجاجاً به منَّا . على ان ذلك كله لو كان صحيحاً ، لم يكن في اختلاف الرواة في اسم الذي سمعوه ينادي بما ذكرنا يومئذٍ ما يوهن الخبر ، ولا يزيله عن أن يكون حجة على من دان بتصحيح القول بخبر الواحد العدل . وذلك انه جائز ان يكون رسول الله ﷺ وجَّه ذلك اليوم كلَّ رجل ممَّن ذُكر انه سُمع ذلك اليوم ينادي بما ينادي به في ناحية من نواحي مِنىً ، فسمع أهل كل ناحية منها مَن وُجِّه إليها ، فأخبروا باسم من سمعوه ينادي بذلك .

وذلك إذا كان كذلك لم يكن اختلافاً ، بل يكون تأييداً وتوكيداً ، وغير جائز حمل ما حَمَلَته الثقات من الآثار على الفاسد من الوجوه ، ولها في الصحة مخرج[٧]) .

ويقول المحقق الجليل في هذا النص المتقدم :

فبيَّن جداً أن أول شروطه في « **كتابه** » هو ذكر ما صح عنده سنده من الحديث عن رسول الله ﷺ ، وترك ذكر ما لم يصح عنده سنده ؛ وإذا ذكر ما لم يصح سنده ، فإنما يذكره لأنه مما احتج به محتج في تأييد مقالة يقول بها ، أو في توهين خبر هو عنده صحيح ، ولكنه حين يذكره ، لا يذكره استشهاداً به .

ومن شرطه ايضاً أن يفصل القول في الآثار الصحيحة ، إذا اختلفت في ظاهرها ، ليجمع بينها على وجه يخرجها مخرجاً صحيحاً ، بريئة من الاختلاف الظاهر عند أول النظر ، وذلك لأنه غير جائز عنده ، حَملُ ما حملته الثقات من الآثار عن رسول الله ﷺ على الفاسد من الوجوه ولها في الصحة مخرج . وانظر مثال ذلك في (الحديث : ١٠١م) ، والأخبار : ١ ـ ٨٦ ، ثم ما قاله بعد ذلك (ص٣٣ ، ٣٤) في الجمع بين حديث : « **فِرَّ مِنَ المجذوم فرارك من الأسد** » ، وحديث : « **لا تديموا النظر إلى المجذَّمين** » وسائر اخبار هذا الباب[٨] .

وليس هذا موضع استخراج شروط **ابي جعفر** التي نرجح انه ذكرها في مقدمته « **تهذيب الآثار** » لكنه موضع تنبيه لذلك ، لمن يَرَى في نفسه قدرة على استخراج قواعد **ابي جعفر** في تصحيح الأحاديث والآثار ، وعلى تبيان طريقته في الجمع بين معاني الآثار المختلفة ، وعلى استنباط اصوله التي بنى عليها مذهبه في الفقه .

ويخلص الأستاذ الجليل إلى القول : وهذا امر ينبغي ان ينتدب له من يرى في نفسه القدرة عليه ، بعد ما أصاب كتبه التي كتبها في مذهبه وفي أصول مذهبه ، ما أصابها من الضياع ، مثل « **كتاب الرسالة** » الذي ذكرته آنفاً ، وكتاب « **مختصر لطيف القول في احكام شرائع الإسلام** » وكتاب « **البسام من شرائع الإسلام** » ، وكتاب « **الخفيف في شرائع الإسلام** » مما أشار إليه **ابو جعفر** في « **تفسيره** » وفي هذا « الكتاب » ، وهما ، إن شاء الله ، مغنيان اكبر الغناء في تحرير بعض اصول ابي جعفر التي بنى عليها خلافه لمن سبقه من الأئمة رضوان الله عليهم[٩] .

أمثلـــة من الكتـــاب ...

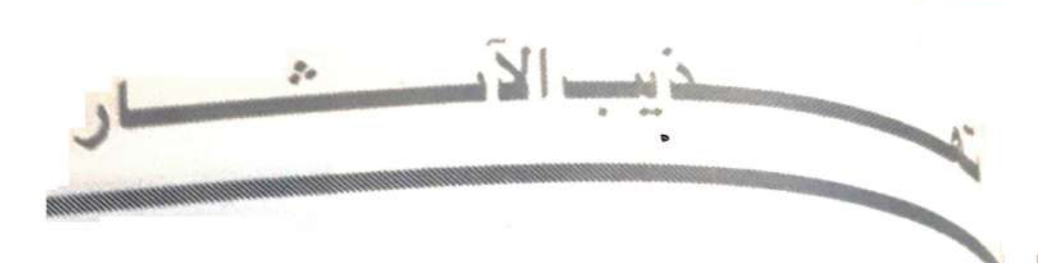
ولنبدأ بشيء من « **الكتـــاب** » لنتبين طريقة **ابي جعفر** في سرد الأخبـــار وكيف يقف منها :

قال ابو جعفر في : **ذكر ما لم يمض ذكره من اخبار ثعلبة بن يزيد الحِمَّاني عن علي رضوان الله عليه ، عن النبي ﷺ** .

١ - **حدَّثنا ابن حميد قال** . **حدثنا هارون بن المغيرة قال** . **حدَّثنا سفيان** ، **عن حبيب بن ابي ثابت** ، **عن ثعلبة بن يزيد الحِمَّاني قال** : **سمعت عليّاً يقول** : **قال رسول الله ﷺ** :

لا صَفَر ، ولا هامة ، ولا يُعدي سقيم صحيحاً . قلت : أأنت سمعتَ هذا من النبي ﷺ ؟ **قال** : **نعم**[١٠] .

٢ - **حدَّثنا ابن حميد قال** : **حدَّثنا عبد الله بن الجهم قال** : **حدَّثنا عمرو عن ابي قيس** ، **عن سفيان** ، **عن حبيب** ، **عن ثعلبة** ، **عن علي** ، **عن النبي ﷺ** ، **مثلـه** .



القــــول في علل هــذا الخـــبر . . .

وهذا خبر عندنا صحيح سنده ، وقد يجب أن يكون على مذهب الآخرين ، سقيماً غير صحيح .

وذلك أنه خبر لا يعرف له مخرج عن علي عن النبي ﷺ ، إلّا من هذا الوجه . والخبر إذا انفرد به منفرد وجب التثبّت فيه . وقد حدّث هذا الحديث عن حبيب بن ابي ثابت ، عن ثعلبة ، غير سفيان ، غير ان في أسانيد بعضها بعض منْ في نقله نظر .

وكان ابا جعفر الطبري اراد أن يقوي الأخذ بهذا الخبر فقـال : وافق علياً - رحمة الله عليه - في رواية هذا الخبر عن رسول الله ﷺ جماعةٌ من اصحابه ، نذكر ما صح عندنا سنده ، ثم نتبع جميعه البيان ، إن شاء الله .

ذكـــر ذلـك :

حدّثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي قال : اخبرنا ابن وهب قال ، اخبرني يونس قال ، قال ابن شهـاب ، حدّثني ابـو سلمة عن ابي هريرة قـال ، قال رسـول الله ﷺ : لا عدوى ، ولا صَفَـر ، ولا طيرة ، ولا هامة . فقال الاعرابي :

يا رسول الله ، فما بال الإبل تكون في الرمل كانها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها ، فتجرب كلهـا ؟ قال : فمن اعـدى الأول ؟ [11]

ومن منهج الطبري أن يعرض لما في « الخبر » من فوائد فقهية فهو يشير إلى هذا مما يستفاد مما كان للعرب في الجاهلية من التطير ، واتقاء مخالطة ذي الداء . .

وفي « مسند علي » هذا جملة من الأثر صح فيها السند ووقف فيه القول عند علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، ولم يرفع إلى النبي ﷺ .

كلمـــــة أخـــــيرة . . .

وفي حديث رسول الله ﷺ فوائد جمة . وقد أدرك علماء الحديث هذا فكان في مسانيده اسفار وكتب ، نحو : كتاب الطب ، وكتاب الفضائل ، وما ورد في الأخلاق والسلوك .

وعلى هذا كان الحديث مظنة فوائد ، فأنت تستطيع أن تفهم الكثير مما يتصل بالسلوك الاجتماعي من الحديث .

غير اننا لم نحسن الإفادة من الحديث ، وحسبك أن تعرف أن مناهج الدرس في كليات الآداب قد خلت من مادة الحديث ، فقد يخرج الطالب وليس له من أدب الحديث شيء يدخل في المنهاج اللغوي ومكان الحديث في تاريخ العربية وتطورها .

وأخلص بعد هذا الموجز فأشير مرة ثانية إلى حسن صنعة الأستاذ المحقق البارع في إخراج هذا السفر النفيس ، وإلى جهده الكبير في نظم فهارس رواة الحديث وقد سلكهم في طبقات خمس من شيوخ الطبري ومن رووا عنه .

هــوامش ومـــــراجع :

(١) اشتهر محمد بن إسحق بكنية هي « ابن النديم » . ثم ظهر باخرة تعديل لهذا فقيل « النديم » وقد كتب العلماء الفرس في هذا ، وذهبوا إلى ان الصحيح هو « النديم » . وعلى هذا كان محقق « الفهرست » في طبعته الإيرانية الأخيرة : وكان شيخنا الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر ممن يذهب إلى هذا . ومن اجل ذلك ما اثبته في « مقدمته » مما اشرنا إليه في هذه الصفحة .
اقـــول : وقد شاع من هذا الغلط في إثبات « الشهرة » شيء كثير . ومنه قولهم : كتاب « الأنساب » للسمعاني . فالسمعاني جدّ المؤلف صاحب « الأنساب » . انظر « التحبير في المعجم الكبير » للمؤلف طبعة الأوقاف بغداد . ومثل هذا يقال في الإنصاف في مسائل الخلاف ، لابن الأنباري . والصواب « الأنبـاري » . وهذا عكس الأول .

(٢) ابو بكر احمد بن كامل بن خلف القاضي البغدادي الحافظ . احد اصحاب محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣٥٠هـ . احد المشهورين في علوم القرآن وغيرها من العلوم .

(٣) « البسيط » في احكام شرائع الإسلام . من كتب المؤلف في الفقه . ولم يتمه ايضاً .

(٤) لعل « كتاب الرسالة » هذا مما وضعه ابو جعفر على غرار « كتاب الرسالة » للإمام الشافعي رضي الله عنه .

(٥) تهذيب الآثار (مسند علي بن ابي طالب) . مقدمة العلامة محمود محمد شاكر ص ١٠ .

(٦) يعني الخبرين : ٣٩٣ ، ٣٩٦ من « مسند علي بن ابي طالب » موضوع بحثنا .

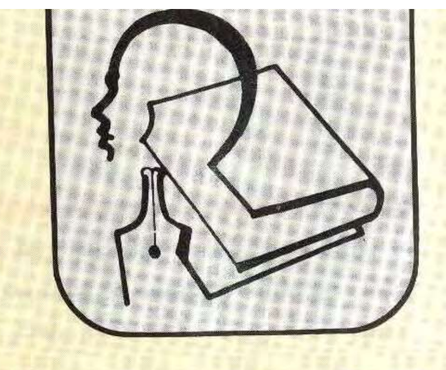
(٧) المصـــدر نفســـه ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٨) تهذيب الآثار (مسند علي) مقدمة المحقق ص ١٢ .

(٩) المصـــــدر نفســـه ص ١٣ .

(١٠) في هذا الخبر انتهت الرواية إلى ثعلبة بن يزيد الحماني . كما انتهت إليه من طرق اخرى . وكان من منهج ابي جعفر وغيره من رجال الحديث الثقات ان الخبر إن عرض له شيء من هذا كان مظنة الضعف وإن كان الخبر صحيحاً . ولو تهيا للخبر نفسه رواية تنتهي إلى غير « ثعلبة » هذا لكان له قوة وصار من الأسانيد التي لا يُتَثبّت فيها .
وثعلبة بن يزيد الحِمّاني و « السعدي » ممن قيل فيه . قال البخاري : « في حديثه نظر ، لا يتابع في حديثه » .
وقال النسائي : « ثقة » . وقال ابن عدي : « لم ار له حديثاً منكراً » .
وقال ابن حبان : « كان على شرطة علي . وكان غالياً في التشيع . لا يحتج باخباره إذا انفرد بها عن علي » ترجمه ابن حجر في « تهذيب التهذيب » والبخاري في « الكبير » ١/ ١/ ١٧٤ .
قلـــت : والقول هذا في « ثعلبة » وتجريحه ربما لا يرضي الشيعة . ومن اجل ذلك ياخذون على هؤلاء الثقات انهم منحرفون عن علي وآل بيته . وعلى هذا كان كثير من الحديث في كتب الشيعة وغيرهم من الفرق مما لا يتوفر له طرق كثيرة . فقد ينتهّي الخبر إلى واحد مهما اختلفت الطرق . وهذا مما لا يقول به الثقات من علماء الحديث : وليس في هذا تعصب على هذه الفرق . وليس اصحابها محل طعن . وآية ذلك ان ائمة الحديث يوثقون جمهرة من الأثر الشريف روي عن علي عن النبي ﷺ وذلك إن صح السند ووصل إليها من عدة طرق .

(١١) تهذيب الآثار (مسند علي ص ٣ ، ٤ ، ٥)
وحديث ابي هريرة هذا روي من ثمان طرق بالفاظ مختلفة مختصراً ومطولاً .
ورواه البخاري في كتاب الطب .
قلـــت : ولا ادري ماذا كان يقول عبد الحسين شرف الدين من ائمة الشيعة لو قرا هذا الحديث في الطرق الثماني مرفوعاً إلى ابي هريرة رضي الله عنه في « مسند علي بن ابي طالب » . وكان قد تكلم في ابي هريرة وهجّنه وسفّهه ، وابطل الأخذ بحديثه ؟!



الزَّجاج وكتابه:

عالم وكتاب

□□ لا يزال التفسير اللغوي فصلاً غير مستوفى في مكتبتنا العربية، ولا يزال في تراثنا التفسيري عديد من كتب التفسير اللغوي في حاجة إلى من يحققها ويشرحها، أو على الأصح نحن في حاجة إليها محققة مشروحة، لأنها تمدنا بالتفسير واللغة في وقت واحد، إننا منذ أواخر القرن الماضي، ومنذ ظهرت بيننا المطابع واتجهنا إلى بعث تراثنا العلمي أحيينا كثيراً من كتب التفسير القرآني وكثيراً من كتب النحو، ولم نتجه إلى كتب التفسير اللغوي، وكنا نقرأ في كتب التفسير آراء كبار النحويين واختلافاتهم في توجيه الآيات القرآنية لغة وإعراباً ومعاني فنكتفي بهذا النقل .. □□

ولا ندري إن كانت هذه الآراء عرضت في كتب التفسير أو كتب النحو، أو ربما لم يخطر ببالنا أن لهؤلاء كتب تفسير، وكان من عجيب الأقدار أن معظم كتب التفسير اللغوي كانت مفقودة أو ناقصة، وكان الحصول على نسخة كاملة من كتبها يستدعي مجهوداً كبيراً ومشقة، ونحن لا ننسى أنه فضلاً عما أصاب تراث المسلمين العلمي من الإغراق والإحراق في الشرق والغرب، من التتار في بغداد والفرنجة في إسبانيا، نقل السلطان سليم العثماني مكتبات مصر إلى الآستانة، فكنا في عصر الطباعة نتصيد نسخ الكتاب وأجزاءه من هنا وهناك فلا يتيسر كماله إلا بمشقة، واتجهت العناية إلى التفسير الخالص ولم تتجه إلى تفسير اللغويين.

وقد كان **المستشرقون أبرَّ منا بهذه المكتبة التفسيرية فبذلوا جهداً في استنساخ أو نقل ما علموا من كتبها، ولكن لم يكن من الميسور لهم شرحها وتحقيقها لعجزهم عن شرح الآراء النحوية أو قواعد اللغة والبلاغة، وهذا أمر طبيعي لهم إذ هم غرباء عن العربية، وأذكر أني ذكرت مرة أمام المستشرق الانجليزي الكبير** « **آربري** » أن زميله « **جولد زيهر** » **- المستشرق الهولندي المجري -** فاته حين عرض طرق التفسير الإسلامي أن يتحدث عن كتب التفسير اللغوي: فقال: إنه لم يتركها عن غفلة ولكنه يدرك أنه لا يستطيع فهم هذه الكتب ثم الحكم عليها وعرضها، ومع ذلك جمعوا منها ما لم نجمع.

وخطا الأستاذ **فؤاد سزكين** الخطوة الجادة الأولى حين أخرج كتاب « **مجاز القرآن** » **لأبي عبيدة - معمر بن المثنى - محققاً مشروحاً، وساعده على عمله ما في مكتبات الآستانة من مخطوطات**[1]، **وبعد ذلك بمدة طويلة عهدت دار الكتب المصرية إلى ثلاثة من علماء اللغة والنحو بمصر بتحقيق كتاب** « **معاني القرآن** » للفراء، فأخرج في ثلاثة أجزاء، ثم هيأت لي المقادير والعناية الإلهية أن أعثر على نسخة كاملة، أو مجموعة من المتفرقات التي تكون نسخة كاملة من كتاب « **معاني القرآن وإعرابه** » الذي نحن بصدده.

وقد كان للأخ الوفي المخلص لدينه **الدكتور** (**لنجس Lengs**)[2]، فضل لا أنساه له في مساعدتي للحصول على هذه النسخة، فجزاه الله عن الإسلام والعربية كل خير، وقد كان (حين كنت أنا بانجلترا) مديراً للقسم الشرقي من المتحف البريطاني، واستطاع بحكم منصبه أن يتصل بعدة جهات حتى اكتمل الكتاب كله، وصور لي ما في المتحف منه بأجر زهيد، ومن تقدير هذا المجهود أن **الدكتور نكسون** مدير الدراسات الشرقية في جامعة لندن إذ ذاك، ذهب إليه بنفسه ليشكره، واحتفظ للمدرسة الشرقية الأفريقية بصورة منه، وقال: إننا ننتظر تحقيقك، وكان معه زميل له (**هو الذي شارك في مناقشتي يوم امتحاني**) أبدى رغبة قوية أن أشاركه في إعادة تحقيق كتاب

بقلم : الدكتور عبد الجليل شلبي

معاني القرآن وإعرابه

الفراء ، وكان قد صدر منه جزءان ، لا أدري لماذا لم يسترح لهما ، وكان قد ألقى بنفسه في مغامرة لعلها الأولى من مستشـرق ، وهـي : تحقيق وشـرح « **إعراب القرآن** » **لأبي جعفر النحاس** ، ولست أدري ما فعل بعد ، ولكن هذا يعكس صورة مصغرة من عنـاية المستشرقين بكتبنا اللغوية ؛ وقد كان لعدد من اللغويين والنحويين كتب تفسيرية كلها تحمل اسم « **معاني القرآن** » ولم يحقق منها فيما أعلم غير هذه الكتب الثلاثة .

وقد نال كتب التفسير اللغوي حظ الأديب كما يقولون ، هذا مـع أن أصحابها أخرجوها وهم في ثراء وبحبوحة من العيش ، **فالدكتور سزكين** بعد أن أخرج كتاب « **مجاز القرآن** » ونال به درجة الماجستير ، ولّى وجهه شطر حقل آخر غير هذا الحقل ، أما عن كتاب الفراء ومحققيه ، فقد أخـرج ثلاثتهم أول أجزائه ، ومـات واحـد منهم عقب إخـراجه ، وأخـرج الآخـران الجـزء الثـاني ، ومات واحد منهم أيضاً ، وأخرج العضو الثالث آخر الأجزاء ، وأدركه الموت بعد إخراجه .

وأما كتاب الزَّجّاج الذي أنفقت في سبيله ما أنفقت من الجهد والمال فقد قَيَّضَ القدرُ لنَصَبي وَوَصَبي ـ كما يقول **الحـريـري** ـ أن طلبـه **الشيـخ عبد الحليم محمود رحمه الله** شيخ الأزهر الأسبق لينشره ضمن سلسلة من التراث كان يقوم بنشرها على نفقة أحد المحسنين ، فقد ظهر جزءان من الكتاب في طبعة مشحونة بالأخطاء ، إذ لم أكن في هذا الوقت بالقاهرة ، ولم أشرف على تصحيحه ، ثم نفد المبلغ المرصود ووقف الكتاب عند هذا الحد ، وما زالت الأجزاء الباقية تنتظر من ينفق عليها لإخراجها ..

المؤلـف

وأود قبل الحديث عن الكتاب أن أذكر لمحة من حياة مؤلفه ، فهو **أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل** ، غلب عليه لقب **الزَّجَّـاج** ، لأنه كان يحترف خراطة الزجاج ، وقد وصفه مترجموه بالتقوى والورع وحسن الخلق ، وكان حنبلي المذهب ، وحين حضرته الوفاة سئل عن عمره فعقد أصابعه يشير أن عمره سبعون عاماً ، وهو توفي سنـة ٣١١هـ ، وكان آخر ما نطق به « **اللهم احشـرني عـلى مـذهب أحمـد بن حنبـل** » ، وهو عصـامي في نشأتـه وتعليمه ، كان كسبه من خراطة الزجاج درهمـاً ودانقين ، أو درهمـاً ونصف الدرهم ، وهو كسب ضيق جداً ، ولكن نفسه تاقت إلى درس النحو فانضم إلى حلقة ثعلب ـ **أبي العباس أحمد بن يحيىٰ** ـ وهو كوفي كان قد نزح إلى بغداد ، ولما قدم **المبرد** ، وهو بصري ، استولى على لب **الزَّجَّاج** وشاقه أن يدرس عليه ، ولكن **المبرد** لم يكن يـدرس إلا بأجر ، ولا أجرة إلا على قـدرها ، وكان دخل **الزَّجَّاج** كله لا يكفي لشيء ، فطلب من **المبرد** أن يعلمه أحسن تعليم على أن يدفع له درهماً واحداً كل يوم ما امتدت حياتهما ، سواء احتاج لتعلم أو استغنى ، وقبل الأستاذ الطلب وبر التلميذ بالعهد .

وأعجب **المبرد** ذكاؤه وعلمه وجده فكان يخصه بنصائح علميـة ، وربما رفض إلقاء الدرس إذا غاب ، ثم زكاه لدى ذوي الثراء والجاه ليكون معلماً لأولادهم ، فكان ذلك فاتحة رزقه ، ثم اختير معلماً **للقاسم بن عبيد بن وهب** ، وزير المعتضد ، وكان القاسم وزيراً أيضاً بعد أبيه ، وكان يحابي أستاذه **الزَّجَّاج** ولا يقبل أوراقاً إلا بخطه .

وعُرِفَ **الزَّجَّاج** بذكائه وعلمه ، وكان له من ذلك دخل واسع وثراء ، وحين أراد المعتضد شرحاً وتبسيطاً لكتاب « **جامع النطق** » الذي عمله لـه محبره **ابن النديم** عرضه على إمامي النحو **ثعلب والمبرد** ، فأبدى كل منهما اعتذاراً ، وقام **الزَّجَّاج** بهذا العمـل ، فأعجب الخليفة ، ونال **الزَّجَّاج** من ورائه رزقاً وشهرة .

الكـتـاب

أما كتابه « **معاني القرآن وإعرابه** » فقد أخرجه وهو في قمة نضجه ، وبعد أن اكتمل علمه وأصبح ذا مذهب نحوي وآراء خاصة به في الإعراب واللغة ، شرع في كتابته سنة ٢٨٥هـ ، وأتمه سنة ٣٠١هـ ، فاستغرق تأليفه ستة عشر عاماً .. وهي زمن طويل ، ويبدو أنه كان يمليه ويُدَرِّسُه ، كما يبدو أنه درَّسه غير مرة ، وهو أهم كتاب قامت عليه شهرته .

امتاز هذا الكتاب عن أخويه ـ **مجاز**

عالم الكتاب

□ خطا فؤاد سزكين الخطوة الجادة الأولى حين أخرج كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى محققاً مشروحاً ..

□ استغرق تأليف كتاب معاني القرآن ستة عشر عاماً ..

أبي عبيدة ، ومعاني الفراء - ببسط تفسيراته اللغوية وإفاضته في بيان أوجه الإعراب ، وبتعرضه لمسائل أخرى غير لغوية ، فقد تحدث بإفاضة عن الميراث وعن الطلاق والوصية ، ودفع آراء الرافضة والمشبهة ، ووضح مذهب أهل السنة .

وكان له رأي في الاشتقاق طبقه في هذا التفسير ، فهو يرى أن الكلمات التي تشترك في كل الحروف أو معظمها لابد أن تكون لها جميعاً معنى أساسي أصيل تدور كل معانيها عليه ، وقد طبق هذا المبدأ في تفسيره ، فلدى كل كلمة لغوية في القرآن يبدأ بشرحها ، ثم يبين المعاني المتفرعة من المادة الأصلية ، والصلة التي تربط الفروع بالأصل ، فيقول مثلاً : **الصلاة من الصلوة : وهي مؤخر البعير أو الفرس ، وهي ضد الجلوة ، وهي مقدم الشيء ، ومن هنا سمي السابق مجلياً ، وسمي الذي يليه مصلياً ،** أي : **تابعاً للمجلي ولاحقاً له ، ويقولون : صلاه ، أي : تبعه ولحقه ، وصلى النار : دنا منها ، وصلوه الجحيم : ألحقوه بها .. وهكذا ، والحق أنه بارع جداً في هذا التحليل ، كما هو موفق في اختيار الشواهد الشعرية التي يؤيد بها شرحه ، وبهذا كان كتابه قاموساً لغوياً واسع الجوانب شرحاً وشواهد .**

أما في **الإعراب** فهو حريص على إعراب الكلمات التي بها غموض ، وحين يعرب الجملة يبين الأوجه العديدة المحتملة التي يمكن أن تكون عليها ، ويبين وجهة كل إعراب ، والمعنى الذي تنتهي إليه : فإذا كان ثم قراءة ذكرها ، وإذا لم تكن قراءة قال : **هذا وجه إعرابي ، ولكن لا تقرأنّ به إلا إذا ثبتت به قراءة صحيحة .**

وفي بحثي عن أصول شواهده الشعرية ومراجعها والمناسبة التي قيلت فيها لاقيت متاعب ومشقة ، **ولكنها كانت ذات فائدة كبيرة .**

وللزَّجَّاج بجانب منهجه اللغوي وقفات في معارضة الملحدين وذوي المذاهب الشاذة ، كما أن له وقفات فقهية لا يشرح فيها مذهباً ، ولكن يشرح وجهة الفقه الإسلامي ، وهي ليست مستفيضة ، ولكنها تنم عن مذهبه وعقيدته .

وفي حديثه عن **الإعجاز القرآني** لم يعن بالجانب البلاغي ، ولم يلتفت إلى ما في الآية القرآنية من حسن التعبير أو جمال التركيب أو اختيار اللفظ ، **وهذا ما لا ينتظر من رجل اللغة والنحو ، ولكنه - على نحو ما يفعل المبرد في كامله - يوضح المعنى المستفاد من التركيب ، ويوضح الفرق بين التعبير القرآني ، والتعبير الذي كان يمكن أن تكون عليه الجملة لو قدم فيها اللفظ أو أخر ، أو جيء بكلمة غير التي جاءت .**

وجانب آخر عني به وهو إخبار القرآن عن القرون الخالية والأمم الماضية ، وحديثه عن الكتابيين ، ذلك أن **رسول الله** ﷺ أمي ، لم يقرأ كتاباً ولم يجلس إلى معلم ، فإخباره بهذه الأحداث لا يكون إلا من قبل الوحي ، وهو من أدلة رسالته وصدق دعواه النبوة ، وقيمة الكتاب الكبرى ومنهجه الأساسي هو المنهج اللغوي الذي نال به مكانته بين المفسرين واللغويين ، حتى إننا نجد بعض كتب التراجم تعرف **الزَّجَّاج** بأنه صاحب كتاب : « **معاني القرآن وإعرابه** » ومعظمها حين تذكر كتبه يضع هذا الكتاب في رأس القائمة التي تسردها ، والمعروف من كتبه لا يتجاوز أربعة عشر كتاباً .

والمفسرون الذين جاؤوا بعد الزَّجَّاج اتخذوا شروحه اللغوية قواعد ثابتة ، فاكتفوا بالرجوع إليها أو نقلها ، ويكفي أن يرجع إليه أمثال : **القرطبي ، والبغوي ، والرازي ، وابن الخازن** : والأمر كذلك عند الأدباء واللغويين ، وقد

□ المفسرون الذين جاؤوا بعد الزجاج اتخذوا شروحه اللغوية قواعد ثابتة ..

□ لايزال التفسير اللغوي فصلاً غير مستوفى في مكتبتنا العربية ..

ذكر البغدادي في مقدمة موسوعته « **خزانة الأدب** » أنه اعتمد على تفسير **الزَّجَّاج** واكتفى به ، ونجد أن **ابن منظور** في لسان العرب ينقل آراءه وشواهده في هذا الكتاب نقلاً وينسبها إليه : ولمن شاء أن يرجع إلى ما كتبه في مادة « **سفه** » فهو نقل من هذا الكتاب ، والمشكلة في الآية هي أن الفعل « **سفه** » فعل لازم كفرح وخَجِلَ ، وبهذا يكون نصب « **نفسه** » بحاجة إلى توجيه ، فإما أن يكون الفعل متعدياً ، ونفسه مفعولاً له ، أو يكون لازماً فتكون نفسه .. تمييزاً ، والتمييز لا يكون مُعرَّفاً .

وهناك أيضاً توجيهات إعرابية في بعض المسائل التي تفرقت فيها آراء النحويين ، فنجد الكثيرين يؤثرون رأي **الزَّجَّاج** ، ومع أن هذه المسائل أصبحت غريبة على أبناء هذا الجيل إلا من يعنيهم هذا الدرس النحوي اللغوي ، أوثر أن أشير فقط إلى بعض منها :

ففي الآية الكريمة :

﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً** ﴾ ، نجد المبتدأ اسماً موصولاً لجماعة الذكور ، وهو « **الذين** » ولكننا نجد الخبر جملة فعلية يربطها بالمبتدأ ضمير النسوة « **يتربصن** » .. ـ وكان القياس أن يكون « **يتربصون** » ـ وفي توجيه هذا الإعراب يؤثر الكثيرون رأي **الزَّجَّاج** .

ومثل هذا ما جاء في الآية الأخرى :

﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ** ... ﴾ ، وهي مجرد أمثلة أضعها أمام القارىء المتخصص ولا داعي لشرحها ؛ وكل ما أريد هو الإشارة إلى قيمة الكتاب وسر ولع العلماء به وتقديره .

فإذا كان هناك بعد هذا من يتقرب إلى الله بحبس هذا الكتاب فالله وحده حسيبه ، ولست أكافىء أحداً ولا أملك عقاباً .

وأثار هذا الكتاب جدلاً من ناحية أخرى ، فإن « **أبا علي الفارسي** » العالم النحوي اللغوي المشهور ألَّف في نقده كتاباً كبيراً هو كتاب « **الإغفال** » يريد به ما أغفله **الزَّجَّاج** من الشواهد أو الأعاريب : والفارسي تلميذ **الزَّجَّاج** ، تلقى عليه هذا الكتاب وهو في سن مبكرة جداً ، ولم يكتب نقده إلا بعد موت **الزَّجَّاج** بزمن ، وكتابه كبير قيم حقاً ، ولكنه لا يغض من قيمة كتاب **الزَّجَّاج** ، وبعض نقوده لا تتعلق باللغة ولا بالنحو بل هي أدنى إلى أن تكون مصادمات من شاب يريد إظهار شخصيته .

من ذلك أن **الزَّجَّاج** في بداية كتابه شرح البسملة ، ولكنه قال : **إنه تأدباً مع الله تعالى لا يشرح اسم الجلالة ولا يبين اشتقاقه** » فتركه ، فقال **أبو علي الفارسي** :

إنه عندما وصل إلى سورة الحشر وفيها :

﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ... ﴾ شرح أسماء الله تعالى ، وأنه لا فرق بين الله والرحمن .. وهذا نقد يتجه إلى شخص المؤلف لا إلى كتابه ، ولكنه ناقشه أيضاً في بعض نقوله عن سيبويه وتوجيهه رأيه ، وفي بعض هذه المناقشات يبدو فعلاً أن **الفارسي** درس كتاب **سيبويه** دراسة أعمق من صاحبه ...

وبوجه عام لا أريد الإفاضة في شرح محتويات الكتاب ، وإنما أردت تعريفاً بكتاب قيم في مكتبتنا العربية ، قدره بعض المستشرقين وبذلوا جهداً مشكوراً لإحيائه وإبرازه للقراء ، وحاربه بعض الشرقيين المسلمين ، وبذلوا جهداً غير مشكور في سبيل إخفائه وحجبه .

هوامش :

(١) الدكتور سزكين تركي يعيش الآن في ألمانيا الغربية ، وهو مشغول بإخراج موسوعة عن الفكر الإسلامي قد تزيد على عشرين جزءاً ، يتابع عمل بروكلمان ومنهجه في معجمه الكبير .

(٢) الدكتور « لنجس » تسمى بعد إسلامه باسم « أبو بكر سراج الدين » ـ وقد لاقى في سبيل إسلامه عنتاً كثيراً .



ابن مجاهد وكتابه : "السبعة في القراءات"

عالم وكتاب

■■ عرفت الأمة الإسلامية في عهود تألقها الحضاري رجالاً جمعوا إلى التزامهم العقيدي تبحرًا في مجالات العلوم الدقيقة والمختلفة : والتي - بدورها - خلدت هؤلاء الرجال العلماء في ضمير أجيال الأمة المتعاقبة ؛ شاهدة على دور (المسجد) في تخريج عباقرة الفكر البشري ، انطلاقًا من الفهم الواعي للآية الكريمة : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ (ابن مجاهد) إمام أهل عصره في (اتساع علمه وبراعة فهمه وصدق لهجته ونسكه) كما شهد بذلك العلامة الأندلسي (أبو عمرو الداني) .. ■■

ابن مجاهد :

عندما نستصحب روح الشيخ العالم ابن مجاهد ونحن نقف على أحد آثاره الجليلة بعد مرور أكثر من عشرة قرون على تأليفه ؛ يجب ألَّا ننسىٰ أنه في سنة (٢٤٥) للهجرة بزغ في عاصمة الخلافة الإسلامية (بغداد) نجم أحد الذين دخلوا تاريخ الفكر الإنساني من أرحب أبوابه ، ومعه ما يثبت أنه الشيخ الجليل أبو بكر أحمد بن موسى بن العبَّاس التميمي البغدادي ، الذي أنعم الله عليه بحفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره ، إلى جانب تحصيله العلوم اللغوية والنحوية والشرعية ، ودراسة الحديث النبوي ومعرفة الآثار ؛ وعُرف عنه ذكاء نافذ وحافظة واعية ساعدته على التفرغ لأحد علوم القرآن ذي التخصص الدقيق ، وأعني به (علم القراءات) ؛ فقد أحاط ابن مجاهد بقراءات القرآن وتفسيره ومعانيه وإعرابه وروايات حروفه وطرقها .. وكانت لديه معرفة دقيقة بالرواة والقرّاء على مرّ الأزمنة من زمن الرسول ﷺ إلى زمنه .

ومن الطبيعي أن يعرف شيخنا طريقه إلى حلقات المساجد حيث مجالس العلماء العامرة بالطلبة في كل علم وفن .. وعن علماء ومشايخ القراءات أخذها ابن مجاهد بجميع هيئاتها وطرقها ورواياتها الكثيرة .. ولا ينسىٰ التلميذ أساتذته وشيوخه ، وبكل فخر وتواضع يعرّفنا على أشهر من أخذ عنهم ، وهو العلامة الثقة الضابط : عبد الرحمن بن عَبْدوس ، وشيخ القراء بمكة سنة (٢٧٨هـ) العلامة : قُنْبل وهذا يعني أن ابن مجاهد في سبيل هذا التخصص العلمي قد رحل لسماع القراءات إلى أمصارها في مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق .

ابن مجاهد .. وكتاب السبعة

وقد شهد لابن مجاهد بعض كبار العلماء فضلاً عن تلامذته الكثيرين .. وفيه يقول أبو عمرو الداني إمام القراء في الأندلس بعد زمنه : « فاق ابن مجاهد في عصره سائر نظَّاره من أهل صناعته ؛ مع اتساع علمه وبراعة فهمه وصدق لهجته ونسكه » . أما عن حلقات العلم التي تصدرها ابن مجاهد لأربعة عقود قبل وفاته سنة (٣٢٤هـ) فقد كانت تضم - في بعض الأقوال - أربعة وثمانين خليفة يأخذون على النَّاس في علم القراءات .. أي : نستطيع القول : إن الرجل كان مدرسة وحده يتخرج منها العلماء والمشايخ ليعلموا الناس ما فتح الله تعالىٰ عليهم في هذا الجانب من العلم .

وعلى الطرف الآخر ، كان أولو الأمر - آنذاك - يعرفون قدر العلماء ويبسطون لهم ما يريدون ؛ خدمة للعلم وتجلّة لأهله .. ولكن ابن مجاهد لم يستغل هذا الجاه لنفسه ، بل كان متقشفًا زاهدًا لا يستخدم نفوذه إلَّا في الحق ، من ذلك : موقفه من مدّعي التصوف والإصلاح [الحلاّج] وخرافاته عن نظرية الحلول

● العلماء من بعد ابن مجاهد حملوا عنه قراءات السبعة وألَّفوا فيها مصنفاتهم ، وألحقوا بها الثلاث المكملة للقراءات العشر ●

وغيرها ، فحمل عليه شيخنا حملات أدَّت إلى حبسه ومحاكمة قضاة المذاهب الأربعة له المحاكمة المعروفة .

أما أشهر ما ترك ابن مجاهد فهو (كتاب السبعة) في القراءات - موضوع حديثنا - وكتاب آخر سماه (كتاب القراءات الكبير) وموضوعه في القراءات الشاذة ، ويضاف إليه أيضًا كتاب عن « قراءة علي بن أبي طالب » وكتاب في « الياءات » وآخر في « الهاءات » .

لماذا ألّف ابن مجاهد كتاب السبعة ؟ :

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل على الرسول ﷺ منجمًا في ثلاث وعشرين سنة ، وكان الرسول ﷺ يتلو الآيات على الصحابة فور نزولها ، فنقلوها عنه حرفًا حرفًا ، وكان منهم من حفظ القرآن كله .. وتجرّدت طائفة منهم لكتابته (كتبة الوحي) وفي مقدمتهم : [عثمان ، وعلي ، وزيد بن ثابت ...] رضي الله عنهم جميعًا ..

وتخفيفًا على القبائل كانﷺ يتلو القرآن بلهجات مختلفة ، وقال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا منه » تيسيرًا وتسهيلاً على غير قريش من العرب .

وقد تلقى القراءات عن الصحابة - كما تلقوها عن الرسول الكريم ﷺ - طائفةٌ من القراء التابعين ومن بعدهم خلفاؤهم ، واشتهر في كل بلد جماعة كانوا يقرِئون الناسَ كما تواتر عن الرسول ﷺ .

وتكاثرت القراءات حتى بلغت نحو ثلاثين قراءة ، مما حدا ببعض العلماء أن يقوم بإخراج هذا العلم واستصفائه من خلط أو غلط قد يلحق به لسبب أو لآخر .. وبالفعل فقد بُذلت جهود عظيمة - منذ القرن الثاني الهجري - لتأليف مصنفات مختلفة في قراءات الأئمة المشاهير في كل بلد وتميزها عن بعضها بعضًا ..

وعلى سبيل المثال نرى أستاذ ابن مجاهد (القاضي ابن إسحاق البغدادي ت : ٢٨٢هـ) يؤلف كتابًا يجمع فيه قراءات عشرين إمامًا ، ويصنف (ابن جرير الطبري ت : ٣١٠هـ) كتابًا يجمع فيه قراءات نيف وعشرين إمامًا ، وفي القرن الثالث للهجرة كثر التأليف في القراءات على نحو ما نجد عند (الواقدي ت : ٢٠٩هـ) و(السجستاني ت : ٢٥٥هـ) وغيرهم كثيرون .

ولكن تبقى المشكلة قائمة !.. فهل أئمة القراءات على درجة عالية من الإتقان والدراية والرواية ؟!..

لدى حديثه في مقدمة كتابه - كما سيمر بنا بعد قليل - يلاحظ ابن مجاهد أن القرّاء ثلاثة أصناف :

١ - إمام متقن ، وهو حاذق عالم بوجوه الإعراب واللغات وأسانيد الروايات .
٢ - قارىء غير متقن ، يُعرب ولكن لا علم له باختلاف القرّاء [ربما سمع قراءة وظنها خطأ !] .
٣ - قارىء مبتدع ، يُحسن العربية والنحو واللغات ، ولكنه يجهل القراءات [ربما قرأ بحرف لم يقرأ به أحد قبل] .

إذنْ بات من الضروري أن يتجرّد عالم من علماء القراءات ليقابل بين القراءات الكثيرة الشائعة ، ويستخلص للناس قراءات متواترة يحملهم عليها .. وقد كان .

و (كتاب السبعة) هذا حقّق للأمة الإسلامية ما كانت تصبو إليه ، ثم أردفه ابن مجاهد بكتاب آخر في ذكر الشواذ من القراءات ، والذي اعتبره (ابن جني) مرجعه الأساسي في مؤلَّفه (المحْتَسَب) .

موضوعات كتاب السبعة :

لا شك أنه عمل جليل هذا المخطوط النفيس ؛ الذي قدّمه محققًا منقحًا لقراء العربية - كما المطلوب - رجل دؤوب عرف عنه أمانة الباحث وجدّية البحث ، ألا وهو الدكتور شوقي ضيف - مدَّ الله في عمره ونفعنا بعلمه - ، وقد قدم[1] لهذا المخطوط مستعرضًا مفهوم القراءات قبل أن يقدّم لنا نبذة عن حياة المؤلف .. ثم عرج على (كتاب السبعة) موضحًا جهد مؤلفه في إخراجه ، واجتهاده في اختيار وانتقاء هؤلاء السبعة من القراء بعد ذكر أنسابهم وأساتذتهم - حتى جيل الصحابة - إثر مراجعات وتحقيقات ومعارضات علمية خرجت في صورة مناقشاته للقراءات - هذه - عند رواتها ، حتى استطاع أن يقدم لنا هذه الدراسة الفذَّة في علم واقتدار نحتيّه عليها .

ولا ينسىٰ الدكتور شوقي ضيف في نهاية مقدمته[٢] أن يوضح لنا سبل توثيق الكتاب وصحة نسبته لابن مجاهد ؛ واصفًا نسخة الأصل ومنهجه الرصين في التحقيق قبل أن يدعنا في رحلة شائقة مع (كتاب السبعة) .

(حملة القرآن !) .. نعم .. هذا ما يطالعنا في الحديث عنهم شيخنا ابن مجاهد قائلًا : (... اختلف النَّاس في القراءة كما اختلفوا في الأحكام ـ الفقهية ـ.. وحملة القرآن متفاضلون في حمله ـ أي : القرآن وقراءاته ـ ...) .

ثم يذكر درجات حملة القرآن ـ كما أسلفت وذكرتها ـ ؛ مدللًا على كلامه بأحاديث أساتذته وشيوخه وبعض القرَّاء من الصحابة ، كقول ابن مسعود رضي الله عنه : (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم) . وقول الإمام علي رضي الله عنه : (إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ يأمركم أن تقرؤوا القرآن كما عُلِّمتم) .

ويوضح لنا المؤلف ـ بعدئذٍ ـ أن (الآثار التي رُويت في الحروف ـ أي : أوجه القراءات ـ كالآثار التي رُويت في الأحكام ـ أي : الفقهية التشريعية ـ .. فمنها : المجتَمَع عليه السائر المعروف . ومنها : المتروك المكروه عند النَّاس ، المعيبُ من أخذ به ، ومنها : ما توهِّم فيه من رواه ، فضيِّع روايته ونسي سماعه لطول عهده ... أو سقطت روايته عمدًا !...) .

ويحصر المؤلف خيرة القراءات في السبع التي أشار إليها : وقد أجمع النَّاس على التمسك بها ـ على اختلاف البلدان ـ لأنها أُخذت عن التابعين من جهة ، ومن جهة أخرى لأنَّ (القراءة سُنَّة) كما تواضع عليه الأئمة من الخلفاء الراشدين ومرورًا بكبار التابعين ، وانتهاءً إلى خلفاء التابعين ، حسبما ذكر ابن مجاهد مُوردًا أسماءهم وأقوالهم .

وينتقل بنا الرجل إلى مرحلة التعارف ، حيث يقدم قرّاءه السبعة بحسبهم ونسبهم ـ كما شهد بذلك الثقات ـ [مع العلم أنَّ القرَّاء السبعة كلهم من الموالي عدا ابن العلاء وابن عامر] ، وهم :

١ ـ نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (المدينة) ت : ١٦٩هـ .
٢ ـ عبد الله بن كثير الدَّاري (مكة) ت : ١٢٠هـ .
٣ ـ عاصم بن أبي النجود (الكوفة) ت : ١٢٧هـ .
٤ ـ حمزة بن حبيب الزيّات (الكوفة) ت : ١٥٦هـ .
٥ ـ علي بن حمزة الكسائي (الكوفة) ت : ١٨٩هـ .
٦ ـ أبو عمرو بن العلاء (البصرة) ت : ١٥٤هـ .
٧ ـ عبد الله بن عامر اليحصبي (الشام) ت : ١١٨هـ .

كما يعرفنا ابن مجاهد بأساتذة هؤلاء القراء وتلاميذهم ، ويُنهي حديثه عنهم قائلًا : (... فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام ، خلفوا في القراءة التابعين ، وأجمعت على قراءاتهم العوام ـ أي : عامة القراء ـ من أهل كل مصر من هذه الأمصار) .

وفي نقلة أخرىٰ يحدثنا المؤلف ـ بإسهاب ـ عن أسانيد هذه القراءات ، واحدة واحدة .. وبعد أن اطمأن إلى صحتها شمّر عن ساعد الجد ليبسط أمامنا دقائق اختلاف القراءات في آيات القرآن الكريم .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : ما الأصول التي وضعها ابن مجاهد في قبول القراءات ؟!..

سبق للمحقق ـ في تقديمه ـ أن أشار إلى أصول ثلاثة التزم بها المؤلف لقبول القراءات :

١ ـ أن تكون مطابقة لخط مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ .
٢ ـ أن تكون صحيحة السند ، حملها رواة موثقون حتى زمن القارىء .
٣ ـ أن توافق اللغة العربية ولو بوجه ـ أيّ وجه ـ .

ومن ثم عمد المؤلف إلى اختيار طائفة

● أشهر ما ترك ابن مجاهد « كتاب السبعة » في القراءات ، وكتاب « القراءات الكبير » وموضوعه في القراءات الشاذة ، وكتاب عن « قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه » ، وكتاب عن « الياءات » وآخر عن « الهاءات » ●

● « فاق ابن مجاهد في عصره سائر نظّاره من أهـل صناعتـه ، مع اتسـاع علمه ، وبراعة فهمه ، وصدق لهجته ونسكه » ●

نابهة من القراء : مبينًا خلافاتهم - في كتابه هذا - وخلافات من حملوا عنهم قراءاتهم بيانًا دقيقًا أشد ما تكون الدقة ، لكن هذا لا يعني أن ابن مجاهد قد أسقط القراءات الأخرى : وإنما اعتبرها (شاذة) ، وجعلها وراء القراءات السبع في علم السند والرواية ؛ وذلك لقلة القراء بها في الأمصار المختلفة بالقياس إلى القراءات السبع ، على أن هذه القلة لا تعني - أيضًا - عدم التواتر ، فقد تداولها - هي الأخرى - أئمة ثقات وقراء حفظة ، بحيث أصبحت لها صفة التواتر ، واعتمدها العلماء ، وظلت الأجيال تتداولها إلى اليوم - على حدّ تعبير المحقق - .

المهم أن أحدًا لم يستطع مراجعة ابن مجاهد فيمن رأى تقديمه على القراء من هؤلاء السبعة ، فقد ارتضاهم علماء الأمة جميعًا : راضين بذلك اجتهاداته التي منها :

● تقديم (نافع) على أستاذه (يزيد بن القعقاع) لأنَّ قراءته أكثر شيوعًا في بلده (المدينة) .

● لم يأخذ بقراءة (خلف بن هشام - بغداد) لأنها تماثل قراءة الكوفيين - كما علّل ابن الجزري - .

ويذكر الدكتور شوقي أن العلماء من بعد ابن مجاهد حملوا عنه قراءات هؤلاء السبعة وألّفوا فيها مصنفاتهم الكثيرة (الداني - الشاطبي) ، وألحقوا بها الثلاث المكملة للقراءات العشر ، وهي قراءات [يزيد بن القعقاع - يعقوب الحضرمي - خلف بن هشام] ، أما القراءات الأربع الباقية : قراءات [الأعمش - ابن مُحيصن - الحسن البصري - اليزيدي] فعدُّوها شاذَّة .

وعودة مرة أخرى مع رحلة ابن مجاهد في رحاب القرآن ..

(ذكر اختلاف القراء في فاتحة الكتاب) . هذا ما يطالعنا بداءة ؛ حيث يورد المؤلف هذه الاختلافات مع بعض الشروحات[3] والتعليلات التي عنَّت له . ولكنه لا يلبث حتى يتراجع عنها - مع سورة البقرة وباقي آيات السور - لمّا رأى أن مؤلفه سيطول .. ويطول !

وقبل أن يلج بنا إلى سورة البقرة ، رأى المؤلف أن يجلو لنا أصول هذا العلم - ما اتُّفق عليه وما اختلف فيه - ؛ خاصة في بعض أحكام التجويد ومظانّ الترتيل .

ومن بعض اختلافات القراء :

● في سورة يوسف ، قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فقد قرأ ابن العلاء وعاصم وحمزة والكسائي : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ وقرأ نافع ﴿ هِيتَ لَكَ ﴾ وقرأ ابن كثير ﴿ هَيْتُ ﴾ وقرأ ابن عامر ﴿ هِيْتُ ﴾ أو ﴿ هِئْتُ ﴾ .

● في سورة الغاشية ، قوله تعالى : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ فقد قرأها ابن العلاء ﴿ لَا يُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ ﴾ وكذلك ابن كثير .. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر ﴿ لَاتَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أما نافع فقد قرأها ﴿ لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ ﴾ .

كتاب السبعة في الميزان :

لا شك أنَّ كتابًا كهذا ظلّت تتناقله الأجيال حتى عصر ابن الجزري ت : (٨٣٣هـ) ، وظل العلماء يروونه ، ويؤخذ عنهم شفاهًا ، ويجيزون لتلاميذهم روايته ، كما ظلوا يقرئونهم القرآن الكريم بما يحتوي من قراءات الأئمة السبعة باعتباره الأصل الوثيق لهذه القراءات التي تحرَّاها - ابن مجاهد - وحرّرها وبسطها بتصاريفها ومخارجها وأداء حروفها وألفاظها وحركاتها وخواصها ودقائقها مع صحة الشهادة وأمانة الرواية ؛ حتى إن صاحب كتاب (غاية النهاية في طبقات القراء) - ابن الجزري - قد اقتبس منه كثيرًا في التعريف بالأئمة الذين اختارهم في تضاعيف ترجمته لهم في كتابه هذا ، مصرحًا بذلك في غير موضع - كما يبين المحقق - .

لا شك أن كتابًا كهذا يعد كنزًا تراثيًا يشهد لمؤلفه بجودة الطرح ، ودقة التأليف ، وحسن التركيز على هذا الجانب من العلم ، ولكن مما يُؤخذ عليه أن صاحبه دخل إلى الموضوع الأصلي دون تقدمة توصل القارىء إلى ما يريد . و (لعلَّ له عذرًا في ذلك أن كثيرًا من تصانيف العصور الوسطى لتدوين اللغة - وغير اللغة أيضًا - افتقدت هذا المنهج إلَّا قليلًا منها ..)[4] .

أيضًا لم يترجم ابن مجاهد سير رجاله السبعة - كما فعل غيره من بعده - .. ولعله لم يُرد أن يطول بحثه أكثر مما هو عليه .. وربما أراد لتلاميذه أن ينشطوا في استكمال هذه الرسالة .. وهذا السِفْر .. ربما !

---

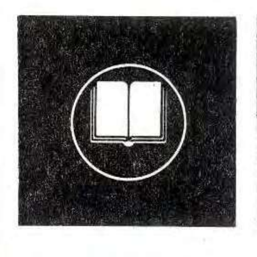
(١) كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد . تحقيق الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف . مصر ط ٢ : ١٩٨٠م - في ٧٨٨ صفحة .

(٢) تقع مقدمة المحقق في ٣٢ صفحة .

(٣) ذكر الدكتور أحمد محمد صبري بعض هذه الاختلافات لأربع من القراءات (انظر مجلة الأمة) عدد [٤٢] ص : ٥١ .

(٤) الدكتور أبو الفتوح شريف . مجلة الفيصل عدد (٦٤) ص : ١٤٢ .





الماوردي وأدب الدنيا والدين

● يعتبر الماوردى معلماً من معالم فكرنا الاسلامي المشرق ، ورائداً من الرواد الذين يجب ان يقتدى بهم جيلنا الصاعد ، ويطلع على آرائهم وافكارهم ، فقد سلط الاضواء على أمور ثلاثة هى غاية الاصلاح والتجديد في المجتمع الاسلامي الذى يعانى من كثير من الأدواء ، وهذه الأشياء هى : السياسة الشرعية والتربية ، والأخلاق . وقد استطاع أن يكشف عن مفهوم الاسلام بوضوح وقوة ، مبيناً للناس ان ما يعيشونه ليس اسلاماً حقيقياً ●



حياته

ولد علي بن محمد بن حبيب المكنى بأبي الحسن ، الملقب بالماوردي عام : (٣٦٤ هـ) في البصرة ، ونشأ بها ، وتلقى تعليمه على جماعة من علماء عصره منهم : محمد بن عدي بن زحر المقرى ، ومحمد بن المعلى الأزدى ، وجعفر بن محمد ابن الفضل البغدادى

ثم انتقل الى بغداد وتولى القضاء ، وبرز فيه حتى اصبح عام (٤٢٩ هـ) قاضياً للقضاة وسبب تبريزه في مجال القضاء انه كان مرناً في تعامله مع النصوص ، يروي ياقوت أنه سلك طريقة في ذوى الأرحام ، يورث القريب والبعيد بالسوية ، وعندما قال له يوماً أحد الفقهاء : « اتبع ولا تبتدع » فرد عليه قائلا : « بل اجتهد ولا اقلد» .

وصفه السبكى في «طبقات الشافعية» بأنه كان اماماً جليلا رفيع الشأن له اليد الباسطة في المذهب ، والتفنن في سائر العلوم .

لم يبق من كتبه الا القليل ، نحو اثنى عشر كتاباً يمكن تصنيفها في ثلاث مجموعات: الكتب الدينية ، والكتب السياسية والاجتماعية ، والكتب اللغوية والادبية .

فأما المجموعة الأولى فمنها :

١ ـ كتاب التفسير ، ويعرف بكتاب «النكت والعيون» ولم يطبع ، وتوجد نسخة منه في مكتبة جامع القرويين بفاس .

٢ ـ «الحاوي الكبير» وهو موسوعة ضخمة في اكثر من عشرين جزءاً في فقه الشافعية ، وأجزاؤه المخطوطة مفرقة في نواح من الشرق والغرب ، وتعمل الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية على جمع ماتشتت منه بتصوير اجزائه من مظانها في افلام .

٣ ـ «الاقناع» وهو مختصر من الحاوي .

٤ ـ «ادب القاضى» توجد منه نسخة في القسطنطينية .

٥ ـ «اعلام النبوة» أى دلائلها توجد منه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية ، برقم ٦ ش علم الكلام .

وأما كتبه السياسية والاجتماعية فمنها :

١ ـ «الاحكام السلطانية» وهو اشهرها ، يبحث في الأسس التى تقوم عليها الدولة من حيث استحقاق الخلافة ، وشروط من يختار لها ..

٢ ـ «نصيحة الملوك» لم يطبع لحد الآن ، ومنه نسخة مخطوطة في باريس .

٣ ـ «تسهيل النظر وتعجيل الظفر» وهو كتاب في السياسة وانواع الحكومات ، مخطوط لم يطبع .

٤ ـ «قوانين الوزارة وسياسة الملوك» وقد طبع في دار العصور بمصر سنة : ١٩٢٠ بعنوان : «أدب الوزير» .

أما تاليفه في الادب فتشمل :

ـ «الأمثال والحكم» .

ـ «البغية العليا في ادب الدين والدنيا» وهو المنتشر ، ولا زال الناس يقبلون عليه ، واسمه الذى يعرف به حالياً هو : «أدب الدين والدنيا» . وموضوعة

بقلم :
لطيف أحمد

● زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير

● إن البناء على غير أس لا يبنى ، والثمر على غير غرس لايجنى

موضوع الكتاب

الأخلاق والفضائل الدينية من الناحية العلمية الخالصة ، وبعضه في الاداب الاجتماعية ، وهى التى سماها المؤلف :

«آداب المواضعة» وهو لا يتعرض للأخلاق من حيث أصولها العلمية ، كالوراثة والبيئة والغرائز والأمزجة والعادة ، وإنما يعول على ما في القرآن والسنة النبوية من آيات واحاديث تحث على الفضائل ، وتنهى عن الرذائل ، ثم يعول بعد ذلك على التراث الأدبى الاسلامي ، والتراث الاجنبى القديم ، الذى امتزج بآداب العرب والاسلام ، فيتخذ من هذا وذاك حكماً وعظات ، وامثالا وأشعاراً وهو يشبه في هذا النهج : ابن حبان البستى صاحب «روضة العقلاء» وكان ابن حبان من أئمة رجال الحديث ، وكان الماوردي من أئمة الفقهاء ، فبينهما قدر مشترك من المعرفة بالقرآن والسنة ، والاطلاع على الآداب العربية وغيرها .

لقد قسم المؤلف كتابه إلى خمسة اقسام هى :
- فضل العقل وذم الهوى .
- ادب العلم .
- ادب الدين .
- ادب الدنيا .
- ادب النفس .

وقد ابتدأ ببيان سبب الانحراف في النفوس ، وهو الهوى ، وأخذ يعالجه وما يترتب عليه ، ويتكلم في الفضائل الاسلامية والرذائل التى ينبو عنهما الخلق الاسلامي ، وهو في كل موضوع من موضوعات الكتاب يستشهد بالكتاب والسنة ، والتحليل النفسي ، والاشعار العربية ، حتى إنه ليجد كل باحث في موضوع من الموضوعات الخلقية ما يستشهد به من مصادر الاسلام والادب العربي ، وإنه ليصل الى القمة احياناً في التحليل الخلقي ، فيذكر مثلا علاج النفس : أيكون بالارهاب والتخويف أم يكون بالتألف والترغيب ، ويذكر أثر كل منهمافي النفس ، ويشرح الاتجاهين ، وينتهي إلى أنه لابد من عنصرى الترغيب في حسن عاقبة الخير ، والترغيب من سوء العاقبة .

● ● ●

يقول في الباب الأول : «اعلم ان لكل فضيلة اساً ، ولكل ادب ينبوعاً ، وأس الفضائل وينبوع الاداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلا ، وللدنيا عماداً ، فاوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة باحكامه» وبعد استعراضه للأدلة التى تبرز قيمة العقل من أحاديث وآيات وأقوال ، ينتقل الى انه بالعقل تعرف حقائق الأمور ، ويفصل بين الحسنات والسيئات ، ثم يقسمه إلى غريزي ومكتسب ، ويناقش جميع الآراء في تعريفه ، ثم ينتقل الى صفات العاقل والأحمق فيقول : «وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضائل ، والأحمق بما فيه من الرذائل فقال : العاقل إذا والى بذل في المودة نصره ، واذا عادى دفع عن الظلم قدره ، فيسعد مواليه بعقله ، ويعتصم معاديه بعدله . إن أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر .. والأحمق ضال مضل ، ان أونس تكبر ، وان أوحش تكدر ، وان استنطق تخلق ، وان ترك تكلف ، وهو يسيء إلى غيره ، ويظن أنه قد أحسن إليه فيطالبه بالشكر ..» .

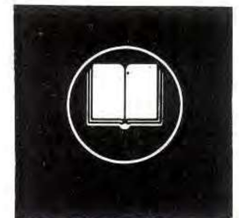
وبعد ان يقارن المؤلف بين الهوى والشهوة على هذا النحو : «الهوى مختص بالآراء والاعتقادات ، والشهوة مختصة بنيل المستلذات ، فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى أخص ، والهوى أصل وهو أعم ..» ينتقل الى الباب الثاني ، فيفصل الحديث فيه كالآتى :

- ابراز قيمة العلم ، وتأييد ذلك بالأحاديث والآيات واقوال الحكماء .

- استحالة الاحاطة بكل العلوم .
- افضلية علوم الدين على ما سواها .
- صيانة نفس العالم من الشهوات حتى يكون قدوة ، فقد قيل في منثور الحكم : زلة العالم كالسفينة تغرق ، ويغرق معها خلق كثير .

- عزوف الجهال عن العلم «ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال كنت أخفى عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب لئلا اكون عندهم مستثقلا ، وإن كان البعد عنهم مؤنساً ومصلحاً ، والقرب منهم موحشاً ومفسداً .
- الحث على طلب العلم ، واظهار الحافز على ذلك ، ثم الحديث عن التدرج في اخذ العلوم : «واعلم أن للعلوم أوائل تؤدى إلى اواخرها ، ومداخل تفضي الى حقائقها ، ولا يطلب الآخر قبل الأول ، ولا الحقيقة قبل المدخل ، فلا يدرك الآخر ، ولا تعرف الحقيقة ، لأن البناء على غير أس لا يبنى ، والثمر على غير غرس لا يجنى» .

وبعد أن يتحدث عن اسباب التقصير في طلب العلم واسباب خفاء الألفاظ وغموض المعانى في استطراد مقبول ، ينتقل إلى بيان ما يجب أن يتحلى به العالم والمتعلم ، ثم يقارن بين




● تصلح الدنيا بدين متبع وسلطان قاهر، وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح

● يصلح حال الانسان بنفس مطيعة إلى رشدها منتهية عن غيها ، وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان إليها ويستقيم أوده بها

الانقطاع إلى العلم أو العمل ، ثم يطيل في ذكر آداب العلماء التى من بينها :

– عدم البخل على من يعلمون : فقد قال صلى الله عليه وسلم : «من كتم علماً يحسنه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار» .

– قصد وجه الله بتعليمهم لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «أجر المعلم كأجر الصائم القائم» وحسب من كان هذا أجره ان يلتمس اجراً .

– نصح العالم للمتعلم «ومن آدابهم نصح من علموه ، والرفق بهم ، وتسهيل السبيل عليهم ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي كرم الله وجهه : «يا على ، لان يهدى الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس» .

– تحبيب المتعلمين في العلم : «ومن آدابهم ألا يمنعوا طالباً ، ولا ينفروا راغباً ، ولا يؤيسوا متعلماً» .

وبعد الانتهاء من هذا الباب الممتع ، يشرع المؤلف في الباب الثالث قائلا : أصل الدين الايمان بالله ، وصحة الاعتقاد ثم القيام بالصلاة باعتبارها عماد الدين ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «من هانت صلاته كان عند الله عز وجل أهون» ثم الصيام الذى كان «في إيجابه حث على رحمة الفقراء وإطعامهم» ، ثم الزكاة والحج ، ولا يكفى المؤمن القيام بالشعائر الدينية ، بل يجب أن يروض النفس باستمرار على المشي في الطريق القويم ، وهذا يتطلب القيام بمسائل ثلاث :

أن تصرف حب الدنيا عن قلبك .
ان تأمن الاغترار بملاهيها .
ان تستريح من طلب السعي لها .

وبعد ان يعرض وجهات النظر المختلفة ، والمؤيدة كلها بشواهد كعادته ، ينتقل الى الباب الرابع وهو : ادب الدنيا .. فيبرز أن الانسان مدنى بطبعه وانه في حاجة إلى أن يعيش مندمجاً في وسط الجماعة ، وهذا يتطلب منه جهداً كبيراً حتى يتلاءم مع غيره فقد اعطاه الله العقل ليدرك به ما أراد وطلب منه ان يعمل لدنياه وآخرته ، ثم يبين أن : «صلاح الدنيا معتبر من وجهين : أولهما ما ينتظم به أمور جملتها ، والثانى ما يصلح به حال كل واحد من أهلها فهما شيئان لا صلاح لاحدهما إلا بصاحبه لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها : لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها» ، واعلم أن مابه تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة ، وأمورها ملتئمة ستة اشياء :

«دين متبع ، وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وخصب دائم ، وأمل فسيح» .

وبعد ان يبسط كل واحدة ، محللا ، ومعززاً رأيه بأقوال مختلفة ، ينتقل إلى ما يصلح به حال الانسان فيجمله في ثلاثة اشياء :

نفس مطيعة إلى رشدها ، منتهية عن غيها ، وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ، ويندفع المكروه بها ، ومادة كافية تسكن نفس الانسان إليها ، ويستقيم أوده بها ..

اما الباب الأخير فهو عن ادب النفس ، وفيه يقول : «وأما الأدب اللازم للانسان عند نشأته وكبره فأدبان : أدب مواضعة واصطلاح ، وأدب رياضة واستصلاح ، فأما أدب المواضعة فيؤخذ تقليداً على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء ، وأما ادب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ، ولا أن يختلف العقلاء في صلاحها وفسادها ..» ثم يطيل المؤلف في اعطاء أمثلة عن ادب الرياضة والاستصلاح ، ويجمله في ستة فصول : مجانبة الكبر والاعجاب – حسن الخلق – الحياء – الحلم – الصدق – ذم الحسد والمنافسة .

● ● ●

وخلاصة القول فان للماوردى نظرة شمولية إلى المواضيع الثقافية التى عالجها ، وسعة علمه ومعارفه جعلته يخوض غمار كثير من العلوم وكأنه متخصص فيها ، فكانت له آراء في السياسة والفقه والأخلاق والتربية التى وضع فيها منهاجاً دقيقاً متكاملا ، فدعا إلى التعليم وقال إنه لا ينبغى أن يمنع كبر السن من التعليم استحياء لأن العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى ، والابتداء بالفضيلة فضيلة ، ولأن يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً جاهلا ، والجهل بالكبير أقبح ، ونقصه أفضح ، وأنه ينبغى على الانسان ان يجعل له حظاً من زمانه فليس كل الزمان اكتساب ،ولابد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ، ومن صرف كل نفسه إلى الكسب حتى لم يترك لها فراغاً ، فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص .

والماوردى يدعو المعلم ان يرفق بالمتعلمين ولا يعنفهم ولا يحقرهم ، ويبذل النصح لهم ، فان ذلك أدعى اليه وأعطف عليه وأحث على الرغبة فيما لديه وفي الآثار : علموا ولا تعنفوا ، فان المعلم خير من المعنف .

وهكذا ترسم كتابات الماوردي منهجاً اجتماعياً كاملا حياً ، يتحدث عن حاجات الانسان ووسائل الكسب ، فيجملها فى الزراعة والرعي والتجارة ، والصناعة ،ولا يغفل عن الروحيات فيحلل أدواء النفوس ، ويقدم الأدوية .. فما أحوجنا إلى قراءة متأنية لآثار هذا العلم من أعلام الاسلام النابغين ، بل ما أحوجنا إلى إحياء تراثنا الأصيل ، واستثمار الجوانب المشرقة فيه اقصد توظيفها في حياتنا العملية العامة ، فنجمع بين فضيلتى : العلم والعمل ، كما جمع بينهما أبو الحسن الماوردى ، فكان جريئاً في رأيه لا تأخذه في الله لومة لائم .

حافظ المغرب
ابن عبد البر الأندلسي
وكتابه
التمهيد لما في المُوَطَّأ من المعاني والأسانيد



عالم وكتاب

■■ هو الإمام حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النَّمري، نسبة إلى النِّمر بن قاسط ذكر تلميذه الحميدي[٢] وتابعه أحمد الضَّبّي[٣] أنه ولد في رجب سنة (٣٦٢هـ) وذكر القاضي عياض من جهته أنه ولد سنة (٣٦٨هـ) في ربيع الآخر، وقد أكّد هذا القول ابن بشكوال - صاحب كتاب الصلة، وتابعه من جاء بعده - بما يشبه وثيقة تاريخية متمثلة في قوله: قال أبو علي: وسمعت طاهر بن مفوز يقول: سمعت أبا عمر يقول: ولدت يوم الجمعة والإمام يخطب لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثمان وستين، (وهو اليوم التاسع والعشرون من نوفمبر [تشرين الثاني]) قال طاهر: أرانيه الشيخ بخط أبيه عبد الله بن محمد رحمه الله[٤]. ■■

بقلم: عبد العزيز فارح

نشأ أبو عمر في أحضان أسرة اهتم أفرادها بالعلم والعبادة، وشُغِفوا بملازمة العلماء وحلقات المعرفة، على عادة طلاب العلم في تلك الأعصر.

كما نشأ في عاصمة العلم بالغرب الإسلامي آنذاك وهي مدينة قرطبة؛ حيث استقر فيها فطاحل العلماء، ورحل إليها طلاب العلم من داخل الأندلس وخارجها.

في هذه الأجواء المناسبة والظروف المواتية ترعرع **ابن عبد البر** وأخذ يتردد على مجالس المعلمين منذ حداثة سنه، ثم ما لبث أن أصبح يلازم مجالس كبار الأساتذة والشيوخ، أمثال **ابن الفرضي، وأبي عمر بن المكوي، وسعيد بن نصر وغيرهم.**

البحث عن العلم والأمن

ولما اشتعلت نار الفتنة البربرية في « **قرطبة** » وناب خطبها وادلهم، وهجر المدينة كثير من سكانها وعلمائها، خرج ابن عبد البر مهاجراً يبحث عن المكان الآمن إذ لم يسلم العلماء من جحيم الفتنة، وتعرضوا للمضايقة والنهب، بل إلى الفتك والقتل كما حدث لأحد أساتذة **ابن عبد البر**، وهو العالم الجليل **ابن الفرضي** صاحب كتاب « **تاريخ علماء الأندلس** ».

اتجه **ابن عبد البر** بعد خروجه من قرطبة نحو غربي الأندلس وهو يأمل الإقامة بمدينة « **اشبيلية** »، وكم كانت خيبة آماله كبيرة بسبب الجفوة التي قوبل بها من طرف أهلها، فارتحل عنها وأخذ يتنقل بين غربي الأندلس وشرقيها إلى أن انتهى به المطاف إلى مدينة « **دانية** » حيث كان يحكمها **مجاهد بن عبد الله العامري** الذي قرّب إليه العلماء، وشجع العلم والمعرفة، واهتم بعلم القراءات خاصة ... وفي هذه الفترة اشتهر **أبو عمر الداني** صاحب « **التيسير** » و « **جامع البيان في القراءات** »، ولما توفي مجاهد رحل ابن عبد البر مرة أخرى إلى غربي الأندلس حيث اتصل بالمظفر بن الأفطس صاحب « بَطَلْيوس » وأحد ملوك الطوائف، وولاه القضاء على « **اشبونة** » و « **شنترين** »[٥] وظل في غربي الأندلس فترة من الزمن معززاً مكرماً إلى أن توفي المظفر سنة (٤٦٠هـ) فقرر الرجوع إلى شرقي الأندلس حيث قضى هناك البقية الباقية من عمره، إذ شهدت مدينة « شاطبة » نهاية أجله سنة ثلاث وستين وأربعمائة (٤٦٢هـ)، وهي السنة التي توفي فيها **الخطيب البغدادي، فكان هو حافظ المشرق وابن عبد البر حافظ المغرب.**

آثاره تغنيك عن أخباره

رغم عدم الاستقرار ورغم التوتر الذي كان يسود بلاد الأندلس، فإن كتابات ابن عبد البر جاءت في مستوىً علمي رفيع، قاطعة الدليل على أنه لم يأل جهداً في خدمة العلم وتبليغه، وطارت شهرتها في الآفاق، وتحدث بها الناس في المشرق والمغرب، وعليها كان اعتماد العديد من العلماء، يقول الحميدي: « وألّف مما جمع تواليف نافعة سارت عنه »[٦] وأشاد بكتبه تلميذه الثاني ابن حزم الظاهري فقال:

« ولصاحبنا أبي عمر بن عبد البر كتب لا مثل لها[٧] ».

وقد كانت كتبه كثيرة في مختلف ضروب العلوم الشرعية كالفقه والحديث والقراءات والسيرة والتاريخ. منها: **كتاب « البيان عن تلاوة القرآن » و « الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء »** وكتاب « **التجويد** »، وفي الحديث ألّف الموسوعة

■ إنَّ شرح الموطأ كان دَيْناً على المالكية أدّاه الحافظ بن عبد البر بكتاب التمهيد
إذ وصل منقطعاته ومرسلاته وأسند بلاغاته وبيَّن مبهماته وعدد طرق موصولاته حتى أظهره بالوجه اللائق بمقام الإمام مالك ■

الضخمة « **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** » ثم « **التقصي** » أو « **تجريد التمهيد** » وكتاب « **الأجوبة الموعبة في الأسئلة المستغربة من كتاب البخاري** » وكتاب « **اختصار تاريخ احمد بن سعيد في تاريخ الرجال** » ثم « **الشواهد في إثبات خبر الواحد** » .

وأما في الفقــه فألّف كتاب « **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي** » و « **جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله** » وكتاب « **الأشراف في الفضائل** » و « **الاستذكار لمذاهب الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار** » وقد أفرد فيه ابن عبد البر شرح أقوال مالك في الموطأ .

وكتب في السيرة كتاب « **الدرر في اختصار المغازي والسير** » و « **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** » وكتاب « **الإنباه على قبائل الرواة** » وكتاب « **الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء مالك و الشافعي وأبي حنيفة** » ، وألّف في الأدب « **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس** » وكتاب « **العقل والعقلاء** » وكتاب « **شرح زهديات أبي العتاهية** » و « **الابتهال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال** » وغير ذلك .

كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد

هذا الكتاب الضخم يتصدر قائمة مؤلفات ابن عبد البر على الإطلاق ، وهو الذي انتزع ثناء العلماء واهتمام الناس منذ تأليفه ، وخدم رجال الحديث ورجال الفقه على السواء ، فما هي مواضيع كتاب التمهيد ؟ وما هو منهج الحافظ ابن عبد البر في تأليفه ؟ وإلى أي حد يمكن الاستفادة من هذا الكتاب ؟..

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من ذكر الأسباب التي دفعت إلى كتابته .

أسباب تأليف الكتاب

لا أكون مغالياً إذا ذكرت أن علماء السلف الصالح كانوا يؤلفون المؤلفات الطوال ، ويكتبون الرسائل المختلفة شعوراً منهم بالمسؤولية العظمى الملقاة على عواتقهم من قبل الله عزَّ وجل ، وهي بيان وتبليغ ما عَلِموه للناس ، ورجاءً في عظيم ثواب الله في الآجل والعاجل ، على أنه تبقى هناك أسباب مباشرة تدفع العالم إلى التأليف والكتابة . هٰذا ما نجده عند **الحافظ ابن عبد البر** ، فهو يُفصح عن شعوره بالمسؤولية وعاقبة كتمان العلم ، وأمله في الفوز بعظيم الثواب والزلفى يوم المآب[٨] ، ويبيِّن من جهة أخرىٰ السبب المباشر فيقول في مقدمة التمهيد :

« **إنه لاحظ كل من خرَّج أحاديث الموطأ زعم أنه سيقتصر على المسند وسيترك المنقطع والمرسل ؛ إلَّا أن اي واحد لم يلتزم بما شرطه ، ولم يوف بما عاهد عليه ، فقد وقع لهم خلط والتباس ، فادخلوا المنقطع في باب المتصل وأتوا بالمرسل مع المسند** »[٩] ، أضف إلى ذلك أن نيتهم في إغفال المنقطع والمرسل لا تقوم على أساس ولبيان ذلك ناقش **ابن عبد البر** مسألة المرسل عند **مالك** وأتى بأقوال العلماء العديدة التي تؤكد على قبول مرسل الثقة والعمل به ، وأن المرسل والمسند سواء في الاحتجاج بهما واستعمالهما . ولهذا عزم على تأليف كتاب التمهيد . **يقول ابن عبد البر** :

« **... ولما اجمع أصحابنا على ما ذكرناه في المسند والمرسل ، واتفق سائر العلماء على ما وصفنا ، رأيت أن اجمع في كتابي هذا كل ما تضمنه موطأ مالك بن أنس رحمه الله في رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي عنه من حديث رسول الله ﷺ مسنده ومقطوعه ومرسله وكل ما يمكن إضافته إليه صلوات الله وسلامه عليه**[١٠] » .

موضـوع الكتـاب

كتاب « **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** » شرح لما تضمنه موطأ الإمام **مالك بن أنس** من حديث **رسول الله ﷺ** ، إلَّا أنَّ مما هو جلي وواضح تعدد مواضيع الكتاب وتداخلها ، فهو في الحديث وعلومه ؛ من مصطلحٍ وجرحٍ وتعديلٍ ، وأحوال الرجال وأخبارهم ، وهو في فقه السنة وأحكامه ومذاهبه ، وهو أيضاً في اللغة وقواعدها وآدابها وشواهدها من شعر ونثر .

وصف الكتـاب

قسم **الحافظ ابن عبد البر** كتاب التمهيد إلى مقدمة ومدخل وكتاب شرح فيه أحاديث الموطأ . أما المقدمة فهي التي استهل بها الكتاب ، وعقدها للحديث عن الدوافع التي حملته على تأليفه ، وعن المنهج الذي سلكه فيه ، وتحدث فيها أيضاً عن مذهب **الإمام مالك** في الاحتجاج بالمرسل ، وناقش المسألة وختمها ببيان مذهبه وتوضيح أسباب اعتماده رواية **يحيى بن يحيى الليثي** وطرق روايته للموطأ .

وأما المدخل ـ وهو الذي يعرف عند العلماء بمقدمة التمهيد ـ فهو في مصطلح الحديث ، وقد بدأه بباب معرفة المرسل والمسند والمنقطع والموقوف ومعنى التدليس ، ثم تعرض لباب بيان التدليس ، ومن يقبل نقله ويقبل مرسله وتدليسه ومن لا يقبل منه ذلك .

وختم هذا المدخل بباب ثالث في ذكر عيون من أخبار **الإمام مالك** وذكر موطئه .

بعد ما فرغ من المقدمة انتقل إلى الموضوع الأصلي للكتاب ، وهو شرح أحاديث الموطأ ، وقد رتب ذلك في واحد وعشرين باباً ، مرتبة على أسماء شيوخ **مالك** حسب حروف المعجم حيث جعل لكل

حرف باباً ضمنه جميع الأحاديث التي رواها **مالك** عن شيوخه الذين تبدأ أسماؤهم بالحرف المماثل، وقد بدأ بحرف الألف وانتهى بحرف الياء، وأتبع ذلك بباب الكُنَىٰ، وحصر فيه من اشتهر بكنيته، ثم بباب بلاغات **مالك** ومرسلاته، وختم ذلك بباب ذَكَرَ فيه الأحاديث التي دوَّنها **مالك** في الموطأ.

والتمهيد كتاب ضخم يضم عشرة أسفار[11] أو عشرين مجلداً[12] أو سبعين جزءاً[13]، وتقوم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية بتحقيقه ونشره.

منهج ابن عبد البر في التمهيد

مما لا يخفى علينا أن موطأ **الإمام مالك** ـ الذي هو موضوع الكتاب ـ يقوم على تقسيم الأحاديث على الأبواب الفقهية، عكس المسانيد التي تصنف الأحاديث تبعاً لرواتها ... وقد اجتهد ابن عبد البر فجعل التمهيد على هيئة المسانيد؛ إذ رتَّبه على حروف المعجم حسب أسماء شيوخ مالك الذين روىٰ عنهم أحاديث الموطأ، يقول **ابن عبد البر**:

« ... وجعلته على حروف المعجم في أسماء شيوخ مالك رحمهم الله ليكون أقرب للمتناول[14].

ثم إنه وصل كل مقطوع جاء متصلاً في روايةٍ أو روايات أخرىٰ عند غير مالك، وكذا كل مرسل جاء مسنداً من غير طريق **مالك**، فأقام بذلك الدليل على صحة الأحاديث التي رواها **مالك** في الموطأ ورسوخها، ولْنتمعَّن في هذا التأكيد من **ابن عبد البر**:

« ... ومن اقتصر على حديث مالك رحمه الله فقد كُفي تعب التفتيش والبحث، ووضع يده من ذلك على عروة وثقى لا تنفصم، لأن مالكاً قد انتقد وانتقى وخلص ولم يرو إلَّا عن ثقة حجة وسترىٰ موقع مرسلات كتابه وموضعها من الصحة والاشتهار في النقل في كتابنا هذا إن شاء الله »[15].

عندما يتصدى **ابن عبد البر** لشرح الأحاديث فإنه يقسم عمله إلى شطرين، شطر أول يناقش فيه سند الحديث، فإذا كان الحديث مرسلاً أو منقطعاً فإنه يذكر الطرق المختلفة التي رُوي بها الحديث من غير طريق **مالك** ويناقشها مناقشة علمية، ثم يتناول رجال السند بالدراسة معتمداً على أقوال العلماء في أخبارهم وأحوالهم، فإذا انتهى من ذلك انتقل إلى الشطر الثاني من عمله حيث يقبل على متن الحديث بشرحه ويبين ما اشتمل عليه من فوائد وأحكام فقهية معتمداً على آراء شيوخه وفقهاء الصحابة والتابعين، يقول المؤلف:

« ... وذكرت من معاني الآثار وأحكامها المقصودة بظاهر الخطاب ما عوّل على مثله الفقهاء أولو الألباب، وجلبت من أقوال العلماء في تأويلها وناسخها ومنسوخها وأحكامها ومعانيها ... ».

قيمة التمهيد

لعلَّ من نافلة الكلام أن أردد القول عن مكانة التمهيد وعظيم أثره، وحسبي هنا أن أعطي شذرات عن قيمة هذا المصنَّف وأورد بعض أقوال العلماء فيه قديماً وحديثاً، فالتمهيد يعدّ بمثابة دائرة للمعارف، فيه يجد طالب الحديث بغيته، ومنه ينهل طالب علوم الحديث ومصطلحه، ومثله طالب التاريخ وأحوال الرجال، أما طالب الفقه ففي التمهيد مبتغاه؛ فيه يطلع على الآراء والمذاهب الفقهية منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم إلى عصر المؤلف، ولعلَّ هذا ما جعل **ابن عبد البر** يعتز بالتمهيد وينشد فيه قائلاً[16]:

سمير فؤادي من ثلاثين حجة
وصاقل ذهني والمفرج عن همي
بسطت لكم فيه كلام نبيكم
لما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يُهتدى به
إلى البر والتقوىٰ وينهىٰ عن الظلم

وقد انتزع كتاب التمهيد من **ابن حزم الظاهري** ثناءه وإعجابه فقال فيه:

« ... التمهيد لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر ـ وهو الآن في الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة ـ وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً، فكيف أحسن منه ... »[17].

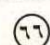
ويقول الدكتور عبد الله بن صديق الغماري محقق الجزء السابع من التمهيد: وليس فيما كُتب على الموطأ من شروح ما يضاهي كتاب «**التمهيد**» أو يوازيه لاشتماله على خصائص لم تجتمع في غيره، منها:

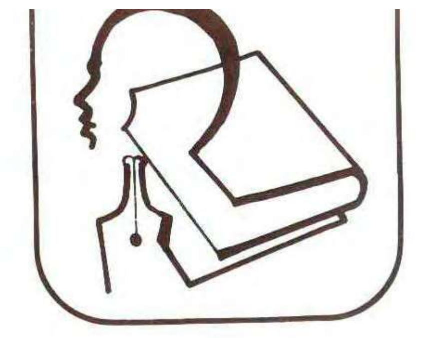
* إشباع الكلام على طرق الحديث ورواياته المحفوظ منها وغير المحفوظ مع التنبيه على ذلك.
* حكاية مذاهب الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب.
* ترجيح ما يراه راجحاً والاستدلال عليه.
* التنبيه على الأقوال الضعيفة.
* التعرض لما في الحديث من بحوث لغوية وفوائد تتعلق بمكارم الأقوال ومحاسن الأعمال.
* إسناد أحاديث لم توجد في غيره مسندة، بحيث إن الحفاظ يعزونها إليه كما يعزون إلى الدارقطني والبيهقي.

ويمكن أن نقول: إن شرح الموطأ كان دَيْناً على المالكية أدَّاه عنهم **الحافظ ابن عبد البر** بكتاب التمهيد. وإذا قال الشافعية في حق البيهقي: إنَّ له مِنَّةً على الإمام الشافعي لأنه خدم كتبه وخرَّج أحاديثها وأيَّد مذهبه، فَلَنا أن نقول: **إنَّ لابن عبد البر مِنَّةً على الإمام مالك لأنه خدم موطاه ووصل منقطعاته ومرسلاته، وأسند بلاغاته، وبيَّن مبهماته وعدَّد طرق موصولاته حتى أظهره بالوجه اللائق بمقام الإمام مالك وعلوّ رتبته**.

---

(1) وَفَيَات الأعيان: 69/6 تحقيق محيي الدين عبد الحميد. والديباج المذهب لابن فرحون ص 359.
(2) جذوة المقتبس للحميدي: 367 7
(3) بغية الملتمس لأحمد الضبي: 489.
(4) الصلة لابن بشكوال: 618/2.
(5) الديباج المذهب لابن فرحون: 358، ووفيات الأعيان: 65/6، وشذرات الذهب: 316/3.
(6) جذوة المقتبس: 344.
(7) رسائل ابن حزم: تحقيق الدكتور إحسان عباس.
(8) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: 3/1.
(9) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: 302/1 الطبعة المغربية.
(10) المصدر نفسه: 8/1.
(11) بغية الملتمس للضبّي: 490.
(12) ترتيب المدارك للقاضي عياض: 129/8 الطبعة المغربية.
(13) الصلة لابن بشكوال: 618/2 والرسالة المستطرفة للكتاني: 113.
(14) التمهيد: 9/1.
(15) المصدر نفسه: 60/1.
(16) ترتيب المدارك: 130/8.
(17) رسائل ابن حزم: 179/2، وبغية الملتمس: 345، وتذكرة الحفاظ: 1129/3.





ابن حزم وكتاب الأخلاق والسير

عالم وكتاب

□□□□□□□□□□
□□ كان أبو محمد ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علوم اللسان ، ووفرة حظه من البلاغة والشعر ، والمعرفة بالسير والأخبار □□

القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد
□□□□□□□□□□

حياته

هو الإمام الجليل ، أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الظاهري ، من أهل قرطبة ، تجول بالأندلس ، وروى عن القاضي يونس بن عبد الله ، وأبي بكر حمام بن أحمد القاضي ، وأبي محمد بن نبوش القاضي ، وأبي عمر بن الجسور وغيرهم .

أحد العلماء الذين وقفوا أنفسهم على نشر العلم وتحصيله مع الجهر بالحق ، وإفادة الناس ، لم يبال بما اعترضه من الموانع في هذا السبيل ، ومما يدل على أن غايته من حياته إنما كانت خالصة لنفع العباد ، والأخذ بالعلم ، والجهاد للنفس على الوجه الأكمل ، والعمل الأتم قوله :

مُناي من الدنيا علوم ابثها
وانشرها في كل بادٍ وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنة التي
تناسى رجال ذكرها في المحاضر

كان له ، كما يقول **ابو عبدالله الحميدي** ، نَفَس واسع في الآداب والشعر ، ومن شعره ـ وقد أحرق المعتضد كتبه باشبيلية ـ قوله :

فإن تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل إن انزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلاّ فعودوا في المكاتب بداءة
فكم دون ما تبغون لله من ستر

وقد ولد ابن حزم آخر يوم من رمضان سنة (٣٨٤هـ) ، وتوفي عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة (٤٥٦هـ) .

أهم مؤلفاته :

ترك مؤلفات كثيرة ، منها :

- المحلّى .
- الفصل بين أهل الأهواء والنحل .
- شرح حديث الموطأ .
- التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والسنة .
- منتهى الإجماع .
- الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبهم .
- كتاب كشف الالتباس فيما بين اصحاب الظاهر وأصحاب القياس .
- كتاب : « مداواة النفوس » ، وهو المعروف بكتاب : الأخلاق والسير .
- كتاب : طوق الحمامة .

وهو يعد بحق ـ من الأقطاب الذين يمكن أن نطلق عليهم : « **مصححو المفاهيم** » ، ومن النوابغ الذين كانت لهم ثقافة شمولية جعلت منهم دائرة معارف للعلوم والفنون المختلفة ، فاستطاعوا أن يسخروا مؤهلاتهم الفكرية للعمل النبيل الذي رسموه لأنفسهم ، وهو : **الدفاع عن العقيدة ، ومحاربة الفئة الضالة والمضلة** ، ومن ثم يجد الباحث صعوبة في فهمه منفصلاً عن عصره ، ذلك العصر الذي كانت ابرز سماته : **الانحلال الخلقي ، وانتشار الفساد في كل مناحي الدولة ايام ملوك الطوائف** ، وقد وصف الكاتب هذه المرحلة وصفاً دقيقاً ، فقال : « **إن الناس لم يعودوا يعرفون الحلال من الحرام في الكسب** » .. ونعى على علماء الدين موقفهم فقال : « **إنهم اصبحوا عوناً على الفساد والطغيان ، وإنهم صاروا ياكلون على جميع الموائد ، ويتنافسون في مضمار الشر** » .

بقلم : أحمد لكطيف

○ نعى ابن حزم على بعض علماء الدين موقفهم فقال : إنهم أصبحوا عونا على الفساد والطغيان وإنهم صاروا يأكلون على جميع الموائد ..

○ كان من أبرز معطيات ابن حزم «نظرية المعرفة الاسلامية» التي سبق بها الفكر الغربي بسبعة قرون ..

هذا الواقع المر الذي انحدر إليه المجتمع الإسلامي ، والذي أصبح فيه من يسمون أنفسهم بالعلماء ، يؤولون الآيات لتتلاءم مع هذا الوضع الشاذ ، هو الذي دفع ابن حزم رحمه الله ، إلى ان يحمي الإسلام من أن يكون مطية لمجتمع منحل ، ولهوى بعض الفقهاء ، وكان سلاحه في ذلك : « التماس مفهوم القرآن » ، **والوقوف عند النص ، ولقد اعانه على اداء هذه الرسالة الهامة اتساع افقه ، نتيجة ثقافته الواسعة التي كانت تستقي من ينابيع متعددة ، منها :**

١ - مطالعاته العميقة المتنوعة .

٢ - رحلاته ومهاجره وتجاربه .

٣ - لقاؤه لعشرات العلماء .

هذا التنوع في المشارب ، جعله يتمتع بشخصية قوية ، ومنهج علمي ، يقوى على الجدال ويتقبل الحقيقة ، وكانت أبرز معطياته : « نظرية المعرفة الإسلامية » التي سبق بها الفكر الغربي بسبعة قرون ، وهو الذي سبق علماء المسلمين إلى إقرار المفهوم القرآني في قيام المعرفة في الإسلام على أساس العقل والقلب معاً ، يقول :

« **المعرفة تكون بشهادة الحواس ، باول العقل ، ببرهان راجع من قرب او من بعد إلى شهادة الحواس »** .

ويتصل بنظريته في المعرفة مفهومه للعقل ، فهو يكرمه ، ولكن لا يسلم له تسليماً مطلقاً ، على النحو الذي يقول به غير المسلمين ، يقول : « **من ابطل العقل فقد ابطل التوحيد ..! إذ لولا العقل لم نعرف الله عز وجل** » ..

موضوع الكتاب

هو عصارة افكار هذا العالم المسلم ، وخلاصة مركزة لتجاربه في الحياة ، وحقائق ليست مستقاة من الكتب على طريقة : « **خذ من هنا ومن هنا ، وقُل هذا كتابنا** » ، بل هي ناتجة عن معاناته ، وعن انفعاله وتفاعله مع الأحداث ، مما حقق لها كثيراً من التجاوب مع القارىء .

لقد اخترت هذا الكتاب بالذات ، لإيماني بأن ما يعيشه العالم عامة ، والمجتمع الإسلامي بوجه خاص ، ناتج عن بعده عن الأخلاق الإسلامية ، وافتقاده للقدوة الحسنة ، ولحرارة الكلمة النظيفة الملتزمة التي يجعلها نبراساً يضيء طريقه المحفوفة بالمخاطر ، وما أكثرها ...

عنوان الكتاب الحقيقي هو : « **مداواة النفوس** » ، لكنه اشتهر باسم « **الأخلاق والسير** » .. بداه المؤلف بمقدمة قصيرة يبين فيها الحوافز التي دفعته إلى تأليفه ، فيقول : « **فإني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة ، افادنيها واهب التمييز تعالى بمرور الأيام ، وتعاقب الأحوال مما منحني عز وجل من التهمُّم (طلب الشيء) بتصاريف الزمان ، والإشراف على أحواله ، حتى انفقت في ذلك اكثر عمري ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها اكثر النفوس** » .. « **وانا راج في ذلك من الله تعالى اعظم الأجر لنيتي في نفع عباده ، وإصلاح ما فسد من اخلاقهم ، ومداواة علل نفوسهم** » .

بعد هذا التقديم ، قسم المؤلف الكتاب إلى الأبواب الآتية :

مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق - العقل والراحة - العلم - الأخلاق والسير - الإخوان والصداقة والنصيحة - المحبة وأنواعها - الأخلاق والعادات - أدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها - غرائب أخلاق النفس - تطلع النفس إلى ما يستر عنها - حضور مجالس العلماء .

يبين الكاتب في الباب الأول ، أن لكل إنسان لذة يلتذ بها ، ولكنها جميعها عارضة زائلة ، وتبقى اللذة الحقيقية في عمل ما يرضي الله ، ويستفيد من تجاربه أن الناس يتفقون جميعاً في مطلب واحد وهو طرد الهم ، مستعملين وسائل مختلفة لذلك ، ولكنهم لم يوفقوا حتى الآن ، ففي عصرنا الحاضر نجد الناس قد تفنّنوا في تحقيق هذا المطلب ، واستغلوا كل الوسائل والإمكانات التي يتوفرون عليها : السينما ، المسرح ، التلفزة ، الفيديو ، علب الليل ، الخمر ، القمار ... بل ان الرجل الغربي حاول البدء من الصفر ، والتضحية بكل رفاهيته في سبيل القضاء على حياته الرتيبة فلم يفلح جاهلاً او متجاهلاً أن مرضه العضال يكمن في فراغه الروحي ، في عدم رصد جهوده لأجل قضية إنسانية ، يقول الكاتب :

« **تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم اجده إلَّا واحداً وهو طرد الهم** » ... **وليس في العالم مذْ كان إلى ان يتناهى ، احد يستحسن الهم ، ولا يريد طرده عن نفسه ، فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع ، وانكشف لي هذا السر العجيب ، وانار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم** بحثت عن سبيل موصلة - على الحقيقة - إلى طرد الهم ، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله - عز وجل - بالعمل للآخرة ، وما عدا هذا فضلال وسخف » .

ثم يبين الكاتب الأوجه التي يجب أن يصرف الإنسان فيها نشاطه الزائد ليتسنى له طرد الهم ، فيقول : « **لا تبذل نفسك إلا فيما هو اعلى منها ، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل ، في دعاء إلى الحق ، وفي حماية الحريم ، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ، وفي نصر مظلوم** » ..

ثم ينتقل إلى الباب الثاني والثالث : **العقل والراحة ، ثم إلى العلم والأخلاق والسير** ، فيبسط آراءه في أسلوب خال من



○ من أبطل العقل فقد أبطل التوحيد . . إذ لولا العقل لم نعرف الله عز وجل ..

« ابن حزم »

التعقيد ، بعيد عن الزخارف اللفظية ، مبرزاً أن الراحة تكمن في : اطِّراح المبالاة بكلام الناس ، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل ، وأن إرضاء الناس غاية لا تدرك ، فمن « **قدَّر انه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون** » ... ثم يقيم مقارنة بين العلم والجهل ، مندِّداً بالإقطاع الفكري في جميع صوره ، ذامّاً احتكار المعرفة ، والتطفل على هذا الميدان الشريف فيقول : « **لو لم يكن من فضل العلم إلا ان الجهال يهابونك ويجلّونك ، وان العلماء يحبونك ويكرمونك ، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه ، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة ؟** » .

« **الباخل بالعلم ألأمُ من الباخل بالمال ، لان الباخل بالمال اشفق من فناء ما بيده ، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة ولا يفارقه مع البذل** » ..

« **لا آفة على العلوم واهلها اضرُّ من الدخلاء فيها ، وهم من غير اهلها ، فإنهم يجهلون ويظنون انهم يعلمون ، ويفسدون ويقدِّرون انهم يصلحون** » .

أما في الباب الرابع وهو : **الأخلاق والسير** ، فهو نوع من النقد الذاتي للنفس ، حيث يتعهدها رحمه الله ، بالرياضة الروحية المستمرة ، ويوطنها على ما تكره ، مقتدياً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (يوسف:٥٣) ، ومطابقاً لقول البوصيري في البردة :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

يقول ابن حزم : « **كانت فيَّ عيوب فلم ازل بالرياضة ، واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتاخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس ، اعاني مداواتها حتى اعانني الله ـ عز وجل ـ على اكثر ذلك بتوفيقه ومنّه** » ، ويقول : « **اول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر ، واول من يمقت شاهد الزور من شهد له به ، واول من تهون الزانية في عينيه الذي يزني بها** » .

ثم يتعرض إلى عدة أدواء اجتماعية ، لا زالت تنخر مجتمعنا الإسلامي ، وعلى راسها **التكبر** الذي يؤدي بصاحبه إلى الاعتقاد بأنه يسمو على البشرية جمعاء ، فيدفعه صلفه وغروره إلى الإحساس بانه في منتهى الكمال المطلق ..! ويعميه جاهه وسلطته وماله عن النظر إلى نور الحقيقة الساطع ، « **لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً ، لا يخلو مخلوق من عيب ، فالسعيد من قلت عيوبه ودقَّتْ** » ..

أما آراؤه المجملة في باب **الصداقة** فهي عين الصواب ، ويمكن تقديمها كالآتي :

« **لا ترغب فيمن يزهد فيك ، فتحصل على الخيبة والخزي** » ..

« **ليس في الرذائل اشبه بالفضائل من محبة المدح** » ..

« **النصيحة مرتان ، فالأولى فرض وديانة ، والثانية تنبيه وتذكير ، واما الثالثة فتوبيخ وتقريع ، وليس وراء ذلك إلا التركل واللطام ، اللهم إلا في معاني الديانة ، فواجب على المرء ازدياد النصح فيها ، رضي المنصوح او سخط ، تاذى الناصح بذلك او لم يتاذَّ ، وإذا نصحت فانصح سراً لا جهراً ، وبتعريض لا بتصريح ، إلا ان لا يفهم المنصوح تعريضك فلابد من التصريح** » ..

« لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذله من نفسك ، فإن طلبت اكثر فأنت ظالم » ..

« الناس في أخلاقهم على سبع مراتب ، فطائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب ، وهذه صفة أهل النفاق من العيابين ، وهذا خلق فاشٍ في الناس غالب عليهم ، وطائفة تذم في المشهد والمغيب ، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين ، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب ، وهذه صفة أهل الملق والطمع ، وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب ، وهي صفة أهل السخف والنواكة (الحمق) ، وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة ، ويثنون بالخير في المغيب ، أو يمسكون عن الذم ، وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب ، ومن كلٍّ من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا » .

ثم يبرز المؤلف في باب : « **أدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها** » ، اهم هذه الأدواء وهي : التعالي والزهو بالنفس ـ النطق بعيوب الناس ـ عدم أخذ العبرة من الأحداث والناس .

- الاستغلال البشع لغيره ـ مركبات النقص التي تدفع صاحبها إلى تصرفات شاذة .
- مدح الناس في محضرهم « إيَّاك والامتداح ، فإن كل من سمعك لا يصدقك ، وإن كنت صادقاً » ..
- النفاق : « الغالب على الناس النفاق ، ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك عندهم إلا من نافقهم » ..

وينتقل إلى **غرائب الأخلاق** ، فيركز على مسألة هامة ، وهي : **عدم التسرع في الحكم على الناس حسب مظهرهم** ، لأن ذلك قد يخدع احياناً ، ويجعل الإنسان يبتعد عن الحق ، فكم من ظالم نجح في تقمص شخصية المظلوم ، « ينبغي للعاقل أن لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكي المتظلم وتشكيه ، وشدة تلويه وتقلبه وبكائه ، فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين ، أنه الظالم المعتدي المفرط الظلم ، ورأيت بعض المظلومين ، ساكن الكلام ، معدوم التشكي ، مظهراً لقلة المبالاة ، فيسبق إلى نفس من لا يحقق النظر انه



○ أول من يزهد في الغادر من غدر له وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به ، وأول من تهون الزانية في عينيه الذي يزني بها ..

ظالم ، وهذا مكان ينبغي التثبت فيه ، ومغالبة ميل النفس جملة ، وان لا يميل المرء مع الصفة التي ذكرنا ولا عليها ، ولكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق على السواء » .. وهذا مثال يقدمه المؤلف لما يجب أن يتحلى به الإنسان من أخلاق فيقول :

إنما العقل اساس فوقه الاخلاق سورُ
فحلِّ العقل بالعلم ، وإلا فهو بُور
جاهل الاشياء اعمى لا يرى كيف يدور
وتمام العلم بالعدل ، وإلا فهو زورُ
وزمام العدل بالجود ، وإلا فيجور
وملاك الجود بالنجدة ، والجبن غُرُور
وكمال الكل بالتقوى ، وقول الحق نور
عِفَّ إن كنت غيوراً ما زنى قط غيور
ذي اصول الفضل عنها حدثت بعدُ البذُورُ

ويختم المؤلف كتابه النفيس بالدعوة إلى مطابقة الأقوال للأفعال ، إذ لا قيمة لأقوالنا إذا لم تجسمها الأفعال ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف:٢-٣) .

وقد قيل : « اقبح شيء في العالم أن يأمر الإنسان بشيء لا يأخذ به نفسه ، أو ينهى عن شيء يستعمله » ، وقد قال الشاعر العربي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقْبَلُ إن وعظت ويُقْتَدَىٰ
بالعلم منك وينفع التعليم

وبعد : فإن آراء ابن حزم ، تعطي في مجموعها مفهوماً متكاملاً للإسلام ، وقد استطاع أن يترك بصماته في مختلف فروع الفكر الإسلامي ، ولا زالت كثير من آرائه في منتهى الجدة ، نابضة بالحياة تكشف عن مدى عظمة الإسلام في كونه ليس دين عبادات فحسب ، بل هو دين مجتمع وحضارة ، وفي هذا المضمار ناقش ابن حزم كثيراً من القضايا الحيوية :

- التعليم إجباري .
- الأرض لمن يزرعها .
- المرأة والرجل متساويان في العلم والثقافة .
- لكل مواطن حلتان ومسكن .
- « يجوز للمرأة أن تلي القضاء ، وهو قول أبي حنيفة ، فإن قيل : قال رسول الله ﷺ : « لن يفلح قوم ولّوا شؤونهم امرأة » ، قلنا : « إنما قال ذلك رسول الله ﷺ في الأمر العام وهو الخلافة » ، برهان ذلك قولة عليه الصلاة والسلام :

« المرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيتها » .. وقد أجاز في الملكية أن تكون وصية ووكيلة ، ولم يأت نص في منعها من أن تلي بعض الأمور » ..

من هذه الدراسة لبعض آثار ابن حزم ، أمكن استخراج المقومات الفكرية لمنهجه العلمي وهي :

١ - **الاستقلالية في التفكير** : « ما مذهبي أن امتطي مطية سواي ، ولا أتحلى بحلي مستعار ، التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يقلد أحداً بغير برهان » ..

٢ - **الموضوعية** « لابد لطالب الحق من أن يسمع حجة كل قائل ، فإذا ظهر البرهان لزمه الانقياد والرجوع إليه ، والبرهان لا يجوز أن يعارضه برهان آخر ، فالحق لا يكون شيئين مختلفين ، ولا يمكن ذلك أصلاً ، والحق مبينٌ في الملل والديانات بموجب العقل والبراهين الراجعة إلى أول الحس والضرورة » .

٣ - **التجرد** : « إذا ورد عليك خطاب بلسان ، أو هجمت على كلام في كتاب ، فإيَّاك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة قبل أن تتبين بطلانه ببرهان قاطع ، وأيضاً فلا تُقبل عليه إقبال المصدق به المستحسن إيَّاه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع ، ولكن أقبل عليه إقبال سالم العقل عن النزاع عنه والنزوع إليه ، إقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى » ..

٤ - **المرونة في الأفكار ، والقابلية للتطور** : « إن طالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه حيث يكون ، وهو في إخلاصه للحق لا يبغي به الغلب ، ولكن يبغي به نصر الحق المجرد ، وأن يكون مستعداً لترك قول غيره ، إن رأى عند غيره الحق السائغ الذي لا يشوبه باطل ، وكذلك يقول فيما يصح عندنا حتى الآن ، فنقول مجدين مقرين : إن وجدنا أهدى منه اتبعناه وتركنا ما نحن فيه » ..

٥ - **الوضوح والبساطة** ، يقول في كتابه « المفصل » : « إن دين الله ظاهر لا باطن له ، وجوهر لا ستر تحته ، واعلموا أن رسول الله لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ، ولا أطلع أخص الناس به على شيء كتمه على الأحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده سر ، ولا رمز ، ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه ، ولو كتمهم شيئاً لما بلَّغ كما أُمر ، وكل من ادَّعى للديانة سراً وباطناً فهي دعاوى ومخاريق » ..

إن مفكراً مثل ابن حزم ، يجب أن يُقرأ تراثه عدة قراءات ، وأكيد أن الباحث سيجد دوماً ما يستنتجه من أفكار لا زالت مواكبة لروح العصر ، تتلاءم وطموحات شبابنا ، وتجيب على كثير من التساؤلات المطروحة في ساحة الفكر الإسلامي ..

الإمام عبد القاهر الجرجاني وكتابه أسرار البلاغة في علم البيان



عالم الكتاب

■■ تاريخ الآداب العربية زاخر بأسماء الأدباء النابهين والعلماء المبدعين .. الذين أثروا آداب العرب ، بما خلفوا من تراث لا ينضب معينه ، ولا تذبل زهرته . وعلوم البلاغة احد محاور الادب التي لفتت انظار الادباء ، فعكفوا على دراسة جوانبها والبحث عن اسرارها واختراق كنهها ، فلما حصل لهم ما ارادوا اقبلوا على علومها ، فوضعوا قوانينها ، واتفقوا على ضوابطها حتى تسنى لهم الاحتكام إليها عند نقدهم للشعر والنثر ، او عند الاختلاف . واليوم نعرض لأحد ائمة البلاغة واساطينها ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، الذي اخترقت شهرته الآفاق ، وعرفه اهل الادب والبلاغة ، واقرُّوا بفضله على لغة العرب وآدابها الخالدة .. ■■

علوم البلاغة من الوجهة التاريخية

علوم البيان او البلاغة او علوم النقد لها في الادب العربي موضع جليل : إذ هي التي يقاس عليها النثر والشعر ، للوقوف على بلاغتهما وفصاحتهما بعد تطبيقها على قواعد هذه العلوم ، وهي البيان والمعاني والبديع . وقد كانت الحاجة ملحَّة إلى وضع قواعد للبلاغة في عصر بني العبَّاس ، إذ تطاول احد المذاهب على الحق وانكر إعجاز القرآن الكريم ، وصاحب هذا الرأي « إبراهيم النظّام » الذي انشا مذهباً سماه « الصَّرفة » كان كل ما انطوى عليه ان القرآن ليس معجزاً ببلاغته وفصاحته ، وان العرب كانوا على استعداد للإتيان بمثله لكن الله « صرفهم » عن ذلك تاييداً لرسوله محمد بن عبد الله ﷺ ، لكن ادباء الإسلام لم تهلهم هذه الآراء المتعفنة بل جعلتهم يشرعون أسنَّة اقلامهم ، للرد على هؤلاء المتطاولين على الحق المبين ، وكان من جملتهم : الفخر الرازي ، والجاحظ ، والباقلاني ... وغيرهم من الأدباء والعلماء ، وجاهدوا ما استطاعوا حتى ردُّوا الحق إلى نصابه بافكارهم النيِّرة ، وقرائحهم الصافية ، وكتبهم التي دوّنت ما حدث ، في غابر العصور وسالف الدهور .

وممَّا ساعد على وضع قواعد لعلوم البلاغة ، ذلك اللجاج الذي عجت به نوادي الادب في كيفية معرفة وجوه تزيين الكلام ، حتى يصل إلى البلاغة والفصاحة ، زد على ذلك ما كان يهدف إليه انصار الشعر القديم في المحافظة عليه وعلى أساليب العرب والاقتداء بهما .

ووسط هذه الحماة من اللجاج والمناظرة ، لم يكن بد من وضع قواعد للبلاغة وعلومها ، لتكون دستوراً أو قانوناً يسير على هديه الباحثون والنقاد من أهل الأدب .

فألَّف أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى ، الراوية المتوفى عام ٢١١هـ كتاباً سماه مجاز القرآن وهو في علم البيان ، وكان الاول من نوعه في هذا الباب . اما علم المعاني فقد عالج بعضاً من مسائله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ في كتابيه « إعجاز القرآن » و « البيان والتبيين » ، ثم تبعه بعد ذلك ابن قتيبة الدِّيْنَوَرِيّ والمبرد . اما البديع فقد اهتم به الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز بن المتوكل المتوفى عام ٢٩٦هـ ، إذ وضع كتاباً عنوانه « البديع » عدّ فيه ما استقصاه من المحسنات البديعية ، وقد جعلها ثمانية عشر مُحَسِّناً ، فاضاف إليها قدامة بن جعفر ثلاثة عشر محسناً ، ثم اوصلها أبو هلال العسكري إلى خمسة وثلاثين : ثم تلاه ابن رشيق فابو طاهر البغدادي الذي عدّ منها اربعة وأربعين محسناً ، وبعد هؤلاء جاء أسامة بن منقذ فاورد منها خمسة وتسعين ، تلاه بعد ذلك ابن ابي الإصبع المصري فجعلها مائة واثنين وعشرين محسناً بديعياً[1] ـ فلما حلَّ القرن الخامس الهجري ظهر سلطان البلغاء .. عبد القاهر الجرجاني ، فنظر في علوم البلاغة فإذا هي نبذ مشتتة في بطون الكتب ، ونتف مبعثرة في المصنفات فاقام ميلها وبنى قواعدها وشادها على ارض لا تنهار : في كتابيه « اسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » .

وبعد ذلك ظهر تفسير للقرآن الكريم عنوانه « الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل » ، ألَّفه الإمام جار الله الزمخشري ، كشف فيه عن اسرار القرآن واوجه إعجازه وبلاغته ، فقدم بذلك خدمة جليلة للقرآن والعربية على حد سواء ، وبعد ذلك اعقبه ابو يعقوب يوسف السَّكَّاكي المتوفى عام ٦٢٦هـ ، فاخرج كتاباً سماه « مفتاح العلوم » جمع فيه قواعد البلاغة ورتبها ترتيباً حسناً ، واخرجها إخراجاً جميلاً ، وجعل لكل علم من علوم البلاغة موطنه وموضعه ، وفي اثناء ذلك ألَّف الوزير ضياء الدين أبو الفتح نصر بن محمد الموصلي الشيباني المشهور بابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٧هـ كتاباً جمع فاوعى ، ولم يدع كبيرة ولا صغيرة إلَّا احصاها ، سماه « المثل السائر ي ادب الكاتب والشاعر » .

وبعد ابن الأثير ظهر ادباء وعلماء آخرون لكن اهتمامهم لم ينصرف إلى الكتابة والتاليف ، وإنما اتجه إلى الاختصار ، ووضع الشروح والحواشي على الكتب السابقة ، هذا مجمل تاريخ علوم البلاغة وتطورها ، وتعاقب اهلها شرحاً لها وإيضاحاً لغوامضها وجمعاً لقواعدها وتدويناً لضوابطها ...

بقلم : خالد بن جدية

■ عبد القاهر الجرجاني أنقذ علم البيان مما أصابه من الركود والجمود ، وأزال عن النحو الجفاء والغلظة ، وألبسه ثوباً قشيباً . ■

■ خدم الإسلام والقرآن من خلال مؤلفاته في البلاغة والإعجاز والنحو .. بما يشهد له بالفضل والإمامة في هذه العلوم . ■

الإمام عبد القاهر الجرجاني

هو عبد القاهر ابو بكر عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، من اسرة فارسية ضعيفة المورد ، لم تجد ما تنفقه على ولدها حتى يطوف الآفاق ويجوب الاقطار ، طالباً للعلم ومحصلاً إيَّاه من اعلامه ، فلبث في مدينة جرجان مسقط راسه لا يبرحها ، ولا نعرف سنة ولادته لعدم اهتمام اسرته بتدوينها ، وقد نشأ عبد القاهر مفتوناً بالعلم والمعرفة ، فانكب على دراسة الكتب ، خاصة ما اشتملت على النحو والأدب والبلاغة ، وقد درس على يد استاذيه ابي الحسين محمد بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي ، وابي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، وقرا عليه ابو الحسين الفارسي كتاب « الإيضاح » في النحو ، لخاله الشيخ ابي علي الفارسي ، فلما يفع عبد القاهر وضع عدة شروح لكتاب « الإيضاح » ، منها « المغني » في ثلاثين مجلداً ، و « المقتصد » في ثلاثة مجلدات . اما ابو الحسن الجرجاني فهو المعروف بالقاضي الجرجاني ، صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » وله تصانيف أخرى . قال ياقوت :

« وكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد قرا عليه واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ به ، وشمخ بانفه بالانتماء إليه » . هذا وقد عكف عبد القاهر على كتب النحو والادب يدرسها معتمداً على نفسه في الدراسة والتحصيل ، فاخذ عن سيبويه ، والجاحظ ، وابي علي الفارسي ، وابي هلال العسكري ، وابن قتيبة ، وقدامة بن جعفر ، والآمدي ، والقاضي الجرجاني ، وابي احمد العسكري ، وقرا كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ، ورجع إلى كتاب الشعر والشعراء للمرزباني ، ونقل عن الزجَّاج[٢] ...

وبعد ان اغترف من بحر الأدب ما شاء الله ، ونهل من النحو حتى لقِّب بالنحوي ، واصبح من ائمة البلاغة ، اتجه إلى الفقه الشافعي فاخذ عنه ، ثم اصبح بعد ذلك متكلماً على طريقة ابي الحسن الاشعري ، مما يدل على سعة ثقافته ، لكنه اشتهر بالنحو اكثر من غيره ...

هكذا شاع ذكره وعلا نجمه ، وعرفه اهل الأدب فشدّوا إليه الرحال ، ليصيبوا من علمه الغزير ، وأدبه الوفير ، وقد كان عصره عصر حروب وفتن ، ولم يكن عصر علم وادب ، وكان طلاب المجد والعزّ يغامرون للارتقاء في سلم المناصب العليا الرفيعة ، وليس فيهم إلاَّ الجهلة ، امَّا اهل العلم فحظهم تعس في ذلك العصر ، ومن شعره في ذلك :

كبِّر على العِلْمِ لا تَرُمْهُ ... وَمِلْ إلى الجَهْلِ مَيْلَ هائِمْ
وَعِشْ حِماراً تَعِشْ سَعيداً ... فَالسَّعْدُ في طالِعِ البَهائِمْ

وكذا قوله :

هذا زمانٌ لَيْسَ فيـ ... ـهِ سِوى النَّذالَةِ وَالجَهالَةْ
لَمْ يَرْقَ فيهِ صاعِدٌ ... إلاَّ وَسُلَّمُهُ النَّذالَةْ

وقد كان الإمام عبد القاهر كريم الخلق ورعاً ... وكان يترفع عن ان يذلّ نفسه امام اي حاكم او سلطان ، وما مدح احداً إلاَّ بما يليق بمقامه ، ومن ذلك ما مدح به الوزير نظام المُلْك :

لو جاوَزَ الغَيْثُ غدا ... بِالجودِ مِنْهُ أَجْدَرا
أَوْ قيسَ عَرْفُ عُرْفِهِ ... بِالمِسْكِ كانَ أَعْطَرا
ذو شِيَمٍ لَوْ أَنَّها ... في الماءِ ما تَغَيَّرا

وكانت وفاته رحمه الله عام ٤٧١هـ ، ومن المؤرخين من يجعلها عام ٤٧٤هـ كالسبكي ، والله اعلم .

آثار عبد القاهر الجرجاني

لعبد القاهر عدَّة تصانيف : في النحو ، والبلاغة ، والصرف ، والتفسير ، والعروض ، وهي كالتالي :

١ - كتاب « المغني » ، وهو شرح مسهب لكتاب « الإيضاح » في النحو ، لصاحبه ابي علي الفارسي .
٢ - كتاب « المقتصد » ويقع في ثلاثة مجلدات ، وهو ملخص لكتاب « المغني » ، الذي يصل إلى زهاء ثلاثين مجلداً .
٣ - كتاب « التكملة » ، ذكره القفطي في كتابه « انباه الرواة » ، وهو في النحو كذلك .
٤ - كتاب « الإيجاز » وهو مختصر لكتاب « الإيضاح » .
٥ - كتاب « الجُمل » أو « الجرجانية » ، في النحو .
٦ - كتاب « التلخيص » ، وهو شرح لكتاب « الجمل » .
٧ - كتاب « العوامل المائة في النحو » ، وهو معروف .
٨ - كتاب « دلائل الإعجاز » ، وفيه يرد على اصحاب مذهب الصَّرفة الذي ذكرناه آنفاً .
٩ - كتاب « اسرار البلاغة » .
١٠ - كتاب « العمدة » ، في الصرف .
١١ - كتاب « شرح الفاتحة » ، يقع في مجلد ، وقد ضاع هذا الكتاب .
١٢ - كتاب « المعتضد » ، وهو شرح على كتاب « إعجاز القرآن » للواسطي .
١٣ - كتاب « التذكرة » ، ويضم عدة مسائل لعلَّ موضوعها الإعجاز .
١٤ - وله كتاب في علم العروض ...
١٥ - وله رسالة سماها « الشافعية » ، موضوعها الإعجاز .
١٦ - وكتاب « المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام » .
١٧ - وله كتاب سماه « المفتاح » .
١٨ - وله شرح صغير لكتاب « إعجاز القرآن » للواسطي ، إلى جانب شرحه « المعتضد » . وله شعر مبعثر في المراجع الكبرى ، واغلب شعره في المدح والهجاء والشكوى والحكم ، كقوله :

نُسر بالحَوْلِ إذا ما انْقَضى ... وفي تَقَضِّيهِ تَقَضِّينا

كما انَّ له شعراً يعرض فيه بعضاً من قواعد النحو والبلاغة والصرف ، كقوله :

النَّظْمُ لَيْسَ كَلاماً أَنْتَ ناظِمُهُ
مَعْنىً سِوى حُكْمِ إعْرابٍ تُزَجِّيهِ
وَقَدْ عَلِمْنا بِأَنَّ النَّظْمَ لَيسَ سِوى
حُكْمٍ مِنَ النَّحْوِ نَمْضي في تَوَخِّيهِ
قولوا وَإلاَّ فَاصْغوا لِلْبَيانِ تَرَوْا
كَالصُّبْحِ مُنْبَلِجاً في عَيْنِ رائِيهِ



هكذا نرى بأن الإمام عبد القاهر الجرجاني قد أدلى بدلوه في كل علم ، فخرج دلوه كما توخّاه ، ووفق في كل العلوم التي اهتم بها ، وآثاره خير شاهد على ذلك ، فهي تبين إلى أي حدّ كان الإمام موسوعياً ، وقادراً على النهل والأخذ والعطاء ، إذ أظهر في كل ذلك نبوغاً عظيماً ، بنظر جلّ المؤرخين والأدباء ... ممن أتوا بعده ، ولفوا لفّه .

كتاب « أسرار البلاغة في علم البيـــــان »

ألّف عبد القاهر الجرجاني كتاب « أسرار البلاغة » لمعالجة المسائل البلاغية التي يوزن بها القول ، لتبيان أوجه بلاغته وفصاحته ، وهذه المسائل هي : المجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والكناية ، وقد عمد إليها المصنف ، لتوضيح أقسامها وإظهار الاختلافات الحاصلة بينها . وما دامت هذه المسائل البلاغية متصلة بعضها ببعض أوثق اتصال ، فقد تناولها المؤلف جملة ، إلّا الكناية التي يجد الناظر في كتاب « أسرار البلاغة » ، أن عبد القاهر قد تلافى الحديث عنها ولم يخصها بباب أو فصل ، ولكنه تناولها بدراسة مستفيضة في كتابه « دلائل الإعجاز » ، لذلك لم يرد إعادة ذلك في « أسرار البلاغة » .

« والكتاب متصل الأجزاء ، ويعترف عبد القاهر بأنه كان يود أن يرتب الكتاب على منهج منطقي ، يتكلم فيه أولاً عن الحقيقة والمجاز ، والفرق بينهما ، ثم عن ألوان المجاز ، ثم عن التشبيه ، لترتب الاستعارة عليه ، ثم عن الاستعارة ، ولكنه عدل عن ذلك ، وبدأ بالاستعارة لأهميتها في البلاغة ، ثم تحدث عن التشبيه الذي بنيت عليه الاستعـــارة ، لاتصالها بالتشبيـــه ، ثم ختم الحديث بالحقيقة والمجاز »[3] .

هذا وقد بدأ عبد القاهر كتابه ببـاب في التجنيس والسجع وشرط استحسانهما ، وبعد ذلك ذكر أمثلة التجنيس الحسن والقبيح وما يتصل بذلك ، ولعلّ مقدمته هاته لكتابه ترمي إلى فكرة واحدة ، وهي أن حسن الكلام بالمعاني لا بالألفاظ . وبعد ذلك انتقل إلى الاستعارة فجعلها نوعين وأوضحهما ، وبين أقسام كل نوع ، ثم تناول التفرقة بين نوعي الاستعارة .

وبعد ذلك انتقل إلى التشبيه فقسمه وبيَّن الفرق بين تشبيه التمثيل والتشبيه المعروف وتناوله بدراسة مستفيضة جداً . وبعد كل ذلك عمد إلى المجاز فقسَّمه أقساماً ووضع كل قسم في موضعه ، وأظهر ما بين أقسام المجاز من اختلاف ، بحيث إن المجاز يضم المجاز العقلي واللغوي ، وهذا الأخير يحتوي على مجاز واستعارة ... إلخ .

هذا وقد استعان عبد القاهر بمنهج صارم « يعتمد على الدقة في تعبيره ، والإلحاح في طلبها ، والبعد عن المناقشات اللفظية التي ليس لها نتيجة عملية ، إذ أن كل مناقشاته تهدف إلى استخلاص الحقيقة ، والوصول إليها ، وبلورة الفكرة وتوضيحها ، ولا يقف عبد القاهر عند حد ذكر الأحكام ، بل يجد في توضيح فكرته بالأمثلة الكثيرة ، ثم يشرح ويحلل بعد ذلك »[4] . وقد أفاد الإمام من علماء البلاغة الذين سبقوه ، ولكن نقله عنهم واستعانته بهم ، وبما وضعوا من قواعد ، لم يمنعه من أن يثق بعلمه ، ويطمئن إلى آرائه عند مخالفته لما قرروه وما استنبطوه ، مع أنه كان قليل النقل عنهم إلى حد كبير[5] . وكتاب « أسرار البلاغة » ، كتاب جامع لما وصل إليه علماء البلاغة ـ قبل عبد القاهر ـ من قواعد وأحكام مع ما أضافه الإمام وأقرّه وكذلك ما استحسنه ... وهو كتاب رائع جميل الأسلوب واضح المعاني عظيم الفائدة ، وهو من أهم كتب عبد القاهر ، وأشهرها وأكثرها تداولاً ، وقد أفاد منه عدد غير يسير من أهل البلاغة والنقد والأدب ، كأبي طاهر البغدادي صاحب كتاب « قانون البلاغة في نقد الشعر والنثر » وغيره من البلغاء قديماً وحديثاً ...

مثال لمنهجه في كتابه « أسرار البلاغة » وأسلوبه

جاء في « فصل في تقسيم المجاز إلى اللغوي والعقلي » صفحة ٣٥٥ ما يلي :

« واعلم أنّ المجاز على ضربين : مجاز من طريق اللغة ، ومجاز من طريق المعنى والمعقول ، فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة ، كقولنا : اليد مجاز في النعمة ، والأسد مجاز في الإنسان وكل ما ليس بالسبع المعروف ، كان حكماً أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة ، لأنَّا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداءً في اللغة وأوقعها على غير ذلك ، إما تشبيهاً وإما لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه .

ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام ، كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة ، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل لا يصلح ردها إلى اللغة ، ولا وجه لنسبتها إلى واضعها ، لأنَّ التأليف هو إسناد فعل إلى إسم أو اسم إلى اسم ، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم ، فلا يصير ضرب خبراً عن زيد بوضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات الضرب فعلاً له

وهكذا « ليضرب زيد » لا يكون أمراً لزيد باللغة ولا (اضرب) أمراً للرجل الذي تخاطبه وتقبل عليه من بين كل من يصح خطابه باللغة ، بل لك أيها المتكلم ، فالذي يعود إلى واضع اللغة أن (ضرب) لإثبات الضرب وليس لإثبات الخروج ، وأنه لإثباته في زمان ماض وليس لإثباته في زمان مستقبل ، فأما تعيين من يثبت له فيتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين والمعبرين عن ودائع الصدور ، والكاشفين عن المقاصد والدعاوى ، صادقة كانت تلك الدعاوى أو كاذبة ، ومجراة على صحتها ، أو مزالة عن مكانها من الحقيقة وجهتها ، ومطلقة بحسب ما تأذن فيه العقول وترسمه ، أو معدولاً بها عن مراسمها نظماً لها في سلك التخييل ، وسلوكاً بها في مذهب التأويل » ...

وجاء في « فصل في الفرق بين التشبيه والاستعارة » ص : ٢٧٨ ما يأتي :

إن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما ، كان ذلك على ما مضى من الوجهين : (أحدهما) أن يسقط ذكر المشبه من البيْن حتى لا يعلم من ظاهر الحال[1] أنك أردته ، وذلك أن تقول : « عنَّت لنا ظبية » وأنت تريد امرأة ، « ووردنا بحراً » وأنت تريد الممدوح ، فأنت في هذا النحو من الكلام إنَّما تعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم موضوع له في أصل اللغة بدليل الحال أو إفصاح المقال بعد السؤال ، أو بفحوى الكلام وما يتلوه من الأوصاف ، مثال ذلك أنك إذا سمعت قوله :

تَرَنَّحَ الشَّـــــرْبُ واغْتـــــالتْ حُلومَهُمُ
شَمْسٌ تَرَجَّـــــلُ فيهمْ ثُمَّ تَرْتَحِـــــلُ[1]

استدللت بذكر الشرب واغتيال الحلوم والارتحال ، أنه أراد قينة[2] ، ولو قال

■ أثبت الجرجاني من خلال كتابيه : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » أن إعجاز القرآن لم يكن « بالصَّرْفة » كما زعم « إبراهيم النظّام » ؛ وإنما لما يتضمنه كتاب الله من بلاغة وفصاحة وروعة في الأسلوب والمعنى مما ليس في قدرة البشر . ■

■ كتاب « أســرار البلاغــة » كتاب جامع لما وصل إليه علماء البلاغة قبل « عبد القاهر » من قواعد وأحكام ، مع ما أضافه الإمام « الجرجاني » وأقرّه واستحسنه .. ولا يزال مرجعاً هاماً في موضوعه حتى اليوم .. ■

ترجلت شمس ولم يذكر شيئاً غيره من أحوال الآدميين لم يعقل قط أنه أراد امرأة إلَّا بإخبار مستأنف أو شاهد آخر من الشواهد ، ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة ، كما صَحَّ أن عدي بن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ ... ﴾ وحمله على ظاهره ، فقد ورد أنه قال : لما نزلت هذه الآية أخذت عقالاً أسود وعقالاً أبيض ، فوضعتهما تحت وسادتي فنظرت فلم أتبين ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « إنَّ وسادك لطويل عريض ، إنما هو الليل والنهار »[٩]

(والوجــه الثاني) أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به ، فتقول : زيد أسد ، وهند بدر ، وهذا الرجل الذي تراه سيف صارم على أعدائك . وقد كنت ذكرت فيما تقدم ، أن في إطلاق الاستعارة على هذا الضرب الثاني بعض الشبهة ، ووعدتك بكلام يجيء في ذلك وهذا موضعه ... » .

هكذا نرى أن عبد القاهر قد سلك في كتابه مسلكاً قوياً ، يعتمد على إثبات الرأي ، والإلحاح عليه وتدعيمه بالشواهد وتحليلها لتأكيد الفكرة ، وجعلها سائغة مهضومة ، لدى الباحث أو القارىء ، إلى جانب تناوله للموضوع الذي هو بإزائه من كل جوانبه وبكل مظاهره والإفاضة في الحديث إن لزم ذلك لزوماً لا مفرّ منه ولا مهرب ...

الإمام عبد القاهر قديماً وحديثاً

لقب عبد القاهر الجرجاني بالنحوي ، أو إمام النحاة ، لما قدم من مجهودات عظيمة في وضع قواعد النحو وجمعها وترتيبها واستخلاصها واستنباطها ، مما يجعله أهلاً لهذا اللقب الجليل ، وبما أن إعجاز القرآن وإقراره ، هو الحافز الذي حفزه إلى خوض غمار البلاغة ، وسبر غورها ، والبحث عن أسرارها ، فقد استطاع أن يستنبط منها الكثير لما يحمله القرآن من بلاغة وفصاحة وروعة في الأسلوب والمعنى ، مما ليس في قدرة البشر . كما أن رغبته في الرد على أصحاب مذهب الصَّرفة قد كان له عظيم الأثر في بحثه عن أسرار البلاغة لإثبات إعجاز القرآن الكريم وتبيان وجوهه ومواقعه . هذا وقد كللت بحوثه بنجاح كبير ، حتى استحق بلا مراء لقب إمام البلغاء ، إلى جانب لقب النحوي أو إمام النحاة . وليس هذا الكلام أو هذا الحكم من قبيل التحيز أو الإعجاب ، وإنما هو قبس مما أقرّ به أهل الأدب والعلم ممن أتوا بعد عبد القاهر ، وإليك ـ أيها القارىء الكريم ـ بعضاً من أقوالهم :

يقول الإمام السيوطي : « كان من كبار أئمة العربية والبيان » .

وقال عنه الأنباري : « كان من كبار النحويين » .

أما السبكي فيقول : « صار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات ، مع الدين المتين والورع والسكون » .

ويقول عنه ابن شاكر الكتبي : « كان من كبار أئمة العربية » ، وابن القاضي شهبة : « إن له فضيلة تامة في النحو » ... هؤلاء ممن شهدوا لعبد القاهر بإمامة النحو والبلاغة والبيان والعربية ، وتبعهم في ذلك من لفّ لفهم وسلك طريقهم .

اهتم به كثير من الباحثين والدارسين والمحققين المعاصرين ، وكان أوّل من عني بكتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، الإمام محمد عبده ، وقرأهما في الأزهر دروساً متتالية ، وعلّق عليهما وقدم لهما ، وطبع كتابه (العوامل المائة في النحو) في مطبعة بولاق ، ولم تقتصر دراسة مؤلفات عبد القاهر وطبعها على البلاد العربية ، بل تجاوزتها إلى الهند ، حيث قام الأستاذ عبد العزيز الميمني بعليكرة ، بإخراج كتابه « المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام » . كما اهتم بدراسة مصنفات عبد القاهر وحياته الدكتور درويش الجندي ، والدكتور مصطفى ناصف ، والأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي ، والدكتور بدوي طبانة ، والدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه القيم : « عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية » .

أمّا الدكتور طه حسين ، فإنّ ولوعه وافتتانه بثقافة اليونان والإغريق ، قد جرّه إلى هفوة كبيرة ، إذ أنه قطع بأن عبد القاهر الجرجاني تأثر بأرسطو ، وقد عبَّر عن ذلك في تقديمه كتاب « نقد النثر » المنسوب لقدامة بن جعفر ، المحقق من لدن عبد الحميد العبادي ، وعنوان المقدمة « تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر » ، وهذه الفكرة عبارة عن افتراء افتراه طه حسـين إذ أنها لم تثبت بثابت أو شاهد أو مثال ، وإنما هي خواطر تخامر الهوى فينطلق بما ليس حقيقة أو صواباً ، وهي هفوة مردودة على صاحبها ، ومما استخلصه في تمهيده هذا أن الإمام عبد القاهر قد وفق بين البيانين العربي واليوناني توفيقاً يدعو إلى الإعجاب !!! لأنه ألَّف كتابين معاً : « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » ، وهذا يدل إما على أن طه حسين لم يطلع على الكتابين معاً لأنه لا توجد فيهما أدنى إشارة أو اقتباس من البيان اليوناني ، أو أن هدفه التشكيك وإثارة الشبهات حول أصالة البيان العربي وسمو ينبوعه ... لجعله مقتبساً كله أو بعضه من بيان اليونان ، وهذا ما ينافي الصواب ويوافق الباطل ويوازي الجرأة على الحق والاستعلاء بالخطأ ولو كان مردوداً ...

وبعــد : فإن هذا المقال لا يعرض إلَّا صورة مبسطة جداً عن الإمام عبد القاهر الجرجاني وكتابه أسرار البلاغة ، وعن مكانة الإمام قديماً وحديثاً ، وعن دوره ومجهوداته الكبيرة وخدماته الجليلة للبلاغة العربية والنحو العربي وإنقاذه لهما وخاصة علم البيان الذي أصابه الضيم ، وخيم عليه الظلام ودب فيه الانحلال أكثر من غيره ، فلما جاء عبد القاهر أحياه بعد موته وأنقذه من براثن الاندثار وكذلك الشأن بالنسبة للنحو : فقد أزال عنه الجفاء والغلظة وألبسه ثوباً جديداً ، إلى جانب خدمته الجليلة للإسلام والقرآن ، إذ تمكن من أن يرد على أصحاب مذهب الصَّرفة ، ويثبت إعجاز القرآن ، وكذا خدمته للنقد الأدبي وتسهيل طريقه للناقدين على هدى من المباحث البلاغية .

فرحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عنَّا خير جزاء .. والله الهادي إلى سواء السبيل .

المراجــع والهــوامش

(١) ما بين عارضتين المقصود به إبراز رحلة علم البديع ولو بعد عبد القاهر .

(٢) راجع كتاب (عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية) ص : ٧ . تأليف : الدكتور أحمد أحمد بدوي .

(٣) المرجع السابق ص : ٣٠١ .

(٤) المرجع السابق ص : ٣٠٣ بتصرف .

(٥) كان أكثر نقله عن أستاذه القاضي الجرجاني والجاحظ وسيبويه ...

(٦) أي من أول الأمر وبمجرد اللفظ .

(٧) الشَّرْب بالفتح جماعة الشاربين ، ترجلت الشمس ارتفعت ، والمقصود تظهر ويسطع ضَوْؤها .

(٨) القينة : المغنية والعازفة .

(٩) الحديث في الصحيحين وغيرهما ولفظه « إن وسادك لعريض » وفي مسلم « وسادتك » وهي أخص إنما : « هو سواد الليل وبياض النهار » .

القاضي عياض وكتاب: الشفا



عالم وكتاب

■■ من خلال فصول الكتاب، عرضاً وترتيباً وفكرة، نشاهد بوضوح الاتجاه المنطقي في عرض الفكرة وما يتعلق بها من آراء وأقوال، ثم في مناقشة هذه الأقوال والآراء مناقشة هادئة تظهر عليها روح القاضي الهادئة وأفكاره المنظمة، وعندما نصل إلى نهاية كل فصل نشعر بوضوح أننا في محكمة عادلة يهيمن عليها فكر واعٍ حصيف وقلب مدرك حساس ■■

حياته

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصُبي .. إذ يرتفع نسبه إلى يحصب بن مالك بن يزيد، ويحصُب هو اخو ذي اصبح الحارث بن مالك بن زيد الذي ينتهي إليه نسب الإمام مالك بن انس الأصبحي، وبهذا يمت القاضي عياض إلى الإمام مالك بصلتين:

صلة القرابة والانتساب إلى قبيلة حمير من عرب اليمن.

وصلة المذهب المالكي الذي يتبعه سكان المغرب، وكان عياض من ابرز اعلامه.

كان منزل أجداده بمدينة بسطة التي تبعد مائة وثلاثة وعشرين كيلومتراً نحو الشمال الشرقي من مدينة غرناطة، ومنها انتقلوا إلى فاس، ثم إلى سبتة ..

ذكر ابنه في: «التعريف» أن سلفه قد استقروا بالقيروان، غير أنه لم يدْر هل كان استقرارهم بها قبل نزولهم بالأندلس أو بعده، ولا يعرف في عداد أهل العلم أحد من أجداده، غير أن بيتهم كان من البوتات النابهة **بفاس وسبتة**، وأن جده **عمرون** الذي انتقل من **فاس** إلى **سبتة** حوالي سنة (**٣٧٣هـ**) كان من أهل الخير، حافظاً للقرآن، حج إحدى عشرة مرة، واشترى أرضاً بسبتة من ماله الخاص، جعل جزءاً منها وقفاً على المسلمين يدفنون فيه موتاهم، وجزءاً بنى فيه مسجداً، وديارا جعلها حبساً على المسجد، وأنه لازم هذا المسجد للتعبد إلى أن مات سنة (٣٩٧هـ).

وَبسَبْتَةَ حسبما نقل القاضي بخطه، وعنه نقل ابنه محمد، وُلِدَ القاضي **عياض** في منتصف شعبان سنة: (٤٧٦هـ).

فما هي العوامل التي ساهمت في تكوين هذه الشخصية ذات الشهرة الفائقة في المشرق والمغرب؟

يمكن إجمال هذه العوامل في الأمور الآتية:

[١] بيئتـــــه:

فقد ولد بمدينة سبتة التي كانت تعيش نهضة علمية حافلة، «وكانت مركزاً تجارياً وصناعياً نشيطاً مفتوحاً على العالم الخارجي من جهة المبادلات الاقتصادية التي تؤدي إلى انتقال الرجال والأفكار وبالتالي إلى تلاقي الثقافات والحضارات»[١]، وقد لخص **ابن عذاري المراكشي** مزايا سبتة في عبارة جامعة فحواها «**ولم تزل دار علم**»، وهي عبارة تبرز المكانة الثقافية لهذه المدينة المغربية، التي عرفت وفوداً جمة من العلماء ورجال الفكر، يمكن تصنيفهم كما يلي:

● علماء ينتسبون إلى الأندلس وإفريقيا والمشرق، **لم يدخلوا سبتة ولم يقيموا فيها للتعليم**، بل ذهب السبتيون إليهم قصد التلقي وأخذ العلم، وقد ذكر القاضي عياض في كتابه «**الغنية**» أسماء هؤلاء، وتراجمهم، وأسماء شيوخهم ومنهم: **ابو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي الأندلسي دفين الإسكندرية سنة (٥٣٠هـ)**.

● **علماء ليسوا من اهل سبتة أصلاً، إلا أنهم اقاموا فيها مدة قصيرة أو طويلة** قصد التدريس فيها، وقد أخذ عنهم الطلاب واستفادوا منهم .. ومن بينهم:

ابو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأشبيلي دفين فاس (٥٤٣هـ)،

كان القاضي دائم الصلة بعلمه قراءة ودراسة وبحثا وتأليفاً لم يعرف قلمه الحياد السلبي بل كان ملتزما بقضايا أمتة ..

قال عنه القاضي عياض :

« واجتاز ببلدنا عند انصرافه من المشرق فكتبت عنه حينئذ فوائد من حديثه ، وناولني كتاب « المؤتلف والمختلف » للدارقطني » .

● علماء سبتيون أصلاً ، وكانت لهم اليد الطولى في ازدهار الحركة العلمية بسبتة ، وفي توسيع روابطها بالحواضر الإسلامية الشهيرة في أواخر القرن الخامس ، وأوائل القرن السادس الهجري ، ومنهم :

القاضي ابو عبد الله محمد بن عيسى التميمي المتوفى بسبتة سنة (٥٠٥هـ)[٣] .

[٢] ثقافتـــــه :

اتفق المترجمون له على أنه كان يتصف بالذكاء والفهم ، والحذق والفطنة والتيقظ ، والحرص على طلب العلم ، وقد هيأته هذه المواهب بالإضافة إلى الحركة العلمية التي كانت مزدهرة في سبتة مسقط رأسه إلى أن يكون له هذه الثقافة الشمولية ، التي تسمح له بأن يخوض في علوم كثيرة .. ففي بلدة سبتة حفظ القرآن الكريم بقراءاته السبع ، **وقرا اللغة العربية في كتاب « الفصيح لأبي العباس ثعلب » .. وكتاب « الأمالي » لأبي علي القالي ، و « الكامل » للمبرد ، و « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، ودرس قواعدها في كتاب : « الجمل » للزجاجي ، و « الواضح » لأبي بكر الزبيري ، و « الكافي » لابن النحاس ، و «المقتضب» للمبرد ، و «الإيضاح» لأبي علي الفارسي ..**

كما قرا أصول الفقه ، وأصول الدين ، وعلم الكلام على مذهب **أبي الحسن الأشعري** ...

وقد جعلته قراءاته المتنوعة ذا شهرة في علم الفقه على المذهب المالكي ، وعلم الحديث ، ويذكر المترجمون مشاركته في مختلف العلوم ، كالنحو واللغة والأدب والتاريخ والتراجم وكلام العرب ، وأيامهم وانسابهم ، مما جعل منه عالماً موسوعياً ذا باع طويلة وعارضة قوية في سائر المعارف الإنسانية التي كانت رائجة في زمنه ، ويؤيد ذلك مؤلفاته العديدة المتنوعة الأغراض[٣] .

وبهذه الحصيلة الأدبية واللغوية استطاع **عياض** أن يؤلف كتاب : **« المشارق » في تفسير غريب حديث الموطا والبخاري ومسلم** ، وضبط الفاظ هذه الكتب ، والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات فيها بالإضافة إلى تحقيق اسماء الرجال واختلاف الروايات ، ومثال ذلك يقال في شرحه لحديث أم زرع المسمى **« بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد »** ، وهو في مجلد مشحون بالفوائد اللغوية والأدبية ، والشواهد الشعرية للألفاظ الغريبة التي جاءت في الحديث المذكور .

هذا التعدد في المشارب ، وهذه الخبرة بالأساليب هيأت للقاضي أن يحقق أعماله الكبرى ، ويأتي بما عجز عنه غيره ، ولا سيما من المعاصرين له ، وهو في المجال الأدبي : لا يكتفي بالتأليف والمناقشة بل يتعدى ذلك إلى الممارسة الفعلية ، والتجربة العملية للإنتاج الأدبي ، غير أنه كناثر أكثر منه كشاعر ...

[٣] رحلتــــه :

رحل القاضي عياض إلى الأندلس ، وهو يتوخى من وراء رحلته هدفين اثنين :

(أ) التأكد من سلامة المنهج النقلي وكماله ، ويتطلب ذلك تصحيح المتون المروية ، والبحث عن أصولها ، ووصل أسانيدها بأصحابها .

(ب) تصحيح منهج التفكير ، وإقامة أسسه على قواعد ثابتة ، وتقول مصادر ترجمته : **« إنه عني في رحلته بلقاء الشيوخ ، ولم يكن غرض عياض الأساسي من رحلته ان يرى وجوه الشيوخ ، وإنما كان يُعنى بعد أن سلم له المنهج النقلي ،**

ان يقابل افكارهم فيزنها بما تعلمه في بلده من افكار .. وبعملية الاختبار والمفاضلة والتنقيح تم له بناء الجهاز النقدي ،

وتكاملت له اسس التفكير على اساس من المقارنة والاختيار ..

[٤] سلـــوكه :

يقول عنه ابنه محمد في «التعريف» :

« إنه لما ولي القضاء ، كانت الخاصة والعامة على غاية من محبته وإجلاله وإكباره ، وكان له من الهيبة والجلالة عند الأمراء والولاة ، ما جعلهم يقبلون قوله حين يطالبهم باداء حق من حقوق الرعية ، ويتنافسون في قضاء حقه ، والقيام بواجبه »[٤] .

وقد كان صلباً في الحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، مجداً في طلب العلم ، محرضاً على طلبه ، كثير التواضع ، يقبل على المساكين والفقراء فيسأل عن أحوالهم ، ويكثر الصدقة عليهم ، ويعاشر الناس بالأخلاق الحسنة ، والجانب اللين ، ويؤثرهم بما يجد[٥] .

وكان متين الدين ، مجتهداً ، كثير الصوم ، قوَّام الليل ، تالياً لجزء من كتاب الله عز وجل في الثلث الأخير من الليل ، لم يتركه ما قدر على تلاوته في أية حالة ، ملتزماً بحدود الشريعة ، سنياً في عقيدته ، شديد التمسك بها ..

◻ يجب على المسلم أن يتأدب بأدب القرآن في قولـه وفعله ومحاوراتـه ..

◻ كتاب الشفا نسيج فريد في عالم التأليف فهو ليس ترجمة وليس كتاباً مكملاً للسيرة . وإنما هو تجميع لمقومات الحياة النبوية في أنموذجها الكامل محمد ﷺ .

[٥] دفاعه عن الإسلام :

فإلى جانب قيامه بواجبه الديني الاجتماعي ، فقد كان دائم الصلة بعلمه ، قراءة ودراسة ، وبحثاً ، وتأليفاً ، ولم يعرف قلمه الحياد السلبي ، بل كان ملتزماً بقضايا أمته ، وقد واجهته في هذا الصدد مشكلة « **عصمة الإمام** » التي تبلور وجهة نظر الموحدين ، بينما عقيدته السنية لا تعترف بالعصمة لأحد من الناس غير الأنبياء .. لكن مهدي الموحدين صدم أهل المغرب في عقيدتهم السنية ، وسماهم مجسمين كافرين ، وقاتلهم قتال كفر ، وحصر التوحيد في أصحابه ، وأتباعه .

ولقد واجه المغاربة هذه الادعاءات بثورة عارمة في كل مكان ضد الموحدين ، وثارت سبتة ، وكررت العصيان بزعامة القاضي في وجه الموحدين .. ولم يتنازل عياض قط عن عقيدته السنية ، فغربه الموحدون عن وطنه ، فجزع - رحمه الله - لذلك ، وكان يقول لمواطنيه عند وداعهم بسبتة : « **جعلني الله فداءكم** » ويبكي[1] . وقد نغصوا عليه أواخر حياتـه إلى أن لقي ربـه في سابـع جمادى الآخرة أو في رمضان سنـة (٥٤٤هـ) .

موضوع الكتاب

يعد الكتاب من أشهر الكتب المنسوبة إليه ، والتي تناهـز الثلاثين ، ويقع في جزاين ، وقد ذُيِّل بحاشية تحت عنوان : « **مزيل الخفاء عن الفاظ الشفا** » .. **للعلامة احمد بن محمد الشمنسي** .. يبين المؤلف في المقدمة الأسباب التي دفعته إلى تاليفه ، وهي :

١ - تلبية رغبة من الح عليه في ذلك .
٢ - رجاء الثواب من الله سبحانه .
٣ - خوف عقاب الله لمن كتم شيئاً يعلمه . لقوله ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه ، الجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » ..

ثم يبين المؤلف لو أن الفرصة اتيحت له ليتفرغ لأعمال الخير ، معرضاً عن شواغل الدنيا فيقول :

« **لو اراد الله بالإنسان خيراً لجعل شغله وهمَّه كلـه ، فيما يحمد غداً ، ولا يذم محله فليس ثمة سوى نضرة النعيم ، او عذاب الجحيم** » . وينتقل المؤلف - بعد أن يبين عنوان الكتاب ، وهو : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وقد سماه الذهبي : الشفا في شرف المصطفى - إلى تقسيم الكتاب كما يلي :

* **القسم الاول** - في تعظيم العلي الاعلى لقدر هذا النبي ﷺ قولاً وفعلاً ، وفيه اربعة ابواب :

- **الباب الاول** : **في ثنائه تعالى عليه وإظهار عظيم قدره لديه .**
- **الباب الثاني** : **في تكميله تعالى له المحاسن خَلْقاً وَخُلُقاً .**
- **الباب الثالث** : **فيما ورد من صحيح الاخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته .**
- **الباب الرابع** : **فيما اظهره الله على يديه من الآيات والمعجزات .**

* **القسم الثاني - فيما يجب على الانام** من حقوقه عليه الصلاة والسلام ، وفيه اربعة ابواب :

- **الباب الاول** : في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته .
- **البـاب الثـاني** : في لـزوم محبته ومناصحته .
- **الباب الثالث** : في تعظيم امره ، ولزوم توقيره وبره .
- **الباب الرابع** : في حكم الصلاة عليه والتسليم .

* **القسم الثالث - فيما يستحيل في حقه** عليه الصلاة والسلام ، وما يجوز عليه وما يمتنع ، وفيه بابان :

- **الباب الاول** : **فيما يختص بالامور الـدينيـة ويتشبث بـه القول في العصمة .**
- **الباب الثاني** : **في احواله الدنيوية وما يجوز عليه من الأعراض البشرية .**

* **القسم الرابع** - في تصرف وجوه الاحكام على من تنقصه او سبه ﷺ ، وفيه بابان :

- **الباب الاول** : **في بيان ما هو في حقه سب ونقص من تعريض او نص ...**
- **الباب الثاني** : **في حكم شانئه ومؤذيه ومنتقصه وعقوبته..إلخ.**

ولنبدا باول عمل قام بـه القاضي عياض ، وهو إبراز مكانة الرسول ﷺ بعيداً عن كل انحراف منهي عنه ، ولقد تحدث في ذلك بتفصيل مستعرضاً كل

□ إن كتاب الشفا ليس تقريراً لواجبات اعتقادية فقط بل هو بيان لموقف كلامي أخذت التيارات الباطنية تجذب العامة إليه محمولة على مطامع سياسية وأهواء وصولية..

ما يتوفر عليه من حجج ، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي :

١ - كونه مختاراً من صفوة قومه ، ومَحَلُّ ثقة حتى تكليفه بالرسالة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ... ﴾ (التوبة : ١٢٨) ، وقرىء : من أَنْفَسِكُمْ .. وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٤) .

٢ - وصفه بالشهادة ، قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (الأحزاب : ٤٥) ، وقال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (النساء : ٤١) .

٣ - ملاطفة الله له ، وفي ذلك يقول القاضي عياض : **« يجب على المسلم ان يتادب بادب القرآن في قوله وفعله ومحاوراته ، وليتامل هذه الملاطفة العجيبة من الله سبحانه عندما تدعو الحاجة إلى تنبيه الرسول الكريم ﷺ ،** قال تعالى موجهاً الخطاب إلى الرسول ﷺ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة : ٤٣) ، وقال : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٤) ، قال بعض المتكلمين :

« عاتب الله الانبياء بعد الزلات ، وعاتب نبينا قبل وقوعه ، وهذه غاية العناية » .

٤ - اتصافه بالأخلاق الحسنة ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (ن : ٤) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : **« كان خُلُقُه القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه » .** وقال عليه السلام **« بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »** ، وقد أطنب القاضي عياض في بيان الصفات التي كان الرسول ﷺ يتحلى بها ، والتي يجب أن تكون رائدنا ونحن نؤمن به ونصدقه ...

إن قراءة متأنية للكتاب تجعلنا نستخلص الارتسامات الآتية :

١ - إن الكتاب رغبة ملحة في تعميق أصل الأصول في المذهب السني ، وهذا الأصل هو حياطة الشخصية النبوية بكل مظاهر الإجلال والكمال ، سواء الخُلُقية منها أو الخَلْقية ، ومن هنا يبدو كتاب « الشفا » نسيجاً فريداً في عالم التأليف ، فليس هو ترجمة ، وليس كتاباً مكملاً للسيرة النبوية ، وإنما هو تجميع لمقومات الحياة النبوية متمثلة في أنموذجها الكامل **محمد صلوات الله عليه .**

٢ - إنه التزام من الكاتب دافع فيه في صمود عن موقفه ، رغم تعدد التيارات التي كانت تدعي المعرفة في منهجها الخاص دون سواه ، والتي عرفت اختلافات حادة ومتباينة ، فمنها من أخذ بالمعرفة الشرعية وحدها ، وهي المستمدة من الوحي ، ومنها من ادعى المعرفة العقلية وحدها ، وهي المستمدة من الفلسفة ، ومنها من ادعى المعرفة اللدنية وحدها ، وهي المستمدة من الولي ، ومنهم من ادعى المعرفة الباطنية وحدها ، وهي المقتبسة من الإمام المعصوم ، وهذه الأخيرة هي التي كرَّس الكاتب كل إمكاناته لدحض ادعاءاتها نظراً لانتشارها في المغرب والمشرق على يد أمثال : **ابن الراوندي ، وابي عيسى الوراق .**

٣ - إنه رفض قاطع للفكرة المهدوية التي قامت عليها دولة الموحدين ، والتي ليست في جوهرها سوى تسوية الإمام المهدي (المعصوم) بالنبي المعصوم .

٤ - إنه ليس تقريراً لواجبات اعتقادية وأخلاقية تجب في حق الرسول ﷺ فحسب ، بل هو بيان لموقف كلامي ، أخذت التيارات الباطنية تجذب العامة إليه ، محمولة على مطامع سياسية وأهواء وصولية[7] .

٥ - إنه دعوة إلى الوحدة الإسلامية ، وحدة المشارب والرؤى والأهداف ، ومحاربة للتفرقة البغيضة في جميع أنواعها ، استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) ، وقول الرسول الكريم ﷺ :

« تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » ..

الهوامش :

(١) المناهل العدد ٢٦ صفحة ١٣ خاص بمدينة سبتة .
(٢) المرجع نفسه ، ص : ٥٠ .
(٣) المناهل العدد : ١٩ ص : ٤٨ .
(٤) المرجع نفسه ص : ٢٥ .
(٥) التعريف لابن القاضي عياض محمد ص : ١٢٨ .
(٦) المرجع السابق نفسه ص : ١٣١ .
(٧) المناهل العدد ١٩ ص : ٣٨٦ مقال للدكتور محمد الكتاني .



الشريف الإدريسي

وكتابة نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

عالم وكتاب

■■ رحالة عربي ، وعالم جليل من علماء الجغرافيا ، عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) قضى أغلب حياته في بلاط الملك روجر الثاني ملك صقلية مكباً على الدرس والبحث حتى أخرج للعالم موسوعة قيمة في علم البلدان سماها « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » لا تزال تشغل بال العلماء والمفكرين حتى وقتنا هذا .. ■■

بقلم الدكتور : أنور عبد العليم

نشأته وحياته

ذلك هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف باسم « الشريف الإدريسي » ولد ببلدة سبتة (Cueta) من ثغور المغرب في بيت ملك ودين .

تلقى الصبي تعليمه على الطريقة الشائعة في المغرب على عصره وهي حفظ القرآن الكريم والمتون وأشهر القصائد ثم انتقل إلى قرطبة بالأندلس لإتمام دراسته على أساتذتها المشهورين وتخصص في الجغرافيا والطب . وقد كانت الأندلس في ذلك الوقت من ممالك المغرب .

كان الإدريسي ولوعاً بالأسفار منذ الصغر فقيل إنه قام بسلسلة من الأسفار ولما يزل في السادسة عشرة من عمره : فطاف ببلاد الأندلس وتجول في موانيء البحر المتوسط . ثم زار مصر والشام وآسيا الصغرى وسنه ثمانية عشر عاماً . كما زار سواحل المحيط الأطلسي المعروفة على وقته .

بعد أن استولى روجر الأول ملك النورمان على جزيرة صقلية عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) بعد حروب طويلة ومناوشات لاهلها من البيزنطيين وفتن داخلية انتهى حكم المسلمين لها والذي دام (٢٦٦) سنة على وجه التحديد ؛ وفي عهد روجر الثاني الذي كان مولعاً بالعلوم ، وبعلم الجغرافيا بالذات ، كانت دعوته للشريف محمد الإدريسي من أجل الإقامة في صقلية ، واستجاب الإدريسي لتلك الدعوة واقام في الجزيرة .

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

يقول الإدريسي في سبب تاليفه لهذا السفر الجغرافي الممتع : إن الملك روجر الثاني احب أن يعرف بلاده ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً .. وما يخصها من البحار والخلجان مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتعلمون واثبتها في الدفاتر المؤلفون من أمثال المسعودي والجيهاني ومحمد الحوقلي البغدادي ، واليعقوبي ... إلخ » .

ولذلك فقد انتخب الإدريسي اناساً يثق بهم وبعثهم إلى أقاليم الشرق والغرب والشمال والجنوب ومعهم مصورون ليصوروا ما يشاهدونه عياناً وأمرهم بالتقصي والتمحيص والاستيعاب . وكان هو نفسه يناقشهم ويمحص اقوالهم ويقارن أشكالهم ثم يثبتها . كما اهتم الإدريسي كذلك بتدوين الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأقاليم المعمورة ، فكان بذلك من أول من فطن إلى إيفاد بعثات الكشف العلمي كما نعرفها اليوم إلى المناطق النائية أو المجهولة .

ويعتبر الإدريسي بهذا العمل أيضاً أول جغرافي يقوم بمشروع علمي كبير يشمل جميع اقطار المعمورة بما فيها شمال أوروبا وبلاد الافرنج بعد أن كانت أعمال الجغرافيين العرب تهتم بالعالم الإسلامي وحده .

وقد تضمن الكتاب وصف البلاد ومواقعها والأرض وتضاريسها وبحارها وانهارها وغلاتها وتجارتها من صادرات وواردات ويسميها « الإدريسي «التجارات» إلى جانب العجائب التي تنسب إليها أو تذكر عنها ومكانها من الاقاليم السبعة واحوال أهلها وهيئاتهم ومذاهبهم وزيهم ولغاتهم ، فجاء بذلك معبراً إلى حد كبير عن أحوال الأرض المعمورة وقت تاليفه سنة ٥٤٨هـ .

الأقاليم السبعة

درج أكثر الجغرافيين العرب على تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم مناخية على شكل احزمة أفقية تبدأ من خط الاستواء وترتب متوازية من الجنوب إلى الشمال . وقد اتبع الإدريسي التقسيم نفسه إلا انه جعل الأقاليم تبدأ من المغرب بدلاً من المشرق اي تبدأ من بحر الظلمات وجعل الإقليم الأول يبدأ من خط الاستواء إلى خط عرض ٢٢° شمالاً (مدار السرطان) واشتمل كل إقليم من الستة الباقية على ست درجات وبذلك ينتهي الإقليم السابع عند درجة



■ الإدريسي يشرح تفاصيل كرته الأرضية الفضية للملك روجر الثاني .. ■

٥٩° شمالاً ، وقد اضاف إليه الإدريسي خمس درجات أخرى فاصبحت نهاية هذا الإقليم هي درجة ٦٤° شمالاً . ومن هذا الخط إلى القطب غير مسكون بسبب البرودة ، كما اعتبر الإدريسي المنطقة التي تمتد جنوب خط الاستواء هي الأخرى غير مسكونة بسبب الحرارة .

خارطات الإدريسي

وضح الإدريسي كتابه بسبعين خريطة للعالم المعروف على وقته تبين مواقع المدن والبحار والجبال والأنهار . وقد احصيت أعداد المدن التي وردت على خرائطه فوجدت (٢٠٦٤) اسماً منها (٣٥٦) مدينة بأفريقيا ، (٧٤٠) مدينة بأوروبا ، (٩٥٩) مدينة بآسيا .

وقد استخدم الإدريسي في عمل هذه الخرائط لوحاً عليه خطوط الطول والعرض سماه « لوح الترسيم » أثبت عليه مواقع المدن والمعالم الجغرافية ، وكان يستخدم الفرجار وأدوات أخرى في رسوماته إلى جانب معرفته بالجداول الفلكية واستخدام الاسطرلاب واعتماده ايضاً على المشاهدة والمعاينة . وبهذا العمل استطاع الإدريسي أن ينقل علم الخرائط (الكروتوجرافيا) من الاهتمام بمملكة الإسلام وحدها إلى الاهتمام بالعالم كله ، ولذا يطلق على خرائط الإدريسي اسم « أطلس العالم » بحق . هذا وقد استعان الإدريسي على إنجاز بعض خرائطه وخاصة عن البحر المتوسط بالخرائط الملاحية المعروفة باسم « مرشد الموانيء » أو « البورتولان » « Portulan » .

كرة أرضية من الفضة

وبعد أن اتم الإدريسي الخرائط السبعين المفصلة لأقاليم الأرض السابق ذكرها قام بصنع كرة من الفضة للأرض وضح عليها مواقع البلدان والمدن والجبال والبحار والأنهار . ويذكر هو نفسه أن كمية الفضة التي استخدمت في صنعها بلغت أربعمائة رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم . ويقدر عالم إيطالي مقدار الفضة التي استخدمت في صنع مثل هذه الكرة بما زنته (٤٤٨٠٠) درهم (نحو ١٥٠ كيلوجراماً) . ولم تكن هذه الكرة أول كرة فضية جغرافية فقد سبقه في ذلك عبد الرحمن الصوفي عالم الفلك الشهير الذي صنع كرة فلكية لقبّة السماء ، كما صنع البيروني كرة أخرى للأرض في القرن الخامس الهجري ؛ وعن هذه الكرة الفضية صنع الإدريسي خريطة العالم المشهورة وصدر بها كتابه ، وفيها تبدو خطوط العرض على شكل دائري وليست خطوطاً مستقيمة مما يرجح أنها ماخوذة من الكرة الفضية للعالم . وفي هذه الخريطة تبدو سواحل البحر الأبيض المتوسط أقرب للواقع من الخرائط السابقة للجغرافيين العرب ، كما أن المدقق في هذه الخريطة يرى الجزر التي أثبتها الإدريسي في المحيط الأطلسي ولم يثبتها أحد من قبله مما يدل على علمه بها وبسواحل المحيط جنوبي مراكش . وبهذه المناسبة يذكر الإدريسي قصة الإخوة المغرورين في كتابه وهي من المحاولات الملاحية العربية لاستكشاف المحيط الأطلسي المعروف على وقته ببحر الظلمات ؛ وقد أورد هذه القصة غير الإدريسي من المؤلفين القدامى مثل : المسعودي وابو حامد الغرناطي والبكري والقزويني .

جغرافية الإدريسي في نظر العلماء

يقول الدكتور حسين مؤنس في تعليقه على قيمة كتاب الإدريسي « نزهة المشتاق » : إن هذا العمل يمثل القمة التي وصل إليها علم الجغرافيا في الشرق والغرب على حد سواء ، فقد أخذ من علم اليونان خلاصة ما فيه ، وأخذ عن أصحاب مدرسة الجغرافية الفلكية زبدة آرائهم وطور صناعة الخرائط والأطالس واعتبرها أساس علم الجغرافيا وانتقل بأطلس الإسلام إلى أطلس العالم . ويشارك مؤنس في هذا الرأي العالم الإيطالي اماري « Amari » الذي يقول : « ... إن عمل الإدريسي يحتل مكان الصدارة بين كل ما ألف الناس في الجغرافيا في العصور الوسطى » .

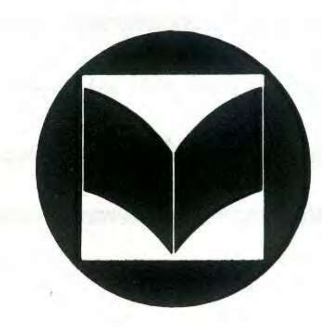
أما العالم الفرنسي (رينو Renaud) فيقول عن الإدريسي : « إنه استرابو العرب » (استرابو Strabo عالم يوناني جغرافي عظيم الشان من مدرسة الاسكندر القديمة) ، وتضيف دائرة المعارف الفرنسية بأن كتاب الإدريسي هو أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب .. وما يحتويه من الوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة جغرافية من القرون الوسطى » .

هذا وقد عارض ابن خلدون نظرية الإدريسي القائلة بخلو المنطقة الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء من العمران لفرط الحر ويشاركه في ذلك ابن رشد (المتوفى عام ٥٩٥هـ) الذي يقول : إن النصف الجنوبي للأرض موافق تمام الموافقة لنصفها الشمالي . كما انتقد أبو الفدا (المتوفى عام ٧٣٣هـ) الإدريسي لعدم ذكره الأطوال والعروض . والأرجح أن الإدريسي كان يثبتها على « لوح الترسيم » ولكن لا يضعها في الخرائط الصغيرة .

تحقيق جغرافية الإدريسي

طبع كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسي لأول مرة في فلورنسة بإيطاليا عام ١٥٩٢م وتعد هذه الطبعة من أقدم الطبعات الأوروبية بالحروف العربية ، ثم ظهرت بعدها ترجمات كثيرة ومختصرات باللغات الأوروبية المختلفة .

وقد استرعت المعلومات التي وردت عن دول أوروبا وغيرها في كتاب الإدريسي نظر علمائها فقاموا بدراسات كثيرة حولها ، ومنها ما نشره علماء الألمان تحت عنوان « أفريقيا في كتاب الإدريسي » الذي صدر عام ١٧٩٦م وما نشره الإسبان عن بلادهم عام ١٨٨٥م أو ما نشر عن إيطاليا وصقلية وعن وضع مدينة تريستا ، وكذلك ما كتبه المستشرقون عن النمسا وروسيا وعن البلقان والدانوب وما ورد عن روسيا وتجارتها في كتاب الإدريسي ، وحتى المؤلفون من فنلندا والسويد وأهل صقلية خاصة اهتموا بتحقيق ما ورد عن بلادهم في هذا الكتاب : كالشجاعة والحرية والكرم ، والنساء المتحفظات ، بل إنهم شعب يختلف اختلافاً كبيراً عن سائر شعوب إيطاليا . كما قام المؤرخ السعودي حمد الجاسر بتحقيق الأسماء التي وردت في كتاب الإدريسي خاصة بجزيرة العرب .







تأليف :

أبو المظفر
أسامة بن مرشد
ابن علي بن مقلد
ابن نصر بن منقذ
الكناني

عرض وتقديم :

الدكتور
عبد القدوس
أبو صالح

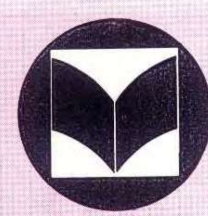
لعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إن كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ من أوائل كتب التراث القيمة ، وهو كتاب جدير بأن يوضع بين أيدي شبابنا وفتياتنا ، لأنه يمثل الفروسية الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ويقدم للأجيال المعاصرة صورة واقعية صادقة عما كان عليه أجدادهم من رجولة تامة وشجاعة فائقة ، وما كان لهم من مدنية زاهرة وحضارة شامخة ، مما جعلهم يشرفون على الغزاة الصليبيين من قمم عالية ، ويدحرون حملاتهم المتلاحقة ، ويستنقذون القدس من رجسهم ، ويطهرون البلاد منهم بعد أن أقاموا دويلات متعددة فى نحو قرنين متتاليين .

ترجمة أسامة :

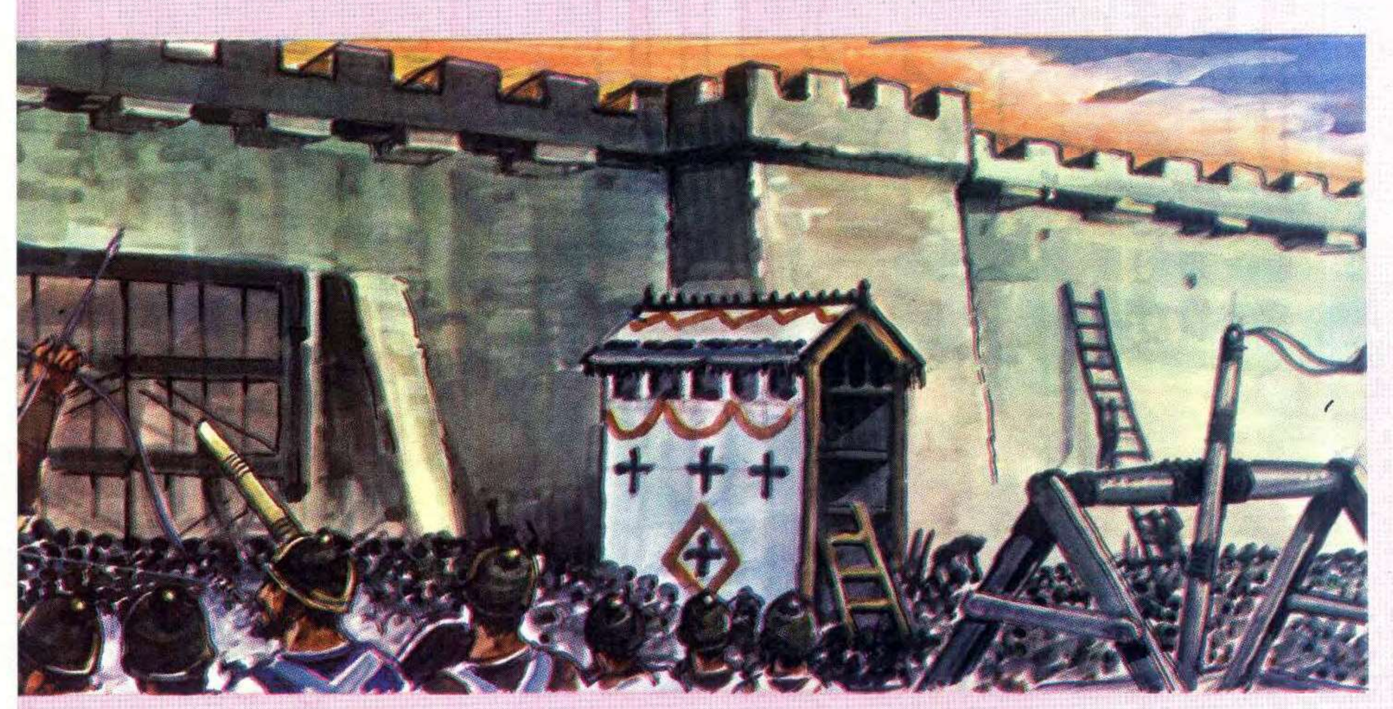
وصاحب كتاب الاعتبار أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني . وبنو منقذ : أسرة مجيدة ، أكثر رجالها بين فارس شجاع أو شاعر أديب ، كانوا يملكون حصن شيزر القريب من مدينة حماة ، وكان مطمعاً للمحاربين من عرب بني كلاب أو الاسماعيلية أو الصليبيين .

وقد ضرب الزلزال حصن شيزر سنة ٥٥٢ هـ ، وقتل أكثر بني منقذ تحت الأنقاض ، ونجا أسامة وإخوته لأن عمهم الذى صار إليه الحكم بعد والد أسامة أخرجهم من الحصن ظلماً .





• كتاب « الاعتبار » من اقدم كتب الترجمة الذاتية ، لا في الأدب العربي فحسب ، بل في الآداب العالمية .



وكانت ولادة أسامة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة قبيل مجيء الحملة الصليبية بسنتين فقط ، وكان أبوه قد رباه على الشجاعة ، وعني بتعليمه عناية فائقة ، حتى غدا فارساً بطلا ، وشاعراً أديباً ، وكان صلاح الدين الأيوبي شغوفاً بشعره ، يفضل ديوانه على سائر دواوين عصره .

ولما أخرج أسامة من حصن شيزر أقام بدمشق نحواً من ثماني سنوات في رعاية صديقه معين الدين أنر ، ثم نبت به دمشق ، فقصد مصر ، حيث أكرمه الحاكم الفاطمي الحافظ لدين الله ، ثم حدثت فتن اتهم فيها أسامة ، فعاد إلى دمشق ، ثم انتقل إلى حصن كيفا ، وهو يقع قرب جزيرة ابن عمر على نهر دجلة .

وما لبث صلاح الدين الأيوبي أن استدعاه إلى دمشق بعد أن ملكها ، وبالغ في إكرامه ، وأخذ بنصائحه ، واتخذ ابنه مرهفاً جليساً له وأنيساً بعد أبيه .

مات أسامة بدمشق سنة أربع وثمانين وخمسمائة بعد أن عمر ستاً وتسعين سنة ، ودفن شرقي جبل قاسيون ، وشيعه السلطان صلاح الدين وعبر عن حزنه عليه بقوله : «مات اليوم شاعر الأمة وفارسها» .

وقد خلف أسامة عدداً من المؤلفات التى طبع معظمها ، منها كتاب لباب الآداب ، وكتاب البديع في نقد الشعر ، وكتاب العصا ، وكتاب المنازل والديار وكتاب القلاع والحصون ، وكتاب أخبار النساء ، مع ديوان شعر متوسط الحجم .

وصف الكتاب

أما كتاب الاعتبار فقد حققه فيليب حتي ، وطبع بجامعة برنستون في الولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ عن نسخة فريدة محفوظة في مكتبة الأسكوريال بأسبانيا .

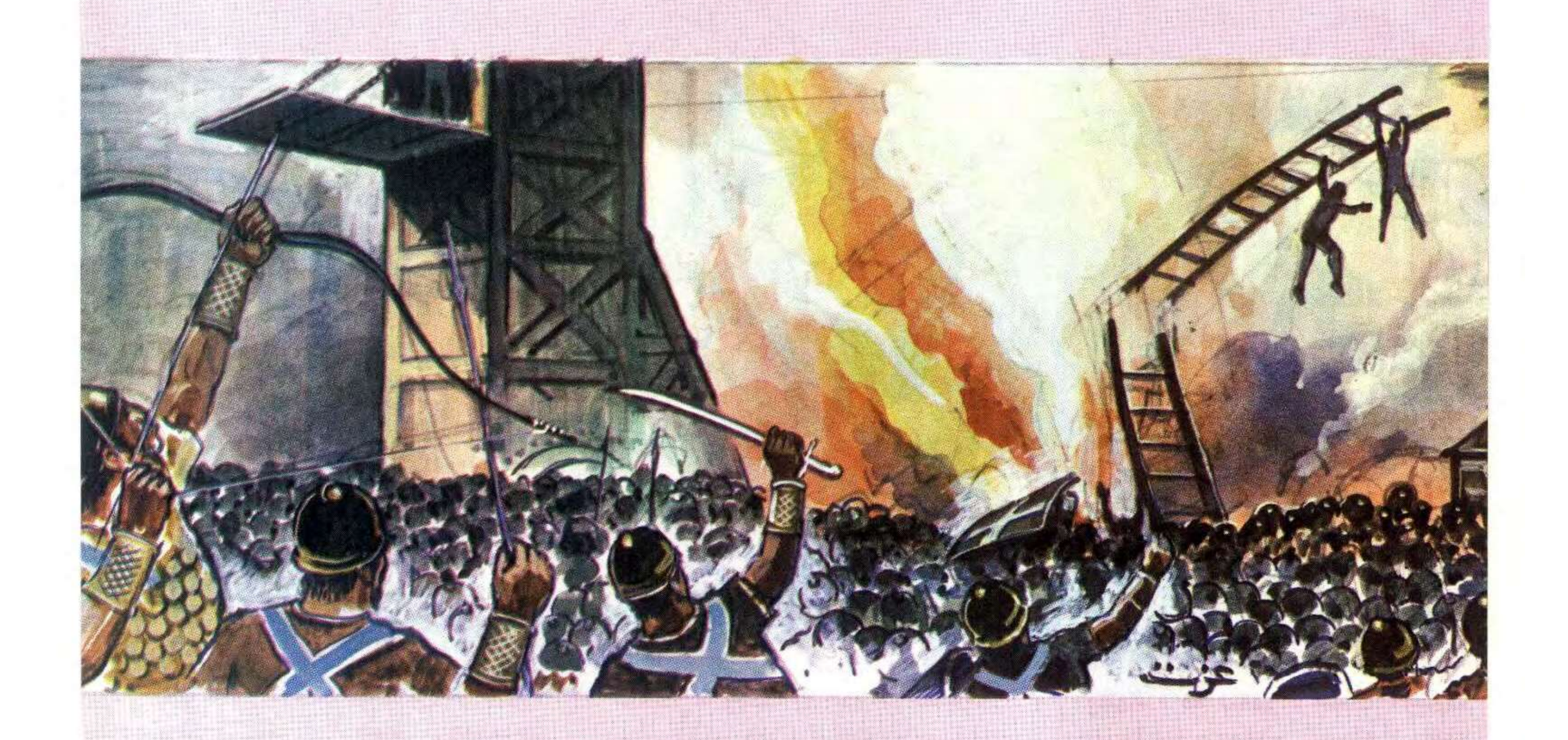
يقع الكتاب في نحو أربعين ومائتي صفحة ، وتتصدره مقدمة للمحقق تحدث فيها عن حياة أسامة وشخصيته ومضمون كتابه ، ثم تتوالى أبواب الكتاب الثلاثة ، وعنوان الباب الأول منها حروب وأسفار وعنوان الثاني : نكت ونوادر ، وعنوان الثالث : أخبار الصيد .

وهذا التبويب من عمل المحقق وهو تبويب اجمالي إذ تتداخل الموضوعات تداخلا عجيباً ، وتختلط الأخبار حتى يبدو التبويب عملا لا ضرورة له .

ولعل من أسباب التداخل والاختلاط أن الكتاب سيرة ذاتية ، كتبها صاحبها قبيل موته ، وقد علت به السن ، فكان يدون ذكريات حياته الحافلة على طريقة التداعي والاستطراد ، ومع ذلك فقد جاء كتابه بالغ الروعة ، حافلا بالأخبار الشائقة التي يبدو فيها طابع الصدق والأمانة والواقعية .

ومن هنا عد هذا الكتاب وثيقة عن عصر

• « الاعتبار » يمثل الفروسية الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ، ويقدم للأجيال المعاصرة صورة واقعية صادقة عما كان عليه اجدادهم من رجولة وشجاعة



أسامة ، وعن الفترة التى شهدها من الحروب الصليبية ، إلى جانب ما أجمع عليه الدارسون من أن كتاب الاعتبار من أقدم كتب الترجمة الذاتية لا فى الأدب العربى فحسب ، بل في الآداب العالمية .

وقد جاء أسلوب الكتاب سهلا بعيداً عن تكلف السجع وغيره من قيود الصنعة التي كانت تغل أسلوب العصر ، بل لقد جاءت لغة الكتاب قريبة الى اللغة اليومية الشائعة آنذاك ، وهي ما نزال نستعمل كثيراً من ألفاظها وتعابيرها في بلاد الشام .

مقتطفات من الكتاب :

وسنعرض فيما يلى طائفة من أخبار الكتاب ، نركز فيها الاهتمام على جانبين فقط :

أولهما تلك الأخبار التي تدل على ملامح التربية الاسلامية في ذلك العصر ، وهي تربية تعنى بالقرآن ، وتعي أثره في النفوس ، كما تعنى ببث روح الشجاعة والاقدام .

والنوع الثانى تلك الأخبار التى تصور ما كانت عليه حضارة المسلمين من رفعة وشموخ أمام بدائية الصليبيين وجهلهم .

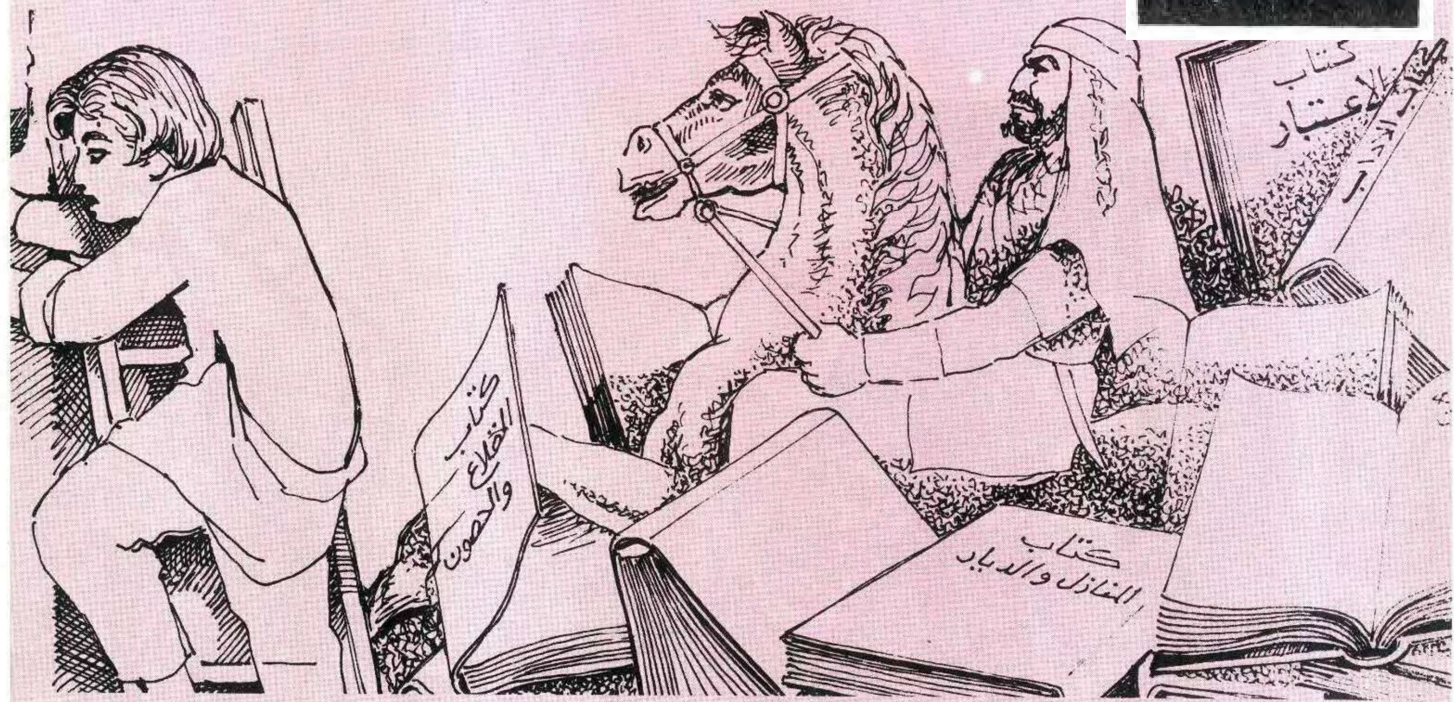
التربية الاسلامية :

يقول أسامة : «ومرة كنت معه – أي مع والده – رحمه الله – ، وهو واقف في قاعة داره ، وإذا حية عظيمة ، قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلماً كان في جانب الدار ، أسندته تحت الحية ، وصعدت إليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي ، وطرحتها على رقبة الحية ، وهي نائمة ، وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها – وخرجت التفت على يدي – إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار ، وهي ميتة» (الاعتبار ١٠٣) .

ويقول قبيل الخبر السابق : «وما رأيت الوالد – رحمه الله – نهاني عن قتال ، ولا ركوب خطر مهما كان يرى في وأرى من إشفاقه وإيثاره لي . ولقد رأيته يوماً ، وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الافرنج على قطيعة ، قطعها لحسام الدين تمرتاش بن إيلغازي رحمه الله ، فرسان افرنج وأرمن . فلما وفوا ما عليهم ، وأرادوا الرجوع إلى بلادهم أنفذ خيرخان صاحب حمص خيلا كمنوا لهم في ظاهر شيزر ، فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم وأخذوهم ، ووقع الصائح ، فركب عمي وأبي – رحمهما الله – ووقفا ، وكل من يصل إليهما قد سيراه من خلفهم وجئت أنا ، فقال أبي : اتبعهم بمن معك ، وارموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم . فتبعتهم ، وأدركتهم بعد ركض



- لم تقصر المرأة المسلمة في جهاد الصليبيين ، بل قامت بواجبها كاملا ودفعت الزوج والولد إلى ميادين إعلاء كلمة الله عز وجل



أكثر النهار ، واستخلصت من كان معهم ، واخذت بعض خيل حمص ، وعجبت من قوله : ارموا أنفسكم عليهم» .

ولننظر إلى حرص والد أسامه على تذكير أولاده بقراءة الورد القرآني في قوله «فيوم خروجه إلى الجبل لصيد الحجل ، وهو بعيد من الجبل ، يقول لنا إذا خرج إلى طريق الجبل : (تفرقوا كل من عليه قراءة يقرؤها ..) ونحن أولاده حفاظ القرآن ، فنفترق نقرأ ، حتى يصير إلى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد منا ؟ فاذا اخبرناه يقول : (أنا قرأت مائة آية أو نحوها) . وكان ـ رحمه الله ـ يقرأ القرآن كما أنزل» . (الاعتبار : ٢٠٩) .

ويتحدث أسامة عن نخوة والدته فيقول : «وفي ذلك اليوم فرقت والدتي ـ رحمها الله ـ سيوفي (وكزا غنداتي) ، وجاءت إلى اخت لي كبيرة السن ، وقالت البسي خفك وإزارك . فلبست ، واخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق ، واجلستها عليه ، وجلست إلى باب الروشن . ونصرنا الله سبحانه عليهم ، وجئت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف ، وعيب(الكزا غندات). قلت : ياأمي ! أين سلاحي ؟ . قالت : يا بني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا وما ظننتك سالماً .

قلت : فاختي أي شيء تعمل ها هنا ؟ قالت : يا بني ، أجلستها على الروشن ، وجلست براً منها . إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي ، فأراها قد ماتت ، ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين ماسورة . فشكرتها على ذلك وشكرتها الاخت ، وجزتها خيراً . فهذه النخوة اشد من نخوات الرجـــال» (الاعتبار : ١٢٤) .

ويتحدث عن نخوة النساء المسلمات عامة بقوله : «وشاهدت من نخوات النساء عجباً» (الاعتبار : ١٢٧) ويؤيد قوله هذا باخبار عديدة منها قوله : «..

انتقل علي عبد ابن أبي الريداء إلى خدمة توفيل الافرنجي ملك كفرطات ، فكان ينهض بالافرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين ، واخذ ما لهم ، وسفك دمهم ، حتى قطع سبل المسافرين ، وله امراة معه بكفر طاب تحت يدي الافرنج ، تنكر عليه فعله ، وتنهاه ، فلا ينتهي . فنفذت أحضرت نسيباً لها من بعض الضياع ، وأظنه أخاها ، وأخفته في البيت إلى الليل . واجتمعت هي وهو على زوجها على عبد ابن أبي الريداء فقتلاه ، واحتملا بجمع مالها ، وأصبحت عندنا بشيزر ، وقالت : غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر .. فأراحت الناس من هذا الشيطان ، ورعينا لها ما فعلت ، وكانت عندنا في الكرامة والاحترام» (الاعتبار : ١٠٨) ..

ويقول في خبر آخر : «وفي شيزر امراة من نساء أصحابنا يقال لها : نضرة .. خرجت مع الناس ، أخذت افرنجياً أدخلته بيتها ، وخرجت اخذت اخر أدخلته بيتها ، وعادت خرجت اخذت اخر فاجتمع عندها ثلاثة من الافرنج . فاخذت ما كان معهم ، وما صلح لها من سلبهم ، وخرجت دعت قوماً من جيرانها قتلوهم» (الاعتبار : ١٢٩) ..

بدائية الصليبيين وجهلهم :

اما بدائية الصليبيين

كتاب « الاعتبار » سيرة ذاتية ، كتبها صاحبها وقد علت به السن ، على طريقة التداعي والاستطراد ، فجاء بالغ الروعة حافلا بالأخبار الشائقة



وجهلهم فيتمثلان في جملة من الأخبار التي نكتفي منها بعرض أنموذج من محاكماتهم القضائية ، ومثالين من علمهم بالطب وممارستهم للجراحة .

يقول أسامة : «وشهدت يوماً بنابلس ، وقد أحضروا اثنين للمبارزة ، وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فاتهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : هو دل الحرامية على الضيعة .. فهرب ، فنفذ الملك ، فقبض أولاده فعاد إليه وقال :

انصفني . أنا أبارز الذي قال عني : إني دللت الحرامية على القرية .. فقال الملك لصاحب القرية المقطع : أحضر من يبارزه فمضى إلى قريته .. وفيها رجل حداد ، فأخذه ، وقال له : تبارز .. إشفاقاً من المقطع على فلاحيه ، لا يقتل منهم واحد ، فتخرب فلاحته . فشاهدت هذا الحداد ،

وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع ، يمشي ويجلس يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي النفس ، يزجر ، وهو غير محتفل بالمبارزة فجاء البسكند ، وهو شمنة البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ،

وجعل الناس حولهم حلقة .

والتقيا ، فكان الشيخ يلز ذلك الحداد ، وهو يتأخر حتى يلجئه الى الحلقة ، ثم يعود الى الوسط وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم . فطال الأمر بينهما ، والبسكند يستعجلهما ، وهو يقول :

بالعجلة . ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة ، وأعيا ذلك الشيخ . فضربه الحداد ، فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره . فبرك عليه الحداد ، يداخل أصابعه في عينيه ، ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه . ثم قام عنه ، وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا في رقبته في الوقت حبلا ، وجروه شنقوه . وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته ، وأركبه خلفه ، وأخذه وانصرف . وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله» (الاعتبار : ١٣٨) .

ويتحدث أسامة عن عجائب طبهم فيقول : «ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل اليهم طبيباً نصرانياً ، يقال له : ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ! ..

قال أحضروا عندي فارساً ، قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ، ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي ، فقال لهم : هذا ما يعرف شي يداويهم ... وقال للفارس : أيما أحب اليك .. تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة . قال : أحضروا لي فارساً قويا وفاساً قاطعاً . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها .. فضربه — وأنا أراه — ضربة واحدة ما انقطعت .. ضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ومات من ساعته .

وأبصر المرأة ، فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل . فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل في رأسها . فأخذ الموسى ، وشق رأسها صليباً ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس ، وحكه بالملح ، فماتت في وقتها .. فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : لا .. فجئت ، وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه» .



ابن طُفَيل وقصَّتُه "حَيّ بن يَقظان"

بالمركتاب

■■ ليس هنـاك من يستطيـع أن ينكـر - ولا حتى في الغـرب الـذي أعمـاه الحقـد والتعصـب - أن الحضـارة العربيـة الإسـلاميـة قـد أدّت للإنسانية أجلّ الخدمات عندما قدّمت للعالم ذلك العـدد الضخم من العلمـاء والفـلاسفـة الأفذاذ ، الذين كان لهم أبعـد الأثر في إثـراء وتشكيـل حركـة الفكر الإنسـاني العـالمي ، بـالإضافـة إلى دفعهم لمسيرة الجنس البشري خطوات وخطوات إلى الإمـام نحـو التقـدم والـرقي .. ■■

إن هؤلاء العلماء - خاصة في مجالَيْ الطب والفلسفة - سواء منهم من بزغت شمس نبوغه ، وتفجرت كوامن عبقريته في المشرق العربي أمثال : الكندي والفارابي وابن سيناء وابن الهيثم وابن مسكويْه والـرازي والبيروني ، أو في المغـرب العربي أمثال : ابن باجة وابن طفيل وابن رشد : ليعدون مصابيح مضيئة وعلامات بارزة في تاريخ امتنا العربية العلمي والفكري ، بما أبدعوه من مؤلفات ورسائل علمية وفلسفية : تركت بصمات واضحة على جبين الإنسانية ، لا يزال أثرها ممتداً إلى اليوم ، ولهذا فمن حقهم علينا أن نفخر ونعتز بجهودهم ، وندرس تراثهم ، ونحتفل بذكراهم .

وفي مقالتنا هذه سنحاول الإلمام بمنزلة فيلسوف عربي متعدد المواهب والملكات ، كان نابغة في الطب ، متعمقـاً في الفلسفـة ، متبحّـراً في الرياضيات ، علّامة في الفلك ، مالكاً لناصيتي الشعر والأدب . وهو أبو بكر بن طفيل : صاحب القصة الفلسفية الشهيرة « حي بن يقظان » التي ترجمت إلى العبرية ، واللاتينية ، والإنجليزية ، والألمانية والإسبانية والفرنسية والروسية ،ولقب صاحبها بالفيلسوف المعلم : لما أسهمت به قصته في تشكيل مرحلة هامة من مراحل تطور الفكر الإنساني العالمي .

حياتــه وعصــره

هو العلّامة الطبيب الفلكي الفيلسوف الوزير الشاعر الأديب العارف بالله أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي ، ثالث ثلاثة أشرقت بفضل جهودهم من جديد شمس الحكمة والتفكير الإسلامي في المغرب العربي ، بعد أن كانت قد جنحت إلى المغيب عن المشرق الذي ولدت فيه ، وهؤلاء الثلاثة الأفذاذ هم ابن باجة وابن طفيل وابن رشد .

وولد ابن طفيل في مدينة وادي آش القريبة من غرناطة : خلال العقد الأول من القرن السادس الهجري على أرجح الأقوال ، أي في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي ، وفي غرناطة تلقى علومه الأولى ؛ فأتم حفظ القرآن الكريم ، ودرس الحديث والفقه واللغة ، ثم انتقل إلى قرطبة وبعدها أشبيلية لدراسة الطب والفلسفة ، فبرع فيهما وبزّ أقرانه : حتى عد من الصفوة المثقفة ثقافة واسعة ، الملمّة إلماماً كبيراً بمعارف العصر وعلومه .

كانت البيئة العربية الأندلسية في ذلك الوقت لا تختلف في شيء عن البيئة العربية المشرقية ، ذلك « أن الفتح العربي للمغرب (والأندلس) لم يكن فتحاً عسكرياً بمقدار ما كان يحمل في طياته العقيدة واللغة والثقافة والفكر ، ويحمل معه مجموعة من المهاجرين العرب يقيمون في هذه البلاد ، لا إقامة مستعمر أو سيد أجنبي ، ولكن إقامة تعاون وتكامل في بناء المجتمع الإسلامي الجديد بكل ما يحفل به من قيم . وهكذا نجد أن الوافدين على المغرب مع الفتح الإسلامي اختلطوا بالسكان الأصليين عن طريق الزواج والعمل المشترك ؛ فأنتجوا مجتمعاً جديداً يختلف كامل الاختلاف عن المجتمع القديم ، وأدخلوا الدم الجديد والدين واللغة والثقافة العربية الإسلامية عن طريق الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - الذين أخذوا يفقهون الناس في قضايا الدين ، وينشرون القرآن وتعاليمه ، ونشـروا المفاهيم الإسـلامية الجـديدة . ومـع الفاتحين كان هناك جنود وموظفون وتجار ورجال أعمال ، ووفدت قبائل وعشائر عربية بدافع التطلع إلى العالم الجديد الذي فتحـه الإسلام ، ومن العناصر العربية التي دخلت المغرب مجموعات من قبائل معروفة منها : بنو هاشم ، وبنو تميم ، وبنو عديّ ، وبنو أسد ، وبنو سهم ، ومزينة ، وبنو سليم ، وضمرة ، وغطفان ، وأشجع ، وفزارة ، وبنو كعب ، وبنو حنيفة .. وأسماء بعض القبائل أو الانتساب إليها لا تزال موجودة إلى الآن »[1] .

وكانت الحياة الفكرية في المشرق والمغرب نهراً متصلاً بلا انقطاع ، لأن « شمس الفكر والروح الإسلاميين التي بزغت أول ما بزغت في المشرق العربي ، فملأت العالم نوراً وعرفاناً ، وأشاعت فيه الحركات الفلسفية الخصبة ، والعلمية المنتجة ،

بقلم : أنــــور جعفـــــــر

■ ابتكر ابن طفيل شخصية « حي بن يقظان » لتكون قناة توصيل لأفكاره وتأملاته . من هنا جاءت قصته مثقلة بالطابع الفكري التجريدي الرمزي ■

والروحية المشرقة ، اضاءت بإشعاعاتها القوية كل الاقطار المسلمة ، وكانت الأندلس احد هذه الأقطار التي اشرقت عليها شمس الحضارة العربية الإسلامية : فانارت ربوعها ونقلتها من حال إلى حال ، ومن هنا لم يكن غريباً أن يقبل طلاب العلم والمعرفة المغاربة على علوم المشرق ينهلون منها ما شاء الله لهم ، ويرتوون من مواردها العذبة بقدر ما سمت هممهم واحتملت طاقاتهم ، وكان اهل الأندلس من احرص الناس على التزود بالعلم ، وفي المقابل كان علماء المشرق لا يبخلون بعلومهم ومعارفهم على ابناء اي قطر من الأقطار العربية الإسلامية ، لانهم كانوا على يقين من ان الله قد انعم عليهم بنعمة العلم والمعرفة لينتفع بها الناس كافة ، لا سيما أن هذه البيئة أو تلك كانت سواء في كل من المشرق او المغرب فيما يستظلان به من ظل الإسلام ، وفيما ينهلان منه من مناهل صافية : انبثقت مياهها الشافية على يد محمد ﷺ ثم على ايدي الصحابة والتابعين ، ومن جاء بعد أولئك وهؤلاء من الزهاد والعباد ، وغير اولئك وهؤلاء من قادة الفكر والروح المصلحين »[1] .

الخلاصة أن المغرب العربي لم يكن يوماً ما منبتّ الصلة عن المشرق العربي ، او غريباً عنه ، كانت مكتبات الأندلس العامة والخاصة عامرة بثمرات عقول علماء المشرق وفلاسفته ، زاخرة بانفس الكتب في التفسير والحديث والفقه والشعر واللغة والأدب ، وهي الكتب التي كان يجلبها إلى الأندلس علماء المشرق : الذين كانوا يفدون إليه للعيش فيه او للتدريس في معاهده ، او تلك التي يجلبها الرحالة والعلماء وطلاب العلم المغاربة الذين كانوا يرحلون من بلادهم إلى المشرق للحج او السياحة او الدراسة . وكان العهد عهد ازدهار ونهضة وتنوير حقيقي ، الكتاب فيه هو انفس ما يمكن ان يمتلكه الإنسان ويفتخر باقتنائه ، لذا كانت دكاكين الوراقين عامرة ، وسوق النساخ رائجة ، إلى حد أن اصبحت مدن الأندلس بمكتباتها وقصورها ـ بعد حين ـ اكبر خزانة للكتب العربية ، ومعقلاً هاماً من معاقل العلم والمعرفة ، وإليها يرجع الفضل في الحفاظ على الكثير من كتب التراث العربي الادبي والعلمي والفلسفي ، خاصة بعد نكبة مكتبة بغداد على يد التتار سنة (٦٥٦هـ) ، وإن نظرة واحدة إلى ما تحتويه قوائم مكتبة الأسكوريال من أسماء للمخطوطات العربية لكفيلة ان تدلنا على ما كانت عليه مكتبات الأندلس من ضخامة وثراء .

تلك كانت البنية العلمية والفكرية التي نشا وتربى فيها ابن طفيل ، الذي بدأ حياته العامة بمزاولة الطب في غرناطة ، مع غوص وتعمق في العلوم الحِكْمية (الفلسفة) : التي لم تكن فقيرة ولا هينة : إذ كانت تشمل علوم المنطق والطبيعيات والإلهيّات والنفسانيات بفروعها المختلفة كالهندسة والفلك وعلم النبات والجماد والحيوان وعلم النفس ، اي انها كانت تتسم بطابع الفكر الموسوعي الذي تربت عليه اجيال واجيال من العلماء والفلاسفة العرب .

« ولما اضطربت الأندلس بالثورة على المرابطين ، وقامت في كل قاعدة اندلسية حكومة قومية جديدة على نمط الطوائف ، وكانت بلدة وادي آش قد حذت حذو غيرها ، وقام بها احمد بن ملحان الطائي في سنة (٥٤٠هـ ، ١١٤٥م) وانشا بها حكومة مستقلة ، انتظم ابن طفيل بين كُتّابه وخدمه حيناً ، ولما سقطت حكومته بعد ذلك بأعوام قلائل ، وتغلب الموحّدون على قواعد الأندلس ، انتقل ابن طفيل إلى خدمتهم ، وكتب للسيد أبي سعيد ولد الخليفة عبد المؤمن بن علي حين ولايته لمالقة وسبتة والجزيرة الخضراء فترة أخرى »[2] .

ثم استطارت شهرة ابن طفيل ، وذاع صيته ، فاستدعاه السلطان الموحّدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي ليكون طبيبه الخاص ، وكان ابو يعقوب يوسف محباً للفلسفة مقبلاً عليها ، غرس الله في قلبه محبة الأدباء والشعراء والعلماء ، ومن هنا توثقت اواصر الصداقة والمحبة بينه وبين ابن طفيل الذي ظل بالقرب منه : طبيباً ووزيراً ومشيراً ونديماً نحو اثنتين وعشرين سنة .

ظل ابن طفيل رغم خطورة منصبه السياسي والإداري في دولة السلطان الموحدي أبو يعقوب كما هو : مرهف الإحساس ، سمح السجايا ، محباً للنفع والخير للآخرين ، فكان يقرب من السلطان كل اديب او عالم او مفكر يتوسم فيه النجابة والأصالة ، يوصي بهم ، وينبّه السلطان إلى اقدارهم ، ويحضّه على إكرامهم ورعايتهم ، ولم يكن يملّ البحث عنهم ودعوتهم من مختلف البلدان والاقطار ليشرف بهم مجلس السلطان ، كل ذلك بنفس سامية مترفعة عن الدنايا ، تقوم بما تقوم به من خدمات للعلم والفكر ، دون خوف من نقصان منزلة ، او تقلقل مكانة ، او ذهاب رفعة ، او افول نجم ، على خلاف ما يتصف به عادة من يحيطون بالملوك ، من توجُّس للشر كل الشر ممن يتقربون من الملوك ، ويغارون كل الغيرة ممن يشاد بذكرهم عندهم .

وكان اشهر من قدمهم ابن طفيل وزكاهم عند سلطانه الموحدي ابا الوليد محمد بن احمد بن رشد القرطبي ، آخر الفلاسفة العرب واجلّهم ، والذي يرجع إليه فضل وضع الشروح العربية لفلسفة ارسطو : إذ اهتم بناءً على تكليف السلطان له بتلخيصها ، وتقريب اغراضها ، وتحرير تراجمها ، مما يشوبها من الغموض ، وهي تلك الشروح التي ترجمت إلى اللاتينية فيما بعد فاذاعت شهرة الفليسوف العربي المسلم ابن رشد في الدوائر الفكرية الغربية .

« ولما توفي الخليفة ابو يعقوب يوسف في ربيع الآخر سنة (٥٨٠هـ ، اغسطس سنة ١١٨٤م) عقب نكبته في موقعة شنترين ، استمر ابن طفيل في منصبه طبيباً خاصاً لولده الخليفة الجديد أبي يوسف يعقوب المنصور ، ويبدو انه لم يعش طويلاً بعد ذلك : إذ توفي بمراكش في اواخر سنة (٥٨١هـ ، ١١٨٥م) وحضر الخليفة جنازته بنفسه[4] » .

واشهر مؤلفات ابن طفيل رسالة « حي بن يقظان » او اسرار الحكمة المشرقية ، والأرجوزة الطبية المجهولة ، وعنها يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان : إنه قد اطلع في خزانة جامع القرويين

بفاس على نسخة خطية قديمة توصف بانها ، رجز ابن طفيل ، حسبما تدل عليه صيغة التحبيس المسجلة على الورقة الاولى ؛ وتقع هذه الارجوزة في نحو سبعة آلاف بيت واولها :

الحق لله العلي الظاهر
في الملك والمجد القاهر

وموضوع الارجوزة حسبما يوصف في البيت الآتي ، الوارد في الصفحة الاولى ؛ هو دراسة علل الإنسان وطرق معالجتها :

اذكر فيه علل الإنسان
بغاية الإيضاح والبيان

وهذا الاثر المخطوط هو ارجوزة ابن طفيل المسماة : ، الارجوزة الطبية المجهولة ، نفسها . ولابن طفيل ايضاً رسالة : ، النفس ، ، وغيرها من مؤلفات ورسائل اخرى لم يصل إلينا منها سوى : رسالة ، حي بن يقظان ،[*] .

ابن طفيل ... شاعراً

ذلك ايضاً جانب آخر من جوانب تلك الشخصية الفذّة ، وإن كانت قد طغت عليه شهرته الفلسفية . والواقع ان لابن طفيل اشعاراً متناثرة في بطون الكتب ؛ إن دلت على شيء فإنما تدلنا على شاعرية ذلك المعلم الفيلسوف ، وشفافيته الادبية التي لم تنل منها بحوثه العلمية والفلسفية الجافة ، ولا مشاغله السياسية والإدارية الجمة .

من ذلك تلك القصيدة التي نظمها بتكليف من السلطان الموحدي ؛ لدعوة طوائف العرب الذين بافريقية ، وحثهم على الاشتراك في الجهاد بالاندلس ، والتي يقول في مطلعها :

اقيموا صدورَ الخيلِ نحوَ المضاربِ
لغزو الاعادي واقتناءِ الرغائبِ
وَاَذْكُوا المذاكي العادياتِ على العدا
فقد عرضت للحرب جُرْدُ السلاهبِ
فلا تُقْتَنَى الآمال إلا من القَنَا
ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يَبْلُغُ الغاياتِ إلا مصمِّمٌ
على الهول .. ركّابُ ظهورَ المصائبِ

ومنها في استمالة العرب والإشادة بهم :

الا فابعثوها همة عربية
تحفّ باطراف القنا والقواضب
افرسانَ قيسٍ من هلالِ بنِ عامرٍ
وما جمعت من طاعنٍ ومُضارِبِ
لكم قبةٌ للمجد .. شُدّوا عِمادَهَا
بطاعةِ أمرِ اللهِ من كلِّ جانب
وقوموا لنصرِ الدينِ قومةَ ثائرٍ
وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغبِ

وله ايضاً في الزهد :

يا باكياً فرقة الأحباب عن شحطٍ
هلّا بكيتَ فراقَ الروحِ للبدنِ
نورٌ تردّدَ في طينٍ إلى اجل
فانحاز علواً وخلّ الطينَ للكفن
يا شدّ ما افترقا .. من بعد ما اعتلقا
اظنها هدنةٌ كانت على دَخَنِ
إن لم يكنْ في رضا الله اجتماعُهُمَا
فيا لها من صفقةٍ تمت على غبن

ولا يستنكف ابن طفيل الإنسان النظمَ في الغزل : فنجده يقول :

ولما التقينا بعدَ طولِ تهاجُرٍ
وقد كاد حبلُ الودِّ أن يتصرَّما
وجَلَت ثناياها .. واومَضَ بارقٌ
فلم أدرِ من شقّ الدَّجنّة منهما
وساعدني جفنُ الغَمَام على البكا
فلم ادرِ .. دمعاً ايُّنا كان اسجما
فقالت وقد رقّ الحديث وابصرت
قرائنَ احوالٍ أَذَعْنَ المكتَّما
نشدتك .. لا يذهبْ بك الشوقُ مذهباً
يهوّن صعباً .. او يرخّص مأثما
فامسكت .. لا مستغنياً عن نوالِها
ولكن رايت الصبر أوفى وأكرما

ولابن طفيل في الفكر الفلسفي نظم رائع ؛ يقول فيه :

ما كلُّ من شمَّ نال رائحة
للناس .. في ذا تباينٌ عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم
بين المعاني .. اولئك النُّجُب
وفرقة في القشور قد وقفوا
وليس يدرون لبَّ ما طلبوا
لا غاية تنجلي لناظرهم
منه ولا ينقضي لهم أرب
لا يتعدّى امرؤٌ جبِلّتَهُ
قد قُسِّمَتْ في الطبيعة الرُّتَبْ

ثلاث قصص عن حي بن يقظان

، حي بن يقظان ، عنوان ثلاث قصص في الادب العربي ؛ او على وجه الدقة عنوان ثلاث رسائل في الفكر الفلسفي ، اقدمها هي الرسالة التي كتبها الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) ، وتقع في نحو تسع صفحات ؛ يصف فيها ، اغراض النفس في ما وراء الحياة الدنيا باسلوب مجازي ورمزي ، فحيّ في هذه القصة جوال يضرب في اقطار الأرض تحقيقاً لوصية تلقاها من والده ؛ خلاصتها دعوة إلى النفس المكبلة بقيود العالم لان تتحول عن لذات الجسد البالية ، وتتجه بانظارها نحو المصدر

■ الأندلس أحد الأقطار التي أشرقت عليها شمس الحضارة الإسلامية ، فأنارت ربوعها ، ونقلتها من حال إلى حال ، وأصبح الكتاب أنفس ما يمكن أن يمتلكه الإنسان ويفخر باقتنائه إلى حد أصبحت معه المدن الأندلسية معقلا هاما من معاقل العلم والمعرفة ■

(رمز للجمال والنور . وتبدأ القصة بقول ابن سينا : « إنه قد تيسرت لي حين مقامي ببلادي (برزة) ومعه برفاقي إلى بعض المتنزهات المكتنفة لتلك البقعة ، فبينما نحن نتطارف إذ عنّ لنا شيخ بهي الطلعة ، قد اوغل في السن ، واخذت عليه السنون . وهو في طراوة العز ، لم يهن منه عظم ، ولا تضعضع له ركن ، وما عليه من المشيب إلا رواء من يشيب ، فنزعت إلى مخاطبته ، وانبعثت من ذات نفسي لمداخلته ومجاورته ، فملت برفقائي إليه ، فلما دنونا منه بدانا هو بالتحية والسلام ، وافتر ثغره عن لهجة مقبولة ، وتنازعنا الحديث حتى افضى بنا إلى مساءلته عن كنه احواله ، واستعلامه سنّه ، وصناعته ، بل اسمه ، ونسبه ، وبلده ، فقال : اما اسمي ونسبي فحي بن يقظان ، واما بلدي فمدينة بيت المقدس ، واما حرفتي فالسياحة في اقطار العالم ... » ومن ثم تحدث محاورات ومناقشات بين العقل والشهوات الحسية الإنسانية : حيث يذهب إلى ان العقل ملتصق بالبدن ، ويجب ان يتحرر من الغضب والشهوة ، ولكن مع هذا لا يستطيع التخلي عن البدن وحواسه ، ولهذا يجب السيطرة عليه بالتامل والاطّلاع : حتى يستطيع ان يدرك السعادة الكاملة بعد مفارقة البدن : حيث يدرك العلة الأولى ، لأن العقل الإنساني الذي يتحرر من الشهوات الحسية : يستطيع ان يتصل بالعقل الفعال الذي يهدي النفوس إلى الله »[٦] .

وابن سينا في رسالته هذه لا يقصد ان يقص علينا قصة بالمعنى الذي كان شائعاً عن القصص في الأدب العربي القديم الذي عرفته العرب منذ اقدم العهود ، ولكنه آثر ذلك الشكل الفني ليكون وعاء لأفكاره الفلسفية ، وابتكر شخصية حي بن يقظان لتكون قناة توصيل لهذه الأفكار والتأملات الفلسفية : لذا جاءت رسالته مثقلة بالطابع الفكري التجريدي الرمزي الذي يستلزمه عرض مثل هذه الأفكار .

اما القصة الثانية (زمنياً) فهي قصة ابن طفيل وهي اطول هذه القصص الثلاث واشهرها ، وتقع في نحو سبعين صفحة ، وهي التي سنتناولها فيما بعد .

وبعد ابن سينا وابن طفيل تاتي الرسالة الثالثة التي بعنوان حي بن يقظان ايضاً : وهي الرسالة التي كتبها شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِيّ : قتيل حلب (٥٨٧هـ) وهي قصيرة جداً في نحو اربع صفحات ، كتبت باسلوب شديد الرمزية مستغلق ، ويكتنفها كثير من الإبهام والغموض .

حــول قصة ابن طفيل

اختلفت الآراء في تحديد المغزى الذي ترمي إليه هذه القصة : « فعبد الواحد المراكشي في كتابه (المعجب في تلخيص اخبار المغرب - القاهرة ١٣٣٢هـ) ، والذي يصف ابن طفيل بانه كان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظّماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً ، يعتقد ان تلك القصة كانت ترمي إلى بيان اصل النوع الإنساني من وجهة نظر الفلاسفة .. (!!)[٧] .

بينما يعدها آخرون ، عملاً روائياً رائداً في مجال الأدب الفلسفي ، وانها تمثل خلاصة للفلسفة العربية : لشمولها معظم آراء الفلاسفة العرب في كثير من المسائل الفلسفية ، إلى جانب موقف ابن طفيل نفسه ، ومدى تقبله لتلك الآراء او رفضه لها ، ويعدها فريق ثالث دراسة علمية فلسفية صوفية لأسرار الطبيعة والخليقة قبل اي شيء آخر ، وعن تارجح رسالة « حي بن يقظان » بين الفن والفلسفة يقول يوسف الشاروني : « لا شك أن ابن طفيل حين كتب رسالته ، او قصته لم يكتبها من فراغ ، فقد كان وراءه تراث فلسفي وقصصي ، منه استمد عناصر عمله مضموناً وشكلاً ، ولكن الفضل يرجع إليه في النهاية في إبداع بناءٍ متكامل مما اختار من هذه العناصر »[٨] .

ورغم تعدد مسالك الدراسين حول هذه القصة الفلسفية ، إلا ان المجال لا يزال مفتوحاً ورحباً لعديد من الدراسات التي قد تكشف ابعاداً جديدة : فلسفية وادبية واجتماعية وتاريخية لهذا العمل الفذّ الذي اختلفت حوله الآراء .

قصة « حي بن يقظان »

تتلخص قصة حي بن يقظان في انه كانت هناك جزيرة منعزلة من جزر الهند تحت خط الاستواء ، نشا بها في احضان الطبيعة طفل يدعى « حيّاً » ، استطاع بالملاحظة الدقيقة والتجربة والاستقصاء لظروف الحياة ومختلف اطوارها ومظاهرها ان يصل إلى اسرار الطبيعة ، وان يدرك اسرار الحكمة العليا .

اما كيف جاء هذا الطفل إلى هذه الجزيرة ، فإن ابن طفيل يورد هنا تفسيرين لهذه المسالة ، اولهما انه نشا من الارض ، « في بطن الجزيرة تخمرت فيه طينة على مرّ السنين ، حتى امتزج فيها الحارّ بالبارد ، والرطب باليابس ، امتزاج تكافل وتعادل في القوى ، وتفاعلت تلك العناصر ، التي تعلق بها ذلك الروح الذي هو من امر الله تعالى ، وتكوّن الجنين ، وتمت اعضاؤه داخل غشاء انشق عنه بما يشبه المخاض » . اما التفسير الآخر فيقول « إن اخت الملك في إحدى الجزائر المجاورة تزوجت سراً من يقظان - وهو احد اقاربها - على خلاف رغبة اخيها ، ووضعت طفلاً ، ثم خافت ان ينكشف امرها فوضعت الطفل في تابوت ، والقته في البحر ، وحمله البحر إلى شاطىء جزيرة منعزلة » .

ويصف ابن طفيل وصول حي إلى تلك الجزيرة بقوله : « وكانت مسامير التابوت قد قلقت ، والواحه اضطربت ... فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى ، واستغاث وعالج الحركة ، فوقع صوته في اذن ظبية فقدت طلاها (ولدها) ، ففتحت التابوت باظلافها ، وحنّت على الطفل ، والقمته حلمتها ، وارونه لبناً سائغاً ، وما زالت تتعهده وتربّيه وتدفع عنه الاذى » ، ويواصل ابن طفيل قصّ مراحل نشاة بطل قصته فيقول : « فما زال الطفل مع الظبية على تلك الحال : يحكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرّق بينهما ، وكذلك يحكي جميع ما يسمعه من اصوات الطير ، وانواع سائر الحيوانات محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريد .. وكان في ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالاوبار والاشعار وانواع الريش ، وكان يرى ما لها من سرعة العدو وقوة البطش ، وما لها من الاسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها : مثل القرون والانياب والحوافر .. ثم يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العري ، وعدم السلاح ، وضعف العدو ، وقلة البطش ، فبدا يتعلم من الحيوان ويفكر ، ويتخذ لنفسه اللباس من اوراق الاشجار » .

وتستمر رحلة حي بن يقظان مع المعرفة : فيتعرف على الموت لاول مرة عندما تموت الظبية التي ربّته ، ويتعرف على النار : وادرك انه امام عنصر من عناصر الطبيعة ، فاخذ يضرمها ويستمتع بضوئها ودفئها ، واستطاب اكل اللحم النضيج ، واستالف جوارح الطير ليستعين بها في الصيد ، واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها . وواصل ابن يقظان التفكير في نفسه وفي العالم من حوله ، ثم تفكر في السماء والنجوم والكواكب ، ورصد تحركاتها وطلوعها وغروبها : فادرك انه محاط بعالم كبير يسير على نظام بالغ الإتقان ، وكانت هذه المشكلة من اعقد المشاكل التي عرضت له ، فلبث يفكر فيها عدة سنين ، وانتهى إلى ان هذه الموجودات كلها بما فيها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ، لا تصدر إلا عن فاعل ممتاز ، في

عالم وكتاب

غاية الكمال وفوق الكمال ، وانتهى بالتأمل والدرس والحس إلى فكرة الألوهية ، وخالق الخلق ، وإلى ان هذا الموجود الرفيع الثابت الوجود ، الذي لا سبب لوجوده ، هو سبب وجود الأشياء جميعها ،.

إنها رحلة طويلة للوصول إلى الله . استمرت خمسين عاماً ، حدث بعدها ان جاء ابسال إلى جزيرة حي بن يقظان . وكان ابسال وسلامان فتيين صالحين يعيشان في جزيرة اخرى بالقرب من جزيرة حي ، وكانت هذه الجزيرة تدين بملّة صحيحة ، وكان ابسال وسلامان يتدارسان احياناً ، فيما ورد من الفاظ تلك الشريعة في صفة الله وملائكته ، وكان ابسال اشد غوصاً على الباطن ، واكثر عثوراً على المعاني الروحية . اما سلامان فكان اكثر احتفاظاً بالظاهر واشد بعداً عن التاويل ، فتعلق ابسال بطلب العزلة لما كان في طباعه من دوام الفكرة ، والغوص على المعاني . وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ، وكانت ملازمته للجماعة مما يدرا عنه الوسواس ، ويزيل الظنون المعترضة . والتقى ابسال بحي بن يقظان ، ونجح في تعليمه الكلام ، وعرف منه قصته وشانه كله ، واخذ حي من جانبه يساله عن امره ، فوصف له ابسال جزيرته ، وما فيها ، وشانها قبل وصول الملة إليهم ، وكيف هي الآن بعد وصول الملة ، ووصف له جميع ما ورد في الشريعة من وصف العالم والجنة والنار والبعث والنشور وغيرها ، ففهم حي ذلك كلّه ولم ير فيه شيئاً على خلاف ما يعرفه ، وعلم ان الذي وصف ذلك محق في وصفه ، صادق في قوله ، رسول من عند ربه ، فآمن به وشهد برسالته ».

وهنا يبرز مغزى هذه القصة الفريدة . فالإنسان متدين بالطبع ، وشوق المخلوقات إلى خالقها غريزة في وجدان الإنسان منذ ان خلق الله ، واشهدهم على انه ربهم وهم بعدُ في عالم الغيب ، وان الإسلام هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وان كل مولود يولد على الفطرة .

ولما علم حي بحال الناس في تلك الجزيرة من انصراف عن العبادة الحقة ، واهتمام بجمع المال ، والتوسع في المأكل ، واستغراق في امور الدنيا ، اشتد إشفاقه عليهم ، وطمع ان تكون نجاتهم على يديه .

واقلت حياً وابسالاً سفينةٌ ساقتها لهما العناية الإلهية ودخلا الجزيرة المجاورة ، وشرع حي في تعليم الناس اسرار الحكمة وبثّها بينهم ، وكان على راس تلك الجزيرة سلامان صاحب ابسال ؛ يقول ابن طفيل : « ولم يكن ـ اي حيّ ـ يدري ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الراي ، وضعف العزم ، وانهم كالانعام بل اضل سبيلاً » ، « وما زال حي يستلطفهم ليلاً ونهاراً ، ويبين لهم الحق سراً وجهاراً ، فلا يزيدهم ذلك إلا نبوّاً ونفاراً ، مع انهم كانوا محبين للخير راغبين في الحق ؛ إلا انهم لنقص فطرتهم كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ، ولا ياخذونه بجهة تحقيقه ، ولا يلتمسونه من بابه ، بل كانوا لا يريدون معرفته من طريق اربابه ، فيئس من إصلاحهم ، وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة قبولهم ؛ ويصف ابن طفيل كيف كانت معاناة حي ابن يقظان في دعوته ، إذ « تصفح طبقات الناس بعد ذلك ، فراى كلَّ حزب بما لديهم فرحون ، قد اتخذوا إلههم هواهم ومعبودهم شهواتهم ، وتهالكوا في جمع حطام الدنيا ، والهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر ، ولا تنجح فيهم الحكمة ، ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ولا يزدادون بالجدل إلا إصراراً ، واما الحكمة فلا سبيل لهم إليها ، ولا حظّ لهم منها ، قد غمرتهم الجهالة ، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » لقد وجد حي بن يقظان في تلك الجزيرة مجتمعاً ؛ وإن كان يدين بهذه الملة الصحيحة إلا انه مجتمع فاسد ، لا يتمسكون من ملتهم إلا بالدنيا ، وقد نبذوا اعمالهم على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم ، واشتروا بها ثمناً قليلاً ، والهاهم عن ذكر الله تعالى التجارة والبيع ، ويرثي لحال ذلك المجتمع المسكين الذي : « إذا تصفحت اعماله من وقت انتباهه إلى نومه إلى حين رجوعه إلى الكرى ، لا تجد فيها شيئاً إلا وهو يلتمس به تحصيل غاية من هذه الامور المحسوسة الخسيسة ، إما مال يجمعه ، او لذة ينالها ، او شهوة يقضيها ، او غيظ يتشفى به ، او جاه يحرزه ، او عمل من اعمال الشرع يتزين به ، او يدافع عن رقبته وهي كلها في بحر لجيّ » .

ولما علم حي على وجه اليقين ان هذه الجماعة الضالة لا نجاة لها ، قصد إلى سلامان واصحابه ، واوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام الحدود الشرعية والاعمال الظاهرة ، وقلة الخوض فيما لا يعنيهم ، والإعراض عن البدع والاهواء ، وامرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من إهمال الشريعة والإقبال على الدنيا ؛ إذ لا نجاة لهم إلا بسلوك هذا الطريق .

وعاد حي ومعه ابسال إلى الجزيرة المنعزلة وظلّا هناك وحدهما يعبدان الله حتى وافتهما المنية .

تلك هي قصة حي ابن يقظان التي خلّفها لنا ابن طفيل ؛ لتدلنا على شريحة من شرائح التفكير الإسلامي ، واجتهادات فلاسفة العرب الذين تسلّحوا اولاً وقبل كل شيء بعقيدة الإسلام ، ثم انطلقوا يجوبون آفاق المعرفة بلا خوف من عثرة او زلل .

لقد كان ابن طفيل الذي نعيش هذه الايام ذكرى مرور ثمانية قرون على وفاته معبّراً اصيلاً عن حضارة عصره ، وفلسفاته العربية الإسلامية من الكندي (ابي الفلاسفة العرب) إلى ابن باجة معاصره ، ولانه كان معبراً اصيلاً عن هذه الحضارة العملاقة استطاع ان يكون واحداً من القلة النادرة في العالم التي كان لها اثرها الفكري في زمنه وبعد زمنه وفي لغته وغير لغته .

المراجـــــــع

(١) عبد الكريم غلّاب ـ عروبة هذا المغرب ـ مجلة الدوحة ـ فبراير ١٩٧٧م .

(٢) الدكتور/ محمد مصطفى حلمي ـ تدبير المتوحد لابن باجة ـ تراث الإنسانية ـ م٣ ص ٨١٧ .

(٣) محمد عبد الله عنان ـ تراجم إسلامية شرقية واندلسية ـ الخانجي/ القاهرة ص ٣١٥ .

(٤) المرجع السابق ـ ص ٣١٨ .

(٥) المرجع السابق ـ ص ٣١٩ انظر حاشية (١) .

(٦) إحسان جعفر ـ ابن سينا رائد القصة الفلسفية ـ الفيصل ـ عدد ٧٢ ص ١٤١ .

(٧) الدكتور/ محمود قاسم ـ ابن طفيل ـ معجم أعلام الفكر الإنساني ـ تصدير الدكتور إبراهيم مدكور ـ القاهرة (١٩٨٤) ص ١٨٨ .

(٨) يوسف الشاروني ـ حي بن يقظان بين الفن والفلسفة ـ مجلة الكويت ـ العدد ١٢ ص ٢٢ .

(٩) اعتمدنا في تلخيص هذه القصة « حي بن يقظان » على مجموعة من المقالات والمراجع الآتية :

(ا) حي بن يقظان ـ تحقيق احمد أمين (القاهرة) .

(ب) تراجم إسلامية ـ محمد عبد الله عنان .

(جـ) ابن طفيل وحي بن يقظان ـ حسن احمد حسن .

(د) البعد الإصلاحي في فلسفة ابن طفيل الاجتماعية ـ الدكتور إدريس عزام .

(هـ) الميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل ـ الدكتور محمد عاطف العراقي .

(و) تاريخ الفكر العربي إلى ايام ابن خلدون ـ الدكتور عمر فروخ .

(ز) بين الدين والفلسفة في رأي ابن رشد ـ الدكتور محمد يوسف موسى





عالم وكتاب

■■ قام الدكتور « براوليو خوستيل » بنشر رسالته للدكتوراه ، وتشتمل على التحقيق النقدي لكتاب أبي العباس موسى الرجراجي ، وقدم لهذا التحقيق بدراسة مستوعبة عن المخطوط وكاتبه وموضوعه ، والعلماء السابقين عليه والمعاصرين له ، والكتابة في هذا الفن سواء لدى المسلمين أو النصارى ، وأنقل للقراء مقتطفات من الدراسة الإسبانية ومن النص العربي المنشور لهذا الكتاب ... ■■

المخطوط ومكتبة الأسكوريال

بناء على دراسة المحقق فإن المخطوط الأساسي لهذا العمل القيم محتفظ به في مكتبة الأسكوريال الملكية القريبة من مدريد ، وترجع نسخته إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادي وبالتحديد إلى عام ١٥٤٢م .

وصل المخطوط إلى مكتبة الأوسكوريال في حدود عام ١٦٢٦م على أبعد تقدير ، حيث قام المستشرق الاسكتلندي « دافيد كولفيل David Colville » في هذا العام ـ المشار إليه ـ بدراسة المخطوطات العربية في مكتبة الأوسكوريال ، وخاصة مجموعة « هورتادو دي ميندوثا Hortado de Mendoza » وقام بفهرستها ووصفها وصفاً مسهباً ، وكتب ملاحظاته باللغة اللاتينية عليها ، لكنه لوحظ أن ملاحظاته التي سجلها على مجموعة مولاي زيدان كانت مبتسرة ، ولا تشير إلَّا إلى العنوان والمحتوى في كلمات قليلة سجلها في الركن الأسفل من كل مخطوط . وهناك من الأدلة ما يجعل وصول هذا المخطوط يدور حول نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، نشير إلى بعضها :

١ ـ لم يظهر المخطوط في فهرس المكتبة الذي أعده البروفيسور « دييغو دي أوريا Diego de Urea » بعد موت ملك إسبانيا فيليب الثاني عام ١٥٩٨م والذي انتهى إعداده عام ١٦٠٠م .

٢ ـ لم يسجل المخطوط في قوائم جرد المكتبة لما قبل عام ١٦٠٠م وخاصة سجلات الحصر التي تمت في الثاني من مايو عام ١٥٧٦م . ولقد شهد اليوم الثاني من حزيران (يونيه) عام ١٥٧٦م وصول المكتبة القيمة التي أهداها للأوسكوريال السفير الاسباني « دييغو هورتادو مندوثا Diego H. de Mendoza » والمكونة من (٢٥٦) مخطوطة معظمها باللغة العربية ، ولم يكن مخطوطنا واحداً منها حيث لا يحمل اسم السفير كما هو مدوّن على المخطوطات الأخرى .

وكذلك لم يكن المخطوط واحداً من المجموعة القيمة التي ضمت إلى مكتبة الأسكوريال عام ١٥٩٩م بعد أن كانت ملكاً لعالم الإنسانيات الشهير « بنيتو أرياس مونتانو Benito Arias Montano » والذي كان واحداً من أوائل من أداروا هذه المكتبة وتولوا مسؤوليتها ، وتكونت مجموعته من (٢٦) مخطوطاً مجلدة تجليداً فاخراً .

أما التحديد الأكثر احتمالاً إذنْ لوصول المخطوط إلى المكتبة فهو عام ١٦١٢م وهو العام الذي وصلت فيه مكتبة الأوسكوريال ، المجموعاتُ الضخمة من المخطوطات والكتب التي كانت تضمها مكتبة مولاي زيدان سلطان المغرب ، وهي المجموعة الوحيدة التي أضيفت إلى المكتبة خلال المدة من ١٦٠٠م إلى ١٦١٢م .

الأسكوريال ومكتبة مولاي زيدان

يروي لنا الدكتور « براوليو خوستيل » باختصار شديد ، قصة استيلاء الإسبان على مكتبة مولاي زيدان سلطان المغرب وكيفية ضمها إلى مكتبة الأوسكوريال الملكية لتصبح بذلك واحدة من أغنى مكتبات العالم بالمخطوطات العربية ، بل وأشهر هذه المكتبات على الإطلاق ، فيقول :

كان مولاي زيدان ابناً لأشهر سلاطين الأسرة السعدية ، أبي العباس أحمد المنصور الذهبي والذي حكم المغرب خلال المدة من (٩٨٦) إلى (١٠١٢هـ) الموافق ١٥٧٨ إلى ١٦٠٢م ، ولقد صعد المولى زيدان إلى عرش مراكش خلفاً لوالده وظل سلطاناً لمدة خمسة وعشرين عاماً كاملة من ١٠١٢هـ إلى ١٠٣٧هـ الموافق ١٦٠٣ إلى ١٦٢٨م ، وكان عهده ـ على ما يحدثنا به المؤرخ الفرنسي « ليفي بروفنسال » ـ حافلاً بالأحداث والثورات ، وخرجت عن طاعته أركان المغرب

بقلم : الدكتور محمد عبد الحميد عيسى

■ الحياة عند المسلمين نتاج متكامل لما هو مادي وروحي ، ولا يفرقون بين الدين والسياسة ، لأن هذه الحياة إنما تنتظم بتعاليم الله سبحانه وتعالى ، والاقتناع كامل بين المسلمين على أن الازدهار المادي ليس إلَّا محصلة طبيعية للتدين الصحيح .

■ في عصر شمل فيه الانحطاط والتدهور كل مناحي الحياة في العالم الإسلامي وتهاون الناس في التمسك بمبادىء الدين وأخلاقياته ، بيَّن علماؤهم بوضوح أن العلاج الناجع يكمن في العودة إلى هذا الدين الحق .


هداية من تولى غير الرب المولى

تأليف

ابى حفص عمر بن موسى بن محمد الرجراجي

تحقيق وترجمة الى الاسبانية ودراسة

براوليو خوستيل كالابوثو

. المعهد الاسباني . العربي للثقافة .

مدريد ١٩٨٣

الأربعة كلها . ولقد اضطرت إحدى تلك الثورات المستمرة المولى زيدان أن يرحل من مقره في « آسفي » إلى مدينة « أغادير » المغربية حاملاً معه أشياءه الشخصية وما استطاع حمله مما يعتز به . ومن أجل ذلك استأجر مركباً فرنسياً بقيادة القبطان « جين فيليب دي كاستيلانا Jean Philippe Castelane » لكي ينقل بعض أثاثه ومكتبته القيمة إلى مدينة « أغادير » .

وفي ميناء أغادير وحين ماطل السلطان في دفع المبلغ المتفق عليه ، استولى القنوط - أو ربما الجشع - على القبطان الفرنسي فهرب بحمولته تحت جنح الظلام متجهاً إلى ميناء مرسيليا الفرنسي ، لكن سوء طالعه أوقعه أمام مدينة « سالي » الاسبانية تحت رحمة ثلاث من بواخر المراقبة الإسبانية ، والتي اعتقد ملاحوها خطأ بوجود الذهب في صناديق الكتب فأسروا المركب الفرنسي وتوجهوا به إلى مدينة « بلنسية » الأندلسية ، ومن ثم أمر الملك فيليب الثالث ملك اسبانيا ، بنقل هذه المكتبة الضخمة والتي تتكون من (٣٠٠٠) مخطوط عربي إلى دير « سان لورنس دي الاسكوريال » حيث أودعت هناك على أمل أن يتم استبدال هذه الكتب بكل الأسرى النصارى المحتجزين لدى المغرب في ذلك الوقت ، وحين فشلت المفاوضات تم ضم هذه الغنيمة الضخمة إلى مكتبة الأوسكوريال مما أثرى مخزونها بصورة كبيرة ، وإلى هذه المجموعة ينتمي مخطوطنا الخاص بالهداية للشيخ الرجراجي .

المخطوط وحريق الأسكوريال

تعرضت مكتبة الأوسكوريال الملكية لحريق هائل التهم نصف ما فيها من مخطوطات عربية - على الأقل - ولو شاء لها القدر ، و انقذتها عناية الله ، لازداد تراثنا الإسلامي ثراء وغنى ولكانت الأوسكوريال منهلاً عذباً لهذا التراث الغالي ، لكن كما أشرنا تعرضت هذه المكتبة لحريق ضخم لم تُعرف أسبابه ودوافعه بوضوح حتى الآن ، ذهب بالكثير مما تحتويه المكتبة . وشاءت العناية الإلهية أن يخرج مخطوط الهداية من هذا الحريق سالماً دون أن يُمس بأذى مع ألفين من المخطوطات تم قذفها من النوافذ إلى فناء الدير بعيداً عن النيران الملتهبة التي كادت أن تلتهم باقي محتويات المكتبة ، وتسبب ذلك في تلف عدد كبير من المخطوطات واختلاطها . وحيث إن الهداية لم تكن مرقمة أصلاً ، فقد تم تجليدها بعد ذلك بطريقة عشوائية وعلى يد رجل لا يعرف من العربية إلَّا قليلاً .

مؤلف الهداية

أسرة الرجراجي أسرة مغربية عريقة تقع أرضها في الجنوب الشرقي من البلاد ، وقد أنجبت هذه الأسرة عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء ، خصص لها « التاولي » في كتابه « التشوف » جزءاً كبيراً عنوانه « اخبار صالحي رجراجة » .

ولقد شهد منتصف القرن الخامس عشر الميلادي شخصيتين علميتين كبيرتين من هذه الأسرة حملا معاً اسم « أبو حفص عمر الرجراجي » وكان اكبرهما أكثر شهرة ، وأشارت إليه جميع ترجمات عصره أو التالية لها ، وأجمعت جميعها على تاريخ وفاته في السادس من ذي القعدة ٨١٠هـ كما أنها لم تختلف في اسمه الكامل « أبو حفص عمر بن محمد أبو علي الفاسي الرجراجي » ، وتكاد الدلائل التي تشير إلى تقواه وورعه وإيمانه تحملنا على الاعتقاد بأنه مؤلف الهداية ، لكن مقارنة تاريخ وفاته بالأحداث التاريخية التي تشير إليها نصوص الهداية تؤكد لنا أن المؤلف هو شخص آخر ، اطلق عليه محقق الكتاب اسم « الرجراجي الأصغر » .

عاش مؤلف الهداية في فاس وفي تونس ، ورحل إلى مصر ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج عام ٨١٣هـ/ ١٤١١م ومات في حدود عام ٨٦٨هـ/ ١٤٦٥م ، وكان معاصراً للشيخ التونسي « ابن عروس » المتوفى ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م .

عصر المؤلف

عاش المؤلف حياته في نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلاديين خلال حكم بني

مرين في المغرب والحفصيين في تونس ، وقد تنقل المؤلف معظم حياته بين المغرب وتونس . ومن أجل ذلك نلقي قليلاً من الضوء على هاتين الأسرتين الحاكمتين :

حكمت أسرة بني مرين في المغرب من عام ١٢٦٩ إلى ١٤٧٠م وهي فترة تاريخية هامة سواء في حياة المغرب العربي أو الأندلس ، كتبت فيها مجموعة من الدراسات الهامة خاصة كتابات العالم العربي ذائع الصيت « ابن خلدون » ، ولقد وصلت هذه الأسرة إلى قمة مجدها السياسي خلال القرن الرابع عشر الميلادي ، لكي تنحدر بعد ذلك بسرعة إلى نهايتها واختفائها . أما محاولاتها لاستعادة المملكة المنهارة والمتناثرة التي خلفها الموحدون ، فإنها باءت بالفشل ولم تنجح في ذلك على الرغم من ازدهارها الكبير خلال الفترة من عهد السلطان أبي الحسن المريني ٧٣١هـ/ ١٣٣١م إلى ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م وإلى الفترة الثانية من حكم السلطان أبي العباس ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م .

نجح السلطان ابو الحسن في إعلان الجهاد على النصارى في الأندلس واستطاع أن يسترد منهم جبل طارق ـ وهو طريق الإمداد بين المغرب والأندلس ـ لكنه لقي هزيمة مدمرة لجيوشه وجيوش بني نصر في معركة طريف التي كانت نهاية المعارك الكبرى ضد الإسبان الذين كانوا يتقدمون بسرعة لإخراج المسلمين من الأندلس .

أما من الناحية العلمية في عصر بني مرين فقد تركزت في المجال الفقهي التشريعي واهتموا بالأصول اهتماماً كبيراً ، خاصة النصوص القرآنية والحديث ، على عكس ما كان الحال عليه من اهتمام بالفروع في العصر المرابطي ، وكانت كتابات حجة الإسلام الإمام الغزالي ، من الكتب المفضلة في المغرب في هذه الحقبة .

وساد المذهب المالكي بينهم ، كما هي أحوال الأندلسيين والمغاربة منذ القدم ، ولكنه في هذا العصر تطعم بكتابات الغزالي ، وأصبح هناك دم جديد يجري في عروق الفقهاء المرينيين : وإن كان يمكن القول بان العصر المريني لم ينجب أعمالاً ذات مستوى رفيع بقدر ما دارت الحياة العلمية حول التفسير والتعليق على الأعمال الكبرى التي أنجبتها العصور السابقة لها ، والعمل على استيعابها ، وركز الفقهاء والعلماء هنا على الذاكرة والحفظ أكثر من تركيزهم على الإبداع والابتكار ، وهي ظاهرة اتسمت بها الحالة العلمية في العالم الإسلامي كله حينذاك ، ويدل على ذلك تأكيد « ابن خلدون » على أن مدرسة « فاس » قد تفوقت في هذا المجال ، وأن التعليم فيها قد قام على تدريب ملكة الحفظ وتقويتها .

أما في أفريقية « تونس » فقد ورث الحفصيون دولة الموحدين ، وحكمت هذه المنطقة من عام ٦٢٧/ ٩٨٢هـ ـ ١٢٢٩/ ١٥٧٤م وهي السنة التي تمكن فيها « سنان باشا » من ضم تونس إلى الدولة العثمانية ، وفي النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي تمكن « خير الدين بارباروسا » من الاستيلاء على تونس ، لكن الملك الحفصي « أبا الحسن » استدعى الإسبان بقيادة الامبراطور « كارلوس الخامس Carlos V » ، الذي وصل إلى تونس مع حملة ضخمة عام ١٥٣٥م تمكن خلالها الاثنان من هزيمة « بارباروسا » والاستيلاء على تونس وإعادة الملك الحفصي عليها تابعاً ذليلاً لملك إسبانيا .

حكم من الأسرة الحفصية (٢٥) أميراً ، يهمنا منهم ثلاثة حكموا في نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلاديين وهم : « أبو فارس عبد العزيز ٧٩٦/ ٨٣٧هـ ، ١٣٩٤/ ١٤٣٤م » و « المنصور ٨٣٧/ ٨٣٩هـ ، ١٤٣٤/ ١٤٣٥م » ، و « أبو عمر عثمان ٨٣٩/ ٨٩٣هـ ، ١٤٣٥/ ١٤٨٨م » .

عاصرت الأسرة الحفصية الأحداث التي مر بها بنو مرين في المغرب ، وتشابهت الأسرتان ـ تقريباً ـ في جميع الأحوال ، خاصة في المناحي الفكرية والعقلية وإن كانت في المغرب أكثر رفعة منها في أفريقية .

شهد العصر الحفصي نوعاً من الازدهار الثقافي تمثل باهتمام السلاطين بالحياة العلمية والعلماء ، وتمتع أهل العلم بمكانة طيبة واحتلوا أماكن هامة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، ومع ذلك تبقى إشارتنا صحيحة إلى أن المستوى الفكري للمجتمع التونسي على عهد بني حفص كان أقل درجة منه في المغرب على عهد بني مرين رغم ظهور المدارس في تونس قبل مائة سنة على الأقل من ظهورها في المغرب .

عادت تونس إلى المذهب المالكي بعد الموحدين ، لكنها ابتعدت عن تشدد الموحدين وشهدت في هذا المجال نوعاً من التسامح ، امتد بدوره إلى الحركة الصوفية .

الهداية : ما هي ؟

« هداية من تولى غير الرب المولى » رسالة في تأديب السلاطين ، وهو نوع من الكتابة تفتقت عنه العقلية الإسلامية انطلاقاً من واجب المسلمين الشرعي في تقويم حكامهم بتقديم النصيحة الخالصة لهم ونتيجة للارتباط الوثيق بين الحياة الخلقية والعملية وهيمنة الدين على كلا المجالين ، وكان ذلك سبباً في غزارة إنتاج المسلمين في هذا المجال حتى أصبح فناً من فنون ثقافتهم ومجالاً حيّاً من مجالات تفكيرهم سواء ما كتب منه باللغة العربية أو الفارسية . ولنشُر بإيجاز إلى بعض المؤلفات التي تشبه الهداية في هذا المجال :

رسالة الصحابة والأدب الكبير لابن المقفع (توفي ١٤٢هـ/ ٧٥٩م) وكتاب « التاج » المنسوب إلى الجاحظ (توفي ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) ، وكتاب « السلطان » وهو الجزء الأول من كتاب « الخراج » لابن قتيبة (توفي ٣٢٩هـ / ٩٤٠م) ، وكتاب « الأحكام السلطانية » للماوردي (توفي ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) . و « نصيحة الملوك » للإمام الغزالي (توفي ٥٠٥هـ/ ١١١١م) ، وبعض أجزاء كتابه « الإحياء » وخاصة الأبواب المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب « سراج الملوك » للأندلسي ـ نزيل الإسكندرية ـ ابي بكر الطرطوشي (توفي ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) .

وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر

■ البداية السليمة لعودة المسلمين إلى الصراط المستقيم ، ومن ثم إلى مجدهم وعزهم ، تأتي من حكام المسلمين أنفسهم ، على أساس أن فساد الرعية أو صلاحها إنما هو من فساد الحكام أو صلاحهم .

■ اهتم علماء المسلمين بالكتابة في مجال « تربية السلاطين » إلى درجة أن أصبح هذا المجال فناً من فنون ثقافتهم وعلماً يرتبط باسمهم دائماً ، ولقد وجد هذا النوع من الكتابة في الفنون الأوروبية ، ويحتاج الأمر إلى دراسة مستوعبة تبين لنا مجالات التأثر والاستفادة .

الميلادي كتب إبراهيم بن عبد الواحد بن ابي النور كتابه « سياسة الأمراء وولاة الجند » وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي - عصر الرجراجي - كتب ابن السكاك كتابه « نصح ملوك الإسلام » كما يمكن أن يشار أيضاً إلى أرجوزتي ابن الخطيب المرسلتين ، وهما : « مقامات السياسة » و « إشارة إلى أدب السياسة » ، علاوة على ما كتب في هذا المجال باللغة الفارسية مثل : « قابوس نامه » و « سياسة نامه » ، التي كتبها الوزير الشهير نظام الملك ، ولقد تاثرت هداية الرجراجي بهذه المصادر السابقة عليها كلها ، فاعتمد على « الأحكام السلطانية » للماوردي ، و « إحياء علوم الدين » للغزالي وغيرهما من مؤلفي هذا النوع من الكتب .

هداية الرجراجي وتربية الأمراء في النصرانية

قام محقق الهداية بدراسة مستوعبة للكتابات النصرانية في مجال تاديب السلاطين وتربية الأمراء ، خاصة خلال القرون الثلاثة الممتدة من الثالث عشر إلى السادس عشر الميلادية ، وركز على المؤلفات التي عاصرت الرجراجي ، ويرى في بداية هذه الدراسة أن نشر كتاب « الأمير » لميكيافيللي قد فتح الباب أمام نظريات جديدة في الحكم وفي السلطنة تختلف عن ما جاء عند الرجراجي أو العلماء المسلمين أو كتابات النصارى خلال نهايات العصور الوسطى ، ورغم هذا التباين فإنه يرى وجود بعض التوافق الهام بين الكتابين خصص له فصلاً خاصاً ، ثم استعرض أسماء المؤلفات النصرانية في هذا المجال ، وعرض لنقاط التوافق والاختلاف ، وإن كان قد استبعد التأثير المتبادل نتيجة لعدم فهم اللغة وبعض الصعوبات الأخرى ؛ وهي دراسة تحتاج إلى ترجمة كاملة وإلى مراجعة خاصة لأهميتها بالنسبة للتاثير المتبادل بين الثقافة الإسلامية والنصرانية في العصور المتاخرة بعد القرن الثالث عشر الميلادي .

هداية من تولى

بداية الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

يقول العبد الفقير إلى الله سبحانه « عمر بن محمد الرجراجي » لطف الله به ورحمه ورضي عنه بجوده وفضله .

الحمد لله الذي مَنَّ بحفظه وكلاءته على الأملاك والملوك ، وأظهر من قدرته في إعجاز الفراعنة والقياصرة والأكاسرة ما رفع به الريوب والشكوك ، أزال بصِرْف توحيده عن قلوب المؤمنين الجهلَ والعمى فقال لسيد عبيده : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فالكمال بتوحيد الأفعال مع الذات والصفات ، والمخل بالأول حام حول الحمى ... ظهر بجلاله وجماله لقلوب المؤمنين فملكهم ، وأعرض بعز كبريائه عن قلوب الغافلين فاستملكهم واسترقهم لملاك شتى غير مالكهم ، شرح صدور أهل التوحيد بنور الإيمان فأيقنوا أن مولاهم مالكهم ، فالموحدون بربهم يفرحون ، وبمولويته يفتخرون ، وبذكره بصفات العلو والمجد يستبشرون ، والغافلون ﴿ أَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ فهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وفي قفار أبقاهم يتقلبون ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ . وصلى الله على من أمَّ مقامَ العبودية جميع العالمين ، سيدنا محمد ﷺ ما دام حزب الحق والباطل متعادين .

أما بعد فإن مقام السلطنة نائب عن مقعد النبوة ، فكما وقع العدل في حقه من الصفوة العاملين ، وقع التفريط والإفراط فيه من الجفاة الجاهلين الغافلين ، فلا بد للغافل من علم ذلك ليسلك سبيل المؤمنين وإلَّا تاه في بيداء الضلالة كما تاه عن طريق العدل فيه أكثر الهالكين ، والطريق العدل فيه ينحصر في مقدمة واربعة أبواب : الباب الأول فيما للسلاطين ، الباب الثاني فيما عليهم ، الباب الثالث فيما ينبغي لهم ، الباب الرابع فيما ليس لهم . (ص ٩ - ١٠) .

وبعد أن يبين لنا أهمية وجود السلطان وأن مكانته من أكبر آيات الله تعالى الدالة على توحيده ، ومن النعم التي يجب على جميع الخلق شكرها ، طلب منا أن ننظر إلى « حكمة الله تعالى في تدبير سلطنتهم تلك ففيه عبرة في ترتيب ملكوت الله عز وجل ، وذلك أن لكل طائفة من أعوان السلطان وأنصاره وحجابه ووزرائه وندمائه عملاً يختص به وخدمة يختص بها ، ولكل واحد مقام حُدَّ له لا يتجاوزه ومصلحة لا ينوب فيها غيره فإذا غاب توقف الجيش كله لفقد عمله .

وتصل أوامر السلطان إلى الرعية عبر وزرائه ثم إلى حجابه ثم إلى عماله ثم إلى حفاظه ، ثم إلى عرفائه ثم إلى مشايخ بلاده ثم إلى الوجيه في كل قرية فينفذ لآحاد الرعية فإذا وقعت مظلمة لأحد من الرعية ، رفعها إلى السلطان بهذا التدرج على العكس حتى تبلغ إليه ثم يرد الأمر فيها كذلك ، فأوامر تنزل وأوامر تعرج فسبحان المدبر في ملكوته . ثم إذا وقع للسلطان وجع أو تألم بعض أعضائه وقع بذلك التشويش في جميع مملكته فتتزعزع أركانها ، كلها جسد وهو رأسها ، ثم إن حدث سلطان آخر معه تشوشت كالجسد له رأسان فلا راحة إلَّا بإزالة أحدهما .

طاعة السلطان

يقول الرجراجي : السلطان في قومه خليفة النبي ﷺ في أمته ولما بعث الله نبينا محمداً ﷺ رحمة للعالمين وجعل طاعته في طاعته فقال : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وجعل رسول الله ﷺ طاعته في طاعة أمراء امته فقال في الصحيح : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني » ويُروى « أميري » فإذا تحقق المؤمن أن الله عز وجل غني في هداية خلقه عن الأنبياء بحكمته رحمة للجميع فعرف الحق لأهله ، ثم لا يمنع ذلك من مراعاة حكم الله في الأسباب فيشكر الوسطاء على نحو ما حدّ له الشرع في ذلك .

■ على السلطان أن يكون حازماً في : اختيار العامل العادل ، وإقامة الصلاة في أوقاتها ، ومراقبة القضاة والشهود ، وأن يحترز أن يسمي أحكام القضاة أو الفقهاء أو غيرهم بالشرعية ، لأنهم مجتهدون ، والكمال لله وحده .

■ ليس للسلاطين استعباد الرعية والسماح لهم بالتمادي في مناداتهم بألقاب خاصة بالله سبحانه وتعالى .

■ من واجب المسلمين تقديم النصيحة الصادقة للسلطان دون تجاوزها إلى ما يقلل من هيبته ومكانته .

ويخصص الرجراجي الباب الأول بفصوله الثلاثة لتوضيح ما يجب للسلاطين على الرعية من السمع والطاعة وما لهم عند الله إن استقاموا ويورد الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة التي تأمر بطاعة ولي الأمر أياً كان جنسه أو أصله أو لونه حتى ولو كان عبداً حبشياً مجدَّع الأطراف ، إلَّا من أمر بمعصية ، فلا طاعة للسلاطين إذا أمروا بمعصية ، ولا يجوز الخروج عنهم كيفما كانوا .

ويخصص الفصل الثالث من هذا الباب « في فضل الإمام العادل وثوابه عند الله تعالى » حيث أخرج مالك في موطئه والبخاري في صحيحه ، ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظلُّه ، الإمام العادل ... » فبدأ به ، كما أُخرج قول رسول الله ﷺ « خياركم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » ، قيل : يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف ؟ قال : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة . » وفي الأثر « يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ورضي الله عن ابن المبارك فما أحسن قوله حيث قال :

والله يدفع بالسلطان معضلة
عن ديننا ـ رحمة منه ـ ودنيانا
لولا الخليفة لم تامن لنا سبل
وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

ويختم هذا الباب بما للسلطان على الرعية من الحقوق : « النصيحة » ففي صحيح مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة . قيل لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (ص ٢٣) .

ما ينبغي للسلاطين

خصص الرجراجي الباب الثالث بفصوله التسعة فيما ينبغي للسلاطين حيث قال : ينبغي لهم إذا قدموا عاملاً أن يقولوا له كما قال عمر بن عبد العزيز لعماله إذا ولَّاهم : « إنَّا قد وليناك على عملنا هذا فإن وجدناك أميناً قوياً سخياً شكرناك على أمانتك وأعدناك إلى عملك . وإلَّا ... ... » (ص ٣٢) .

وإذا ظفر السلطان بخائن من عماله فينبغي إذا أخذ ما بيده أن لا يرده عاملاً بعد ذلك ، وإن فعل فقد ظلم الرعية ...

وينبغي للسلطان حفظ أعراض المسلمين كأموالهم أو أشد ، حيث إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى أعراض المسلمين من الحطيئة بثلاثة آلاف درهم .

ومما ينبغي للسلطان إذا خرج الأمر من يده في دفع مظلمة أو قضاء حاجة ألَّا يكون له همٌّ إلَّا إنقاذه ولا يسامح عماله في ترك الأخذ به .

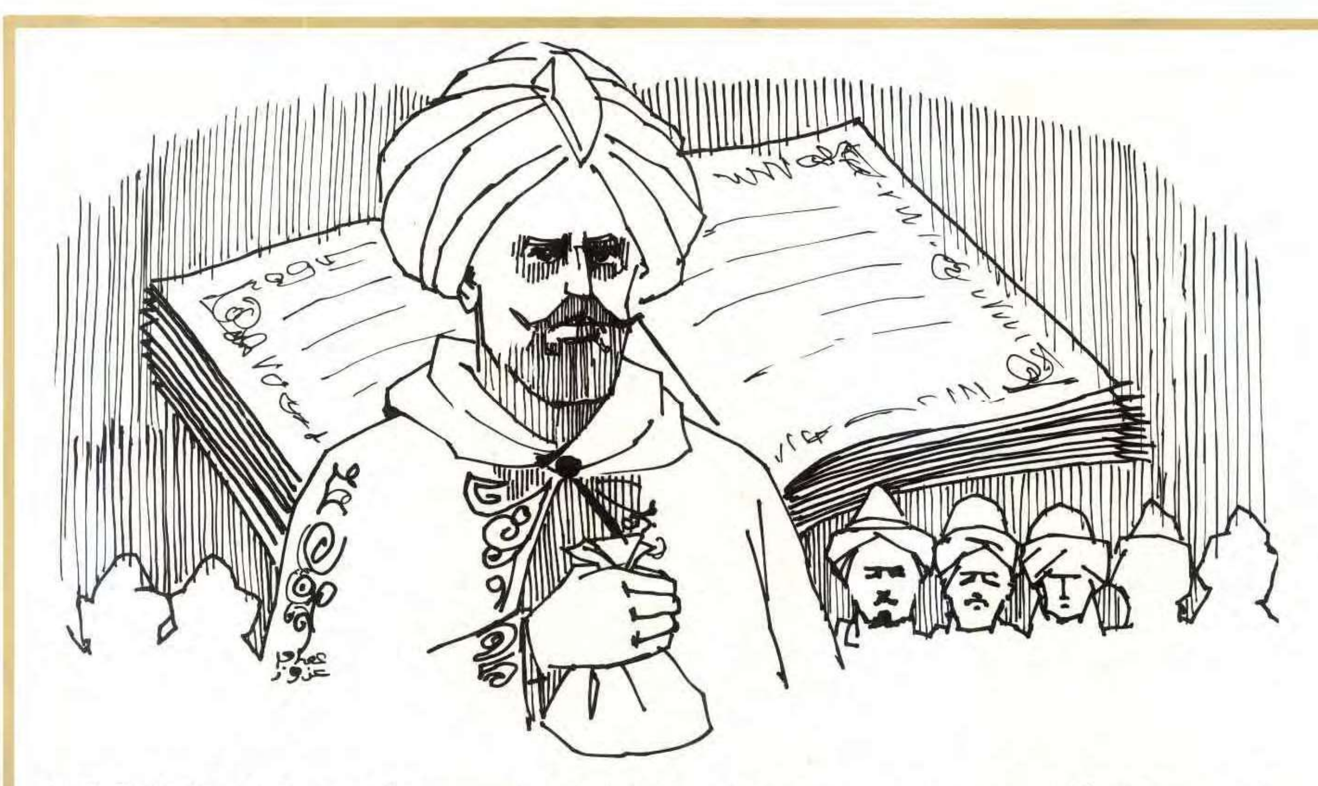
ومما ينبغي للسلطان على سبيل الوجوب أن يجعل أمور الصلوات وإقامتها من أهم الأمور عنده ، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث يكتب لعماله ، إن أهم أموركم عندي الصلاة ، من حفظها وحافظ عليها فقد حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » (ص ٣٤) .

ومما ينبغي للسلطان أن يتفقده ، ولا سيما في زماننا الفاسد ، أمر القضاة والشهود ، أما القضاة فتفقدهم بزجرهم عن الباطل إذا ظهر له فيهم ولا يسامحهم في القليل منه ، فإنه يجر إلى الكثير بخلاف العمال فإنه قد يحسن العفو عنهم بعد أدبهم في بعض الأحيان إذ ليس من تعدى بجهل كمن تجرأ بعلم ، ويجب عليه إذا وقعت نازلة مهمة أن يجمع عليها أهل العلم ببلده ولا يجتزىء بواحد أو اثنين بل كلما كثر الجمع فهو أصلح ليكثر البحث منهم عن مسائل الفتوى (ص ٤٠) .

ما ليس للسلاطين

وهو استعباد الرعية بتسميتهم إيَّاهم بأسماء مولاهم ومالكهم إذ الخلق كلهم عبيد لمولى واحد ، ولا ثاني له يشاركه في اسم من أسمائه أو صفة من صفاته أو فعل من أفعاله وما أُمروا إلَّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إلـه إلَّا هو تعالى عمَّا يشركون . (ص ٥٩) .

ولقد ثبت مما تبين أن المؤمن الكامل يكره له كراهة شديدة أن يقول لغير الله « مولاي » أو « مالكي » إذ لا يستحق ذلك إلَّا مولاه الحق ومالكه المبين وربه الرحمن الرحيم . ويبين لنا الرجراجي الفرق بين المولوية والولاية « فالمولوية خاصة لا يجوز إطلاقها إلَّا في حق الله تعالى من الكامل ، ويجوز إطلاقها من الناقص لغير الله بحكم ظاهر الشريعة ، فإن المولى الحقيقي لا يضاف إليه العبد الحقيقي ، وأما الولي فهو عام في الكامل والناقص : يقال ولي المرأة وولي المحجور ، والمؤمنون بعضهم أولياء



بعض ، والله ولي الذين آمنوا . ثم يعمل بعد ذلك على توضيح آرائه بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي أقوال فقهاء المسلمين ، ويطيل القول في هذا المجال في صفحات طويلة (انظر من ص ٦١ إلى ص ٨٧) .

واعلم بأن السلطان خليفة رسول الله ﷺ على أمته - كما قال أبو الحسن الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » - فمن جملة ما يجب عليه في حق رعيته أن يردهم من الإفراط والتوغل في مدحه والأدب معه بما لا يجوز إلى ما ينبغي له ولهم كما كانت سيرة رسول الله ﷺ ، ويكون ذلك بالعنف مرة إذا علم أن مخاطبه بالمولوية عالمٌ بقبحه ، وباللطف أخرى إذا تخيل جهل المتكلم بذلك (ص ٩٣) .

فإن قلت : فما الذي يصنع من أراد الهداية من الملوك في زماننا وقد شاع الخطاب بالمولوية على ألسنة العامة ، وأكثر الخاصة ، وهل يكفيه أن يغير بقلبه فقط ؟ ، فإنه إن اشتغل بالإنكار على الناس مع كثرتهم ضاع وقته ، وإن تركهم ضيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيأثم ؛ أو لا بد له من الإنكار عليهم بالقول ؟ فأقول : أما ترك الإنكار بالقول والاقتصار على كراهية القلب فلا مندوحة عنه ، إذ لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة . (ص : ٩٥) .

يتناول الشيخ الرجراجي رحمه الله بعد ذلك ماذا يفعل المؤمنون إذا امتحنوا بأمثال من يفرطون في مدح السلطان . فيبين أن طائفة من العلماء اختارت البعد عن سماع خطبهم ، وطائفة أخرى اختارت الانشغال عنهم بالذكر والصلاة بالركوع والسجود ، وطائفة ثالثة اختارت السكوت دون الإنصات ولا يتكلم .

ثم يتناول خطبة الجمعة وصحة جواز ذكر الصحابة والترضي عنهم ، وما يكون فيها من الدعاء للأمراء والخلفاء والحكام وغيرهم ، مستشهداً بخطب للإمام علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وينتقل الرجراجي إلى نقطة هامة جداً في كتابه ، وهي : تزلف العلماء للسلاطين والأمراء والحكام بالأفعال والأقوال ، ويناقش الأسباب التي تؤدي إلى ذلك ، وصحة نسبة بعضهم إلى العلم حقاً ، وما يجب أن يتصف به العلماء والفقهاء من الزهد في الدنيا ، والتواضع والتحلي بالخلق الكريم ، واتباع أحكام الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ .

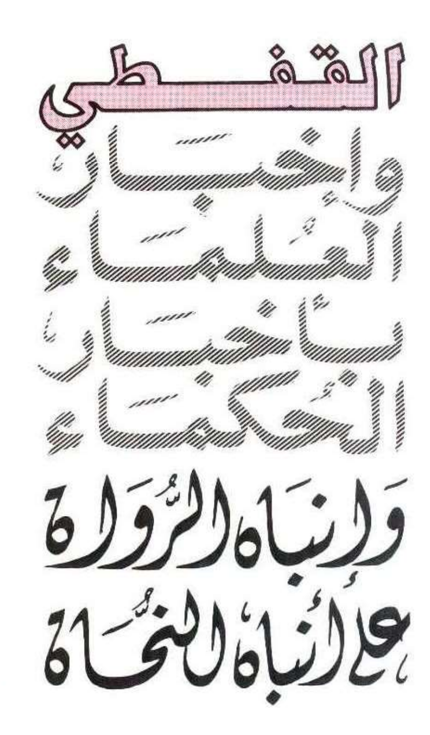
وابتداءً من الصفحة الخامسة والتسعين من النص العربي يقوم المؤلف بتعريف مكانة الله سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين ، وما ينبغي لحق الأنبياء مع أممهم والإذعان لأحكامهم ، مركزاً القول على سيدنا محمد ﷺ ، مع تفسير لآيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية ، ثم يعقد فصلاً خاصاً لحديث رسول الله ﷺ : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » ، وانقسام الناس في هذا المجال إلى أقسام متباينة ، إلى أن يختم الكتاب بالصلاة على رسول الله ﷺ .

بعض الجوانب التاريخية

تعرض الكتاب في ثناياه لبعض الإشارات التاريخية والأسماء المعروفة عند روايته لبعض الأحداث ، خاصة ما يتعلق برواية الصوفي « الجنيد » وأصحابه مع الخليفة المتوكل الواردة بالنص في الصفحات من ٤٨ إلى ٥٧ ، ولاحظ محقق الكتاب عدم دقة الروايات التاريخية وأن هذه الرواية لا تستقيم من الناحية التاريخية لسبق وفاة الخليفة المتوكل لكل من « النوري » و « الجنيد » ، وأشار إلى أن هذه الرواية الصوفية قد وردت مراراً وتكراراً في كتب التصوف الإسلامي عامة ، وأن أحداثها قد جرت أمام أكثر من خليفة ؛ ويرى أن كاتب « الهداية » الرجراجي قد خلط بين شخصيتين : الأولى « للنوري » صاحب الجنيد ، والثانية « لذي النون المصري » الذي عاش ما بين ١٨٠/ ٢٤٦هـ - ٧٩٦/ ٨٦١م والمدان من قِبَل الفقيه المالكي المصري عبد الله بن الحكم ؛ وسجن ذو النون في بغداد في حوالي عام ٢٥٥هـ/ ٨٥٠م ، وعرض بالفعل يوماً ما على الخليفة المتوكل للنظر في أمره ، والخطأ والخلط بين الاسمين محتمل جداً .

بالإضافة إلى ذلك أشار المحقق إلى اختلافات تاريخية أخرى وإلى تباين الأسماء ، وختم هذه الملاحظات بقوله بأننا لن نعطي أهمية إلى هذا الجانب التدويني ، وذلك لأن للهداية رسالة مختلفة .

ويقع النص العربي من الكتاب في مائة وأربع عشرة صفحة من الحجم المتوسط ، أما الدراسة الإسبانية وترجمة النص العربي إلى الإسبانية فقد شغلا مائتين وثلاثين صفحة من الحجم نفسه ، وكان هذا العمل (التحقيق والدراسة) رسالة دكتوراه قدمها الدكتور « خوستيل » عام ١٩٧٤م ونشرت مؤخراً بالمعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد .



□□ جَمّ الفضل ، كثير النبل ، عظيم القدر ، سمح الكف ، طلق الوجه ، حلو البشاشة كنت ألازم منزله ويحضر أهل الفضل ، وأرباب العلم فما رأيت أحداً فاتحه في فن من فنون العلم كالنحو ، واللغة ، والفقه ، والحديث وعلوم القرآن ، وأصول المنطق ، والرياضة ، والنجوم ، والهندسة ، والتاريخ ، والجرح والتعديل ، وجميع الفنون على الاطلاق إلا قام به أحسن قيام وانتظم في وسط عقدهم أحسن انتظام □□

حياته

لم يبلغ أحد من معاصري **القفطي** مبلغ ماوصل إليه من نباهة الذكر وبعد الصيت ، **حتى إن الباحث المعاصر الذي يريد أن يؤرخ له يجد نفسه أمام مادة علمية غزيرة في كل جانب من جوانب حياته ، تفيض بها كتب الطبقات والتراجم والسير ، تجعل الباحث يقف حائراً أمام هذه الشخصية ماذا يأخذ في حديثه عنها وماذا يبقي** ؟ .
وقد يكون ذلك راجعًا إلى عوامل عديدة لعبت دوراً هاماً في حياة صاحب هذه الترجمة لعل من أهمها عراقة **أصله وصراحة** نسبه ، فهو من **قبيلة شيبان** إحدى القبائل العربية الأصيلة التي نزحت من **الكوفة إلى مصر** منذ أوائل **الفتح الإسلامي** ، وانتشرت في الشمال والجنوب ، وطاب لها العيش وامتدت بها أسباب الحياة .

وإذا كان الأمر كذلك مع نسبه فلابد أن تكون أسرته التي نشأ بين أحضانها على جانب من الفضل والكرم والعلم ، فقد كان والده : يوسف بن ابراهيم الملقب **بالقاضي الأشرف** كما يجمع كثير من المؤرخين الذين تحدثوا عنه ، كريمًا فاضلاً ، كاتباً ناصع البيان ، متصرفاً في ضروب الانشاء ، حسن الترسل ، مليح الخط ، له علاقات قوية بسلاطين عصره من الأيوبيين الذين أنزلوه منهم منزلة كريمة وولوه أعمالاً بالصعيد لثقتهم البعيدة فيه ، وكانت أمه أيضا امرأة من بادية العرب من قضاعة ، صالحة ، حسنة العبادة ، فصيحة اللهجة ، تحفظ كثيراً من أشعار العرب وأمثالهم وحكمهم ، نضيف إلى ذلك أثر البيئة التي نشأ بها صاحبنا وقضى فيها شرخ شبابه ، وهي بيئة مدينة (**قفط**) من صعيد مصر الأعلى ، والتي كانت آنذاك إحدى توابع إقليم يعرف بالأعمال القوصية نسبة إلى مدينة (قوص) التي كانت عاصمة له ، نقول : إن هذه المدينة كما وصفها كثير من الرحالة والجغرافيين العرب كانت طريقاً للحج آمناً مرغوباً فأكسبها ذلك صيتاً بعيداً في ازدهار أسواقها ، وكثرة تجاراتها وخيراتها ، وكان ذلك سبباً في أنها جذبت اليها كثيراً من العلماء والفقهاء والمحدثين وهم في طريقهم إلى الحج ، فعمرت مساجدها ومدارسها وأنديتها بهؤلاء العلماء الأجلاء الذين طاب لهم أن يعقدوا حلقات الدرس والوعظ ، وازدهرت على إثر ذلك الحركة العلمية بمدينة (**قفط**) وقصدها الدارسون والباحثون فنشطت نشاطاً ملحوظاً كما نشطت مدينة (**قوص وقنا وأسنا وأسوان**) وغيرها من مدن الصعيد .

وفوق كل هذه العوامل هناك عامل قوي له أثر على ثقافة **القفطي** ودراساته ، وهو كثرة أسفاره ورحلاته ، فقد لازم والده ملازمة الظل في كثير من هذه الأسفار فرحل إلى **القاهرة ، والاسكندرية ، وبيت المقدس ، وحلب ، وكانت الحياة الثقافية في عصر سلاطين الأيوبيين سواء في مصر أو الشام على جانب كبير من التقدم والرقي** ،وكانت هذه المدن بصفة خاصة مقصد كثير من العلماء والفقهاء ، بالإضافة إلى كثرة جوامعها ومدارسها وخزائن الكتب بها ، ولا يفوتنا قبل أن نختم حديثنا عن العوامل التي أثرت في شخصية قاضينا الأكرم وعملت على تخليد ذكرها ووضوح تاريخها أن نشير إلى **لقائه في مدينة حلب بالمؤرخ والجغرافي** المعروف (**ياقوت الرومي**) وأثر ذلك على تقوية روابط الصداقة بينهما ، وكان سبب ذلك هو أن القفطي قد أكرم « **ياقوتاً** » وأفسح له من داره في حلب حينما استغاثه برسالة بعث بها إليه من **الموصل** وقد تعرضت لهجوم عنيف من قبل **التتار** ، وظل ياقوت مدى حياته معترفاً بجميل **القفطي** هذا وقد سجل له في كتابه « **معجم الأدباء** »حديثاً خاصاً عن نشأته وحياته وثقافاته وعلومه ونوادره استنفد أكثر من تسع وعشرين صفحة ، بالاضافة إلى أن « ياقوتاً » أيضاً أثناء حديثه عن مدينة (قفط) في معجم بلدانه نراه يفيض في الثناء على القفطي وأصله وعشيرته .

كل هذه العوامل مجتمعة كان لها أبعد الأثر في تكوين شخصية **القفطي** العلمية وخلود ذكرها ، ونحن في هذه السطور القليلة سوف نعطي صورة سريعة عن حياة هذه الشخصية وثقافتها وآثارها العلمية التي ما زالت موضع اهتمام الدراسين والباحثين حتى يومنا هذا .

مولده ونشأته :

في أحد ربيعي سنة ثمان وستين وخمسمائة (٥٦٨هـ) ولد بمدينة (قفط) علي بن يوسف بن إبراهيم .. بن شيبان المكنى بجمال الدين أبي الحسن القفطي نسبة إلى(قفط) المعروف بالقاضي الأكرم ، وقد أطلق عليه هذا اللقب حينما ولي منصب القضاء بحلب في عهد العزيز ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي (٦٣٣هـ) . وقد قضى صاحبنا في مسقط رأسه (قفط) **شطراً يسيراً من حياته ، لأنه كان دائب السفر مع ولده إلى القاهرة والفسطاط (مصر) وكان على عادة الشباب في مثل سنه كثير المرح واللعب .**

اتجه **القفطي** بعد ذلك إلى الدرس وتحصيل العلوم ، فحفظ ، جرياً على العادة المتبعة في ذلك الوقت ، القرآن الكريم ، ونهل من موارد العلم والثقافة على يد من كان في بلدته من العلماء ولم تلبث (قفط) آنذاك أن تعرضت **لثورة عارمة بين الشيعة والسنة** ، فرأى والده أن يفارق البلاد طلباً للعافية وإيثاراً للسلامة ، فاتجه في (٥٧٥هـ) مصطحباً ابنه إلى **القاهرة** .ولم يكن قد بلغ أربعة عشر ربيعاً .

أســـــفاره .. شيوخـــــــه وثقافاتـــــه :

كانت القاهرة في ذلك الوقت مركز اشعاع فكري وثقافي ليس له شبيه في المشرق والمغرب ، فجوامعها ومدارسها تفوق كل حصر ، كما أن علماءها وفقهاءها في كل علم وفن يجلّون عن الوصف ، بالاضافة إلى وفرة خزائن الكتب بها ، فقد شاهد القفطي هذه النهضة العلمية الواسعة التي كانت عليها القاهرة فانبهر بها ، واتجه بكليته يأخذ من معين هذه الثقافة الذي لا ينضب ، فالتف حول الكثير من هؤلاء العلماء يأخذ عن أيديهم ، ويستفيد من علمهم ومعرفتهم ، وكان من بين هؤلاء الذين تأثر بهم : **محمد بن محمد بن بنان الأنباري ، وهو من المشايخ الأجلاء الذين صاحبهم القفطي** وسمع منهم كتاب (**الصحاح للجوهري**) ثم اتجه بعد ذلك إلى **الاسكندرية** حينما سمع بأخبار شيخها الجليل : **أبي طاهر** فانتظم في حلقة الطلاب الذين وفدوا عليه واستفاد كثيراً على يديه ، ثم نراه بعد ذلك يتوق شوقاً إلى مسقط رأسه (**قفط**) فيأخذ طريقه إليها ، وهناك يلتف حول علمائها وفقهائها وأدبائها ،

وكان ممن التقى بهم من العلماء : **صالح بن عادي العذري ، نزيلها ، وهو عالم نحوي معروف في الصعيد** في ذلك الوقت ، فلزمه **القفطي** فاستفاد منه ، ثم رجع ثانية إلى **القاهرة** ، ولكنه لم يستمر طويلاً بها فاتجه منها في (٥٩١هـ)إلى **بيت المقدس في صحبة والده الذي** عين من قبل **العزيز بن صلاح الدين الأيوبي** ، والياً عليه ، وقد طاب له المقام **في بيت المقدس** زمناً ، **فأحب أهله** وأحبوه ، واطمأن إليهم واطمأنوا إليه ، وعرضوا عليه منصباً لكنه رفض ذلك مؤثراً التردد على مجالس العلم والعلماء والدرس والتحصيل ، لكن **بيت المقدس** لم يلبث أن تعرض للفتنة وعصفت به الأقدار ، فتفرق الشمل واتجه **الوالد** إلى مدينة **حرَّان** ومنها إلى **ذي جبله** ببلاد **اليمن** ، وأمضى بهذه المدينة بقية حياته **إلى أن توفي**

ودفن فيها (٦٢٤هـ) على حين اتجه الابن إلى مدينة حلب التي كانت في ذلك الوقت من أهدأ المدن وأبعدها صيتاً في مجال الثقافة والمعرفة ، وذلك ما تتوق إليه نفس **القفطي** ، فعاش بين ربوعها آمناً مطمئناً ، وتعرف فيها على ميمون القصري الذي كان صديقاً حميماً لوالده ، ورفيقه في رحلته إلى **حلب** ، وكان يحظى بنفوذ ومكانة عند صاحب هذه المدينة ، وهو الملك غازي المعروف **بالظاهر ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي** ، ولقد كلف **القفطي** كلفاً شديداً منذ دخوله حلب باقتناء الكتب وجمعها ، وأنفق في ذلك كثيراً من الجهد والمال ، وكرس وقته في حفظ وترتيب ما اجتمع لديه من هذه الكتب **حتى أصبح صاحب أكبر خزانة كتب في هذه المدينة وأصبحت داره من ثم قبلة الورَّاقين ومقصد النساخين ، يجلبون له الكتب والأسفار من كل صوب وحدب** ، وهو يضاعف لهم الثمن ويجزل في العطاء ، وقد قال عنه **ابن شاكر الكتبي** في ذلك :(**إنه قد جمع من الكتب ما لا يوصف ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ، ولم يكن له زوجة ، وأوصى بمكتبته للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوي خمسين ألف دينار**).

وكان من بين المترددين عليه في حلب المؤرخ والجغرافي المعروف : **ياقوت الرومي** ،الذي سبق أن أشرنا إلى علاقته به ، وبينما **القفطي منقطع للبحث والتحصيل والاعتناء بالكتب وجمعها إذ ألزمه** ميمون القصري لثقته به بالوزارة فقبل ذلك على كره منه ،لكنه قام بهذا العمل خير قيام ، وظل كذلك حتى وفاة ميمون (٦١٠ هـ) ومن ذلك الحين لم يجد القفطي بداً من الخلود إلى نفسه والاشتغال بالعلم والدرس ، فانقطع عن الناس ولزم داره ،

ولم يلبث أن أصدر له السلطان أمراً بتولي منصب القضاء فلم يتقاعس ، لا حباً في هذا المنصب ، ولكنه لم يكن يملك أن يعصي للسلطان ، الذي كان يجلّه ويقدره ويثق به أمراً فتقلد هذا المنصب في (٦١٦ هـ) واستمر شاغلاً له حتى (٦٢٨ هـ) يسوس الأمور أحسن سياسة ، ويرعى مصالح الناس خير رعاية : وقد أورد ياقوت في معجم أدبائه كثيراً من المواقف المشرفة التي تدل على ذلك ، ومن هنا لقبه العام والخاص بـ (**القاضي الأكرم**) ولكنه طلب من السلطان اعفاءه من هذا المنصب كي يستريح وينقطع للتأليف والكتابة ، فأجابه السلطان إلى طلبه ، فلازم قاضينا الأكرم الخلوة واعتزل الناس مشتغلاً بالتصنيف والتأليف ، وظل كذلك إلى أن توفي سنة (٦٤٦ هـ) ودفن في حلب بمقام الخليل عليه السلام ، وبهذا تنتهي حياة علم من أعلام الفكر والثقافة الإسلامية ظل ثمانية وسبعين عاماً شاهد خلالها كثيراً من الاضطرابات والفتن التي حلت بالعالم الاسلامي ، وتقلد فيها مناصب عدة لم تحل بينه وبين أن يقول كلمة الحق ، وأن يسعى بين الناس بالبر والمعروف حتى استولى على مجامع قلوبهم وأنزلوه منهم منزلة رفيعة .

بقلم :

محمـد عبـده الحجـاجـي

موضوع الكتاب

آثـــــاره العلميـــــــة :

لقد ترك **القفطي** أكثر من خمسة وعشرين مؤلفاً في كثير من الفنون والمعارف ، وبصفة خاصة في التاريخ ، وقد عد **ابن شاكر الكتبي** من هذه المؤلفات سبعة عشر مؤلفاً ، كما أن **ياقوت الرومي ، والادفوي ، والأسيوطي** قد ذكروا في مؤلفاتهم جانباً كبيراً من تراث القفطي ، لكنه مع الأسف الشديد قد فقد أغلبه **وقد يكون السبب في ذلك راجعاً إلى غارات التتار**التي توالت على **مدينة حلب** وما صاحبها من تدمير وتخريب ، إلا أن الأيام قد حفظت لنا أثرين خالدين من آثار صاحب هذه الترجمة هما : (**إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، وإنباه الرواة على أنباه النحاة**) وما زال لهذين الأثرين فائدتهما الجليلة وقيمتها العلمية بين أمهات تراثنا الاسلامي ، لا يستغني عنهما أي باحث أو دارس حتى يومنا هذا ، ويجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة أمام هذين الأثرين نقلب صفحاتهما علّنا نعطي للقارىء الكريم صورة سريعة عن مضمونهما .

أما كتابه : **إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، المعروف بـ(تاريخ الحكماء**) فقد وصل إلينا مختصراً وهو يحتوي على (٤١٤) ترجمة للاطباء والنحويين والعلماء منذ أقدم العصور حتى أيام المؤلف ، ويعتبر هذا الكتاب على جانب كبير من الأهمية **لأنه معين لا ينضب من المعلومات الخاصة بمعارف العرب عن مؤلفات الاغريق** ، وهو يحمل بين دفتيه الكثير من آثارهم التي لم تحفظها الكتب القديمة ، وقد طبع هذا الكتاب **سنة ١٣٢٠هـ** في ليبزغ ، وقد طبع في القاهرة في مطبعة السعادة **سنة ١٣٢٦هـ** .

وأما : **إنباه الرواة على أنباه النحاة** ، وهو يحمل أكثر من اسم ، وفي رواية أنه **إثبات الرواة على أثبات النحاة** . وقد ذكره **السيوطي في حسن المحاضرة ، وفي بغية الوعاء بتاريخ النحاة** ،وذكره **ياقوت** في معجم أدبائه بأخبار النحويين ، وهو يعتبر من المعاجم التي عرفها **عصر الأيوبيين** ، ويقع في أكثر من جزء ترجم فيه أكثر من ألف ترجمة لمشايخ علمي النحو واللغة من عصر **أبي الأسود الدؤلي حتي عصر المؤلف ، بالاضافة إلى أنه** اشتمل على تراجم كثيرة للقراء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمتصوفين والأدباء والشعراء والكتاب والمؤرخين والمنجمين في مختلف العصور ، أي أن مؤلفه لم يتقيد فيه بعصر دون عصر ،كما أنه شمل كل من كان له شأن يذكر من الاعلام في مختلف الفنون في أرجاء العالم الاسلامي ، شرقه وغربه ، ولم يشر المؤلف إلى التاريخ الذي بدأ فيه هذا الكتاب أو الذي انتهى منه . والراجح أنه ألفه في فترات طويلة ، وقد رتبه على حروف المعجم حتى يسهل استخدامه .

وقد اعتنى بهذا الأثر الاسلامي الجليل المحقق الكبير الأستاذ **محمد أبو الفضل ابراهيم** وتوفر على تحقيقه وترجم لحياة المؤلف ترجمة مستفيضة ، أخرجه في ثلاثة أجزاء ، فخدم بذلك المكتبة العربية خدمة جليلة ، وقد اعتنت دار الكتب المصرية بالقاهرة بطبعه سنة **١٩٥٠م** . وقد كان للقفطي بجانب هذه المؤلفات والآثار كثير من الرسائل الديوانية والاخوانية التي أورد **ياقوت** منها شطراً كبيراً بجانب أنه يقرض الشعر ، وقد كان **القفطي** في كل ماكتب يتميز في أسلوبه بتنميق اللفظ والاحتفال بالسجع ، **كما كان يميل إلى التورية والجناس والاستشهاد بالنظم** .



ابن خلكان و وَفيات الأعيان

□□ قيل في وجه تسميته خلكان « بفتح الخاء وكسر اللام المشددة » ان جده كان يفتخر يوماً في مجلس كان له على بعض قرنائه بمفاخر آبائه الذين هم البرامكة المشهورون فقيل له في ذلك « خل كان » بمعنى دع كان أبي كذا وجدي كذا ونسبي كذا وحدثنا عن نفسك فذهبت لقباً وكنية عليه وعلى أولاده وأحفاده من بعده .

بقلم :
محمد عبده الحجاجي

حياته

أربل مدينة كبيرة ، وقلعة حصينة تقع بالقرب من الموصل على شاطىء نهر دجلة الشرقي ، وبينهما مسيرة يومين ، وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام وأكثر .. أهلها أكراد قد استعربوا ، وقد بلغت هذه المدينة أوج عظمتها في عهد الأمير مظفر الدين صهر السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أخضع إليها الإمارات الصغيرة المجاورة لها ، كما ضم إليها أيضاً بعض الأقاليم ، فاتسعت رقعتها واستوطنها عدد كبير من الأجانب ، فغدت من أهم المدن التي تقع على شاطىء نهر دجلة الشرقي ، وقد شملها هذا الأمير بالعديد من المنشآت كالأسواق والمنازل الفاخرة والجوامع والمدارس التي **من أشهرها المدرسة المظفرية نسبة إليه** ، **كما أنه كان كثيراً ما يقيم بها الذكريات والمواسم الدينية الباهرة التي تجلب إليها الزوار** من كل صوب وحدب ، ومن أهم هذه الذكريات مولد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان **يحتفل به احتفالاً فخماً مصحوباً بسوق تجارية هامة** ، وقد أدى ذلك إلى نشاط الحركة العلمية بها حيث قصدها كثير من العلماء والفقهاء الذين تولوا التدريس بالمدرسة المظفرية ، وقد خرج منها العديد من الأعلام المبرزين من أشهرهم والد صاحب هذه الترجمة ، وأبو البركات بن المبارك بن أحمد المبارك المستوفي وغيرهما .

وفي هذه المدينة ولد شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الشافعي البرمكي ، في يوم الخميس بعد صلاة العصر الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨هـ - ١٢١١م وقد قيل : **إنه من بيت كبير في العراق ينتسب إلى البرامكة ، لذلك فإن كثيراً من الذين تحدثوا عنه من المؤرخين يضيفون كلمة « البرمكي » إلى آخر اسمه نسبة إلى هؤلاء .**

وقد استكثر عليه أهل الشام نسبه هذا وطعنوا في صحته ، فأصابه من ذلك ضيق وغم شديد ، فسأل بعض أصحابه ذات يوم عما يقول أهل الشام فيه فاستعفاه ، فلما ألح عليه كان مما قاله له : **إنك تكذب في نسبك** . فأجابه ابن خلكان : **أما النسب والكذب فيه فإذا كان لابد منه** كنت أنتسب إلى العباس أو إلى **علي بن أبي طالب** ، أو إلى أحد من الصحابة ، وأما النسب إلى قوم لم يبق منهم بقية وأصلهم قوم مجوس فما منه فائدة ..

هذا من حيث نسبه ، أما أسرته فقد كانت معروفة بالفقه وولاية المناصب الدينية ، فكان والده يتولى التدريس بالمدرسة المظفرية بأربل ، وتخرج على يديه الكثير من المريدين ، وكانت له سمعة عظيمة بين علماء عصره ومنزلة كريمة لدى سلطان بلده .

نشأ ابن خلكان في أربل بين أحضان هذه الأسرة يتيماً ، فقد تُوفي والده سنة (٦١٠هـ) وهو لم يزل طفلاً بعد ، فتربى في حجر بعض أفراد أسرته هو وأخ له يدعى بهاء الدين محمد بن خلكان ، الذي تولى القضاء ببعلبك ، وله كتاب في التاريخ بعنوان « التاريخ الأكبر في طبقات العلماء وأخبارهم » ، وتُوفي سنة (٦٨٢هـ) .

ثقافة ابن خلكان وشيوخه ..

لم يحدثنا أحد من المؤرخين الذين أرَّخوا له ، أو الدارسين المحدثين عن نشأته الأولى بشيء من الوضوح والتفصيل ، كما هو مألوف عندما يتحدثون عن علم من الأعلام في أي علم وفن ، والراجح أن ابن خلكان قد عانى بعد وفاة والده ، لكنه استطاع أن يتغلب على الصعاب التي صادفته في حياته ، وشق لنفسه طريقاً واضحاً في جانب حياته الثقافية بصفة خاصة ، بجده ومثابرته ، وقد ساعده على ذلك أن مسقط رأسه أربل كانت محط رجال كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء أثناء طوافهم في العواصم الاسلامية شرقاً وغرباً ، وقد أكد هو ذلك في كتابه « **وفيات الأعيان** » في كثير من التراجم التي أوردها بقوله : ولقد جاءنا في بلدنا في سنة كذا ... الشيخ ، أو ولقد رأيت في سنة ... في مدينة أربل العالم ... أو ولقد سمعت في سنة ... من الفقيه ...

ومن ذلك نستطيع أن نقطع بأن ابن خلكان قد نال حظاً عظيماً من الثقافة وهو في شرخ شبابه ، في مسقط رأسه أربل ، وكان يزامله في دراساته هذه أخوه بهاء الدين ، فمن هؤلاء العلماء والفقهاء الذين زاروا أربل في عصره وتصدروا التدريس فيها :

الشيخ الصالح أبو جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله الصوفي الذي سمع منه صحيح البخاري .

والشيخ أثير الدين المفضل أبو عمر بن المفضل الأبهري الذي أخذ عنه الحديث .

كما سمع كتاب « **التنبيه في الفقه** » من الشيخ أحمد بن موسى بن يونس الأربلي .

وأخذ الأدب على يد جمال الدين أبو المظفر عبد الرحمن .

ولم يكتف ابن خلكان بذلك ، بل كان كثير التردد على الموصل التي لا تبعد كثيراً عن أربل ، والتي كانت تمتاز بنهضتها العلمية الواسعة آنذاك ، واستطاع من خلال تردده على هذه المدينة أن يضيف إلى ثقافته التي أخذها من العلماء في أربل الشيء الكثير ، فازداد في علوم الفقه على كمال الدين بن يونس وغيره ، وكذلك في مختلف الفنون .

وفي سنة (٦٢٦هـ) بدأت نفس ابن خلكان تتوق إلى مجال أرحب في الثقافة والمعرفة ، فاتجه إلى السياحة والطواف في العواصم الاسلامية ذات الشهرة والصيت البعيد في النهضة العلمية ، وكان في أي بلد ينزله ، أو في أي حلقة من حلقات الدرس يوجد بها ، يكون موضع رعاية واهتمام بالغ عند شيوخها وعلمائها ، وذلك لأن شخصية والده ومكانته العلمية بين مختلف الشيوخ والعلماء في كل قطر ومصر كانت تسبقه في حلّه وترحاله ، ففي حلب نراه ينزل في ضيافة قاضيها أبي المحاسن المعروف بابن شداد الذي كانت تربطه صلة وطيدة بوالده ، فيقيم في مدارسها معززاً مكرماً ، وتتاح له كل السبل والامكانات للالتقاء بشيوخها وعلمائها ، يتلقى على أيديهم ، ويستفيد من واسع علمهم ، ومن هؤلاء :

الشيخ نجم الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن الخباز الذي قرأ عليه كتاب « الوجيز » للإمام الغزالي ، كما قرأ كتاب « اللمع » لابن جني على يد أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش ، وأخذ في علوم الفقه على الأمام الجواليقي ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى دمشق ليلتف حول علمائها في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وعلوم اللغة .. من أشهر هؤلاء أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن الذي يصفه قائلاً : انه كانت له مشاركة في فنون عديدة وكانت فتاويه مسددة وهو أحد مشايخي الذين انتفعت بهم .

وفي سنة (٦٣٦هـ) يأخذ طريقه إلى القاهرة ، وكانت القاهرة في ذلك الوقت مركز إشعاع فكري وثقافي عز نظيره في سائر العواصم الاسلامية ، فأتاح له ذلك فرصة لمزيد من الثقافة والمعرفة ، بالاضافة إلى مزيد من الروابط والصلات بين العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ممن خالطهم بالقاهرة ، منهم الشاعر المعروف البهاء زهير ، ويحيى بن عيسى المعروف بابن مطروح ، الذي حضر الصلاة عليه وباشر دفنه كما يقول في ترجمته له .

وبعد هذا الطواف ، وهذه السياحات المتعددة ، وهذه المخالطة والمصاحبة للعديد من الشيوخ والعلماء في كل قطر ومصر ، وفي كل علم وفن ، تأخذ شخصية ابن خلكان العلمية طريقها إلى الاكتمال والازدهار ، وقد ساعده في كل ذلك استعداد فطري سليم ، فقد كان جيد القريحة ، حلو المذاكرة ، كثير الاطلاع ، فصيح المنطق .

ابن خلكان القاضي والمدرس

بدأت شهرة ابن خلكان بعد ذلك تتسع وتمتد ، وبدأ اسمه يتردد في مختلف الأوساط القضائية والعلمية في القاهرة ، فاختير على إثر ذلك نائبا لقاضي القضاة يوسف بن الحسن السنجاري ، وظل شاغلاً لهذا المنصب حتى ٦٥٩هـ ، ثم تولى بعد ذلك منصب قاضي قضاة دمشق عدة أعوام في عهد الظاهر بيبرس حتى عزل في سنة (٦٦٩هـ) ، وظل مصروفاً عنه سبع سنوات اتجه خلالها إلى القاهرة حيث شغل منصب التدريس بالمدرسة الفخرية ، ثم رُدّ بعد ذلك إلى قضاء الشام لمدة أربعة أعوام ثم عزل سنة (٦٨٠هـ) ، واشتغل بالتدريس في المدرسة الأمينية في دمشق ، وظل كذلك إلى أن توفي في دمشق يوم السبت ١٦ رجب سنة ٦٨١هـ - ٢١ أكتوبر ١٢٨١م ، ودفن من الغد بسفح قاسيون عن ثلاث وسبعين سنة .

ولقد كان يرحمه الله في قضائه إماماً فاضلاً عارفاً بالمذهب ، حسن الفتوى وافر الحرمة ، لا يجسر أحد أن يذكر أحداً عنده بغيبة .

حكي أنه جاءه إنسان فحدَّثه في أذنه أن عَدْلَين (العدل : الرجل موضع الثقة الذي يعدل بين الناس بالحق ، وجمعه : عدول) في مكان يشربان الخمر فقام من مجلسه ودعا برجل ، وقال : اذهب إلى مكان كذا وأمر من فيه بإصلاح أمرهما وإزالة ما عندهما .. ثم عاد فجلس مكانه إلى أن علم أن نقيبه قد حضر ، فدعا بذلك الرجل وقال : أنا أبعث معك النقيب فإن كنت صادقاً ضربتهما الحد ، وإن كنت كاذباً أشهرتك وقطعت لسانك ، وجهز النقيب معه فلم يجدوا غير صاحب البيت وليس عنده شيء من ذلك ، فأحضر الدرة وهدده ، فشفع النقيب فيه ، فقبل شفاعته ، ثم أحضر له مصحفاً وحلّفه ألّا يعود ليقذف مشاعر أحد من المسلمين ، كما كان في درسه بصيراً بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيام الناس ، يقول عنه ابن كثير (أحد الأعلام الفضلاء والسادة العلماء والصدور والرؤساء ، وقد كان ينظم نظماً حسناً رائعاً ، وكانت محاضراته في غاية الحسن) .



موضوع الكتاب

إذا ذكر ابن خلكان فإنما يذكر كتابه المعروف (**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**) ، الذي سد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية في تراجم الأعلام في مختلف الفنون ، وفي كل قطر ومصر من أمصار العالم الاسلامي ، وقد مدح هذا العمل الجليل وقدره كثير من المؤرخين في عصره مثل ابن كثير في « **البداية والنهاية** » وابن العماد الحنبلي في « **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** »

والمرزا محمد باقر في « **روضات الجنان** » وابن شاكر الكتبي في « **فوات الوفيات** » الذي قال فيه : « فلما وقفت على كتاب « وفيات الأعيان » لقاضي القضاة ابن خلكان قدس الله روحه ، وجدته من أحسنها وضعاً لما اشتمل عليه من الفوائد الغزيرة والمحاسن الكثيرة .. » .

وقد بدأ ابن خلكان في كتابة مؤلفه هذا بالقاهرة عام ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م لكنه اضطر إلى الانقطاع عن المضي فيه أثناء ولايته القضاء في دمشق وأتمه في الثاني عشر من جمادى الآخرة عام ٦٧٢هـ - ١٢٧٤م ، ويقول في المقدمة :

« هذا مختصر في التاريخ دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة ، وتواريخ وفياتهم ، ومواليدهم ، ومن جمع منهم كل عصر ، فوقع لي منه شيء حملني على الاستزادة وكثرة التتبع فعمدت إلى

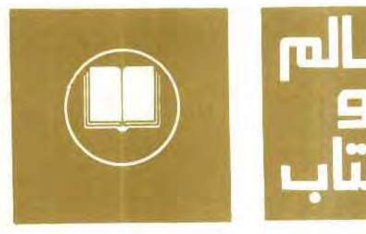
مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن ، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين له ما لم أجده في كتاب ، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة ، وغلق على خاطري بعضه ، فصرت إذا احتجت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه إلا بعد التعب في استخراجه لكونه غير مرتب ،

فاضطررت إلى ترتيبه على حروف المعجم أيسر منه على السنين ، فعمدت إليه ليكون أسهل في التناول ... ولم أذكر في هذا المختصر أحداً من الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا من

التابعين رضي الله عنهم إلاّ جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس إلى معرفة أحوالهم ، وكذلك الخلفاء لم أذكر أحداً منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب ، لكن ذكرت جماعة

من الأفاضل الذين شاهدتهم ونقلت عنهم أو كانوا في زمني ولم أرهم ليطلع على حالهم من يأتي بعدي .. ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء ، بل كل من له شهرة بين النّاس ويقع السؤال عنه ، ذكرته وأتيت من أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كي لا يطول الكتاب ، وقيدت من الألفاظ ما لايؤمن تصحيفه ، وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيملّه ... » .

يتضح لنا من خلال هذه السطور التي وردت من هذه المقدمة أن **ابن خلكان** أفرغ كل الأسباب والدوافع التي حملته على تدوين هذا العمل ، كما أنه لم يقصره على طائفة معينة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء بل جعله لكل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ، وقد بذل ابن خلكان من العناية في تحقيق نسب كل واحد وسنة ولادته وسنة وفاته ، كما أنه تحرى الدقة في تحقيق الأعلام وضبطها وتقييمها بالحركات ليسهل نطقها ، ومما يؤخذ على هذا المؤلَف أن صاحبه قد رتب فيه الاعلام على أسماء أصحابها وان لم يشتهروا بها كما فعل أكثر أصحاب المعاجم التاريخية في ذلك العصر ، فهم يترجمون ابن سينا مثلاً بباب الحاء لأن اسمه **الحسين وصلاح الدين الأيوبي** بباب الياء لأن اسمه **يوسف** على أن هذا يمكن استدراكه بوضع فهرس أبجدي بعد الطبع ، بالإضافة إلى أن **ابن خلكان** على الرغم من نزاهته وميله للإنصاف إلاّ أنه لم يتخلص من بعض النزعات العصبية أو المذهبية ، فمرة يمدح ويسرف في المدح ، وأخرى ينتقص من حق صاحب الترجمة إلى حد أنه يفسد عليه شهرته ، وهذه مآخذ يسيرة لا تنقص من قدر هذا المؤلف ولا من قدر صاحبه ، فهو يساوي مئات من الكتب وهو ذخيرة علم وأدب وتاريخ ولغة ، جمع فيه زبدة ما ألّفه العلماء قبله في تراجم الرجال وأضاف إليه ما عرفه هو من معاصريه ، وحقق ودقق وتزيد عدد التراجم فيه على ثمانمائة ترجمة كتبها بعبارات جيدة إذا قورنت بعبارات غيره من المؤرخين ، توشك أن تميزه ، ونظراً لأهمية هذا الكتاب فقد اهتمت كثير من الدول بنقله إلى لغاتها المختلفة ، فنقله إلى الفارسية **يوسف بن عثمان (٨٩٥هـ) ، كما ترجم أيضاً إلى التركية في استنبول ونقله إلى الانجليزية المستشرق دي سالان ، ونشر في لندن ١٨٤٢م في أربعة مجلدات ضخمة ، ونشر بعضه مع ترجمة لاتينية في لندن ١٩٠٨م ، كما ترجمه إلى الفرنسية دي سلين في أربعة مجلدات ، وقد اشتغل كثير من الأدباء في اختصاره ، والتذييل عليه وانتقاده ، وقد طبع هذا المؤلف في مصر أكثر من مرة ، وتوفر على تحقيقه نخبة من العلماء الباحثين ، وفي لبنان قام بتحقيقه الدكتور إحسان عباس وأخرجه في ثمانية أجزاء في طباعة أنيقة فاخرة جعل الجزء الثامن خاصاً بالفهارس العامة .**



حياته



○ عالم جليل من علمائنا الأفذاذ له مكانة مرموقة بين علمائنا القدامى منهم والمحدثين ، وضع كتاباً في اللغة العربية ، جمع ما تضمنته كتب السابقين ، فصار يغني عن كتب اللغة جميعها ولا تغني عنه كتب اللغة مجتمعة ، إذ جمع فأوعى وضم كل غريب .. فمن هو ذلك الرجل العملاق ؟..

إنه ابن منظور صاحب معجم لسان العرب ، وفي هذه المقالة سنتجول سريعاً في بستان ابن منظور نتناول طرفاً من حياته وآثاره التي جعلته يستحق تلك المنزلة السامية ○

بقلم :
محمد سيد بركة

هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن منظور ، يتصل نسبه برويفع بن ثابت من صحابة رسول الله ﷺ ، ويقول ابن منظور في معجمه « لسان العرب » عن رويفع بن ثابت في مادة (جرب) : « هذا هو جدّنا الأعلى من الأنصار كما رأيته بخط جدي نجيب الدين والد المكرم أبي الحسن بن علي بن أحمد بن القاسم بن حبقة بن أحمد بن منظور بن معافى بن خمير بن ريام بن سلطان بن كامل بن قرَّة بن كامل بن سرحان بن جابر بن رفاعة بن رويفع بن ثابت ، وقد ذكره أبو عمر ابن عبد البر - رحمه الله - في كتابه (الاستيعاب في معرفة الأصحاب رضي الله عنهم) فقال : رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري من بني مالك بن النجار ، سكن في مصر واختط بها داراً ، وكان معاوية رضي الله عنه قد أمَّره على طرابلس سنة ست وأربعين ، فغزا من طرابلس افريقية سنة سبع وأربعين من الهجرة ، ودخلها وانصرف من عامه ، فيقال : مات بالشام ، ويقال : مات ببرقة وقبره بها .

هذا هو نسب صاحبنا ، نسب رفيع ينحدر من قوم كرام ، ألاَ وهم الأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ وآووا صحابته الكرام .

مولده :

ولد أبو الفضل محمد الملقب جمال الدين بن منظور في اليوم الثاني والعشرين من شهر المحرم عام ثلاثين وستمائة للهجرة ، وهو يوافق الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٢٣٢ للميلاد .

تعليمه ومعلموه :

تحدَّث ابن منظور عن نفسه في مقدمة كتابه « نثار الأزهار » فقال : « وكنت في أيام الوالد رحمه الله أرى تردد الفضلاء إليه ، وتهافت الأدباء عليه ، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد أبا يوسف التيفاشي القيسي في جملتهم ، وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه ولا أشاركهم فيما يلقونه . . . »

ما ان يفتح ابن منظور عينيه للحياة حتى يجد نفسه بين أب أديب عالم ، يتردد إلى مجلسه كبار العلماء والأدباء ، ويذكر الذين ترجموا لهذا العلامة أنه تلقى العلوم على يد شيوخ ستة هم :

١ - مرتضى بن حاتم
٢ - عبد الرحمن بن الطفيل
٣ - يوسف المخيلي
٤ - أبو الحسن علي بن المقير البغدادي
٥ - العلم الصابوني
٦ - شرف الدين التيفاشي

ويضاف إلى هؤلاء والده الذي يعتبر بحق جديراً بأن يكون في طليعتهم ، حيث انه سمح لابنه أن يحضر مجالس العلماء والأدباء في بيته وهو في سن لا يكاد يفقه شيئاً مما يقولونه ، مما غرس في نفسه حب العلم ومجالسة العلماء والاستمتاع إليهم .

عمله

اشتغل في ديوان الإنشاء بالقاهرة ، وتولى الكتابة فيه ، ويقال انه تولى القضاء بطرابلس ، مما يدل على أنه كان ذا باع طويل في علم الفقه فضلاً عن كونه باللغة عليمًا .

تراثه العلمي :

يقول قطب الدين ابن صاحبنا ، أعني ابن منظور ، ان أباه ترك بخط يده (من اختصاره وتأليفه) خمسمائة مجلد ، وفي ذلك يقول الأستاذ « أبو القاسم كرو » في دراسة بعنوان « محاولة لوضع إطار لحياة ابن منظور » : إذا كان ذلك صحيحاً ، أي أن تراثه وصل إلى خمسمائة مجلد ، فالموجود سالماً والذي عثر عليه ، وتمكن بالبحث الحديث معرفة وجوده يقل عن خمس هذا المجهود الضخم ، ومن أهم تراثه المطبوع : لسان العرب .

لسان العرب معجم ضخم جمع فيه ابن منظور بين التهذيب والمحكم والصحاح والجمهرة والنهاية وحاشية الصحاح ، وفي ذلك يقول : « **وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمُتُّ بها ، ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم ، وبسطت القول فيه ولم أشبع باليسير ، وطالب العلم منهوم . . .** » .

وجل اعتماده كان على كتاب « تهذيب اللغة » لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، وكتاب « **المحكم** » لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي . . . قال رحمه الله : « **وأنا مع ذلك لا أدَّعي فيه دعوى فأقول : شافهت أو سمعت ، أو فعلت أو صنعت ، أو شددت ، أو رحلت أو نقلت عن العرب العرباء ، أو حملت . . .**

فكل هذه الدعاوي لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالاً ، ولم يخليا فيه لأحد مجالاً ، فإنهما عينا في كتابيهما عمن رويا ، وبرهنا عما حويا ، ونشرا في خطبهما ما طويا ، ولعمري لقد جمعا فأوعيا ، وأتيا بالمقاصد ووفيا . . . »

ويحدد ابن منظور الغاية التي من أجلها وضع هذا المعجم فيقول : « **فإني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية ، ولأن العالم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النية اللسان ، ويخالف فيه اللسان النية . . .** »

مبيناً أن همة أهل زمانه قد انحطت ولم يعد هنالك الاهتمام الذي يجب أن يكون بهذه اللغة فيقول : « **فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه يسخرون ، وسميته : لسان العرب . . . وأرجو من كرم الله تعالى أن يرفع قدر هذا الكتاب وينفع بعلومه الزاخرة ، وأن يكون من الثلاث التي ينقطع عمل ابن آدم إذا مات إلاّ منها . . .** » .

وموضحاً أن كل واحد من العلماء الذين سبقوه انفرد برواية رواها وبكلمة سمعها من العرب شفاهاً ، ولم يأت في كتابه بكل ما في كتاب أخيه . . « **ولا أقول : تعاظم عن نقل ما نقله ، بل أقول : استغنى بما فيه . . .** » « **فصارت الفوائد في كتبهم مفرقة ، فجمعت في هذا الكتاب ما تفرق ، وقرنت بين ما غرب منها وبين ما شرق ، فانتظم شمل تلك الأصول كلها في هذا المجموع (لسان العرب) وصار هذا بمنزلة الأصل وأولئك الفروع . . .** » .

وقد أوضح أن الذي دفعه إلى هذا الجمع هو : « **وإني لم أزل مشغوفاً بمطالعات كتب اللغة ، والاطلاع على تصانيفها ، وعلل تصاريفها ، ورأيت علماءها بين رجلين : أما من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه ، وأما من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه ، فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع ، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع . . .** » .

وقد نهج ابن منظور في ترتيبه « **لسان العرب** » منهج الجوهري صاحب « **الصحاح** » واعتمد أواخر المفردات تباعاً إلى أوائلها ، مفرداً لكل حرف باباً يسوقه فصولاً رامزاً إليها بأولى الحروف من كلمات كل باب . . . وفي ذلك يقول :

« **شرطنا في هذا الكتاب أن نرتبه كما رتب الجوهري صحاحه ، وقد قمنا ، والمنة لله ، بما شرطناه فيه إلاّ أن الأزهري ذكر في أواخر كتابه فصلاً جمع فيه تفسير الحروف المقطعة التي وردت في أوائل سور القرآن العزيز ، لأنها ينطق بها مفرقة غير مؤلفة ولا منتظمة ، فترد كل كلمة في بابها ، فجعل لها باباً بمفردها ، وقد استخرت الله تعالى وقدمتها في صدر كتابي لفائدتين :**

أولها : التبرك بتفسير كلام الله تعالى الخاص به الذي لم يشاركه أحد فيه إلاّ من تبرك بالنطق في تلاوته فاخترت الابتداء به لهذه البركة قبل الخوض في كلام الناس .

والثانيـــة : انها إذا كانت في أول الكتاب كانت أقرب إلى كل مطالع من آخره ، لأن العادة أن يطالع أول الكتاب ليكشف منه ترتيبه وغرض مصنفه . . . وقد لا يتهيأ للمطالع أن يكشف آخره لأنه إذا اطَّلع من خطبته أنه على ترتيب الصحاح أيسر أن يكون في آخره شيء من ذلك ، فلهذا قدَّمته في أول الكتاب . . . » .

وبالجملة فإن « لسان العرب » كتاب لغة ونحو وصرف وأدب وفقه وشرح للحديث الشريف وتفسير للقرآن الكريم . . حيث يتبين **ما لكتاب الله عز وجل الذي أنزله الله بلغة العرب من أثر في شحذ همم العلماء والأدباء حتى جاءت مؤلفات كثيرة للحفاظ على هذه اللغة وبيان دلالتها ، ولحمايتها من التحريف وصونها عن اللحن والضياع الذي حاق بجميع اللغات التي عاصرتها أو سبقتها أو جاءت بعدها . .**

وبهذا المعجم احتل صاحبنا مكان الصدارة بين جهابذة العلماء قديماً وحديثاً ، وسنتوقف قليلاً لنعرف كيف وصل إلينا معجم « **لسان العـــرب** » أو ما هو تاريخ طبع « **لسان العرب** » ؟

طبعاتـــــــه :

طبع لسان العرب عدة مرات ، وقد قامت مطبعة بولاق بطبعه لأول مرة في مصر ١٢٩٩هـ - ١٣٠٨هـ في عشرين مجلداً ، ثم تولى طبعه ثانية الشيخ **محب الدين الخطيب** رحمه الله ، ولكنه لم يكمل طبعه حيث ظهر جزء واحد فقط ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م ، ثم تلاحقت محاولات طبع هذا المعجم فقام عبد الله الصاوي بمحاولة إخراج اللسان في طبعة أنيقة وتنظيم جديد تحت اسم « تهذيب اللسان » فطبع خمسة أجزاء ثم توقف عن إتمامه ، وقامت دور نشر تجارية في بيروت بإعادة طبع اللسان بين عامي **١٩٥٥م - ١٩٥٦م في خمسة عشر مجلداً كبيراً وقد احتوت هذه الطبعة على أخطاء مطبعية فادحة ، وفي القاهرة أعيد طبعه بطريقة التصوير عن طبعة بولاق القديمة .**

في عام ١٩٧٠ ظهرت في بيروت طبعة جديدة تختلف عن جميع طبعاته السابقة ، وغير الاسم فأصبح لسان العرب المحيط ، وحذفت منه جميع الشروح والاستشهادات التي كانت في الأصل عامل تضخيم ، وأضيفت إليه المصطلحات العلمية والفنية التي أقرتها المجامع العلمية ، ولكن الشكوك والشبهات تحوم حول المنهج العلمي والأمانة في النقل .

في القاهـــرة وفي هذه الأيام تقوم دار المعارف المصرية بطبع الكتاب في أجزاء منجمة ، زادت عن الخمسين حتى الآن ، تصدر في أول كل شهر أفرنجي وفي منتصفه ، ويتولى تحقيقه الأساتذة : عبد الله علي الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلي ، وهذه الطبعة على حد قول الأساتذة المحققين تفضل الطبعات السابقة بما يلي :

١ - مقابلة النسخة المعتمدة أصلاً على المصادر التي استقى منها ابن منظور مادة معجمه ، وهي : الصحاح للجوهري ، وحاشيته





لابن بري ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ، بالإضافة إلى دواوين كثير من الشعراء .

٢ ـ جلاء الغامض واستكمال كثير من النقص مع ضرب بعض الأمثلة في مقدمة الجزء الأول من هذه الطبعة التي لم تستكمل بعد .

٣ ـ إضافة هوامش تطلبها التحقيق والبحث والتنبيه على بعض أخطاء الطبعات السابقة ، وقد يستدرك الخلف عن السلف أشياء زلُّوا فيها ، أو غفلوا عنها .

٤ ـ ضبط المعجم ضبطاً كاملاً .

٥ ـ إخراج المعجم في صورة تعين الباحث وتسعفه في الوصول إلى بغيته .

٦ ـ جعل الصفحة في ثلاثة أنهر بحرف صغير مقبول .

٧ ـ الاستعانة باللسان نفسه في التحقيق والضبط .

٨ ـ ستذيل هذه الطبعة بفهارس عدة ذات نفع عظيم ، وستشمل هذه الفهارس ما ورد في اللسان من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأمثال العربية ، والأعلام والقبائل والأمم والأرهاط والعشائر ، والأماكن ، والكتب ، والأبيات الشعرية ، والأرجاز ، وأنصاف الأبيات ، ومصطلحات النبات ، والحيوان ، والأحجار الكريمة ، والأفلاك والنجوم .

ومما هو جدير بالذكر أن لسان العرب كنز نفيس ومن اللبنات الأولى للمكتبة العربية والاسلامية ، ودار المعارف المصرية بهذا العمل الرائع ستجعله في متناول أكبر عدد ممكن وبثمن زهيد .

كتب أخرى لابن منظور :

١ ـ أخبار أبي نواس ، ويعد هذا الكتاب من خيرة ما كتب عن الشاعر الحسن بن هانيء .

٢ ـ كتاب مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ، وهو مختصر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ورتبه ابن منظور على حروف المعجم .

٣ ـ نثار الأزهار في الليل والنهار .

مخطوطات ابن منظور :

١ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، وأصل الكتاب في ٤٨ مجلداً كبيراً ، اختصره ابن منظور في تسعة وعشرين جزءاً ، يقع كل منها في نحو ثلاثمائة صفحة ، وتوجد منه نسخة كاملة موزعة بين مكتبات أوروبا وتركيا ، وسائر أجزائه مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، وقد كتبه بين أعوام ٦٩٠ ـ ٦٩٥هـ/ ١٢٩١ ـ١٢٩٦م .

٢ ـ تواريخ الشعراء إسلاماً وجاهلية . لم يعلم مؤلفه ويرجح أنه لابن منظور ، وتوجد نسخة من هذا المخطوط في مكتبة بلدية الاسكندرية .

٣ ـ تهذيب الخواص من درة الغواص ، والأصل للحريري ، وقد هذَّبه ابن منظور ورتَّبه على حروف المعجم كعادته .

٤ ـ سرور النفس بمدارك الحواس الخمس . اختاره من كتاب وصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب ، وهذا الكتاب من تأليف أحمد بن يوسف التيفاشي ، ويقع الأصل في أربعين مجلداً ، ولكن ابن منظور اختصره في عشرة مجلدات ، ولا يوجد اليوم منه سوى جزئين فقط ، أحدهما مطبوع في الآستانة باسم « نثار الأزهار في الليل والنهار » وقد سبق الكلام عن هذا الكتاب في تراث ابن منظور المطبوع ، أما الثاني والذي لا يزال مخطوطاً تحت اسم « طلل الأسحار على الجلنار في الهواء والنار » وتوجد منه ومن الكتاب الأول نسخ في تونس وتركيا ومصر .

٥ ـ مختصر مفردات ابن البيطار .

٦ ـ لطائف الذخيرة في محاسن الجزيرة . ومؤلف هذا الكتاب ابن بسام ويوجد المختصر في الآستانة .

٧ ـ مختار الطبقات الكبير لابن سعد .

٨ ـ مختصر ذيل السمعاني على تاريخ بغداد ومؤلفه الخطيب البغدادي ويوجد في لندن وكمبرج .

٩ ـ مختصر أخبار المذاكرة ونشوار المحاضرة .

١٠ ـ مختصر كتاب الحيوان للجاحظ .

تراث ابن منظور المفقود :

نحن أمام رجل دؤوب يشغل كل أوقاته بالكتابة والتأليف ، فخلف من ورائه ذخيرة أثرت المكتبة العربية والإسلامية ، ولا أدري لولا أن قيض الله لنا ابن منظور ماذا سيكون حال المكتبة العربية والإسلامية . ؟!

نعم ! لولا أن قيض الله لنا ابن منظور لعانت المكتبة العربية والإسلامية من فراغ كبير ونقص خطير ، ولكن علينا نحن أن نجمع تراث ابن منظور المشتت في كل أصقاع الأرض ، ونعهد به إلى أساتذة التحقيق في وطننا ، ونقوم بنشره بثمن يجعله في متناول الجميع كما تفعل دار المعارف ـ مشكورة ـ في لسان العرب ، ونحن لسنا عن ذلك عاجزين ، فقد وجب وجوباً أن ننظر إلى تراثنا وتراث أسلافنا ونوليه جل اهتمامنا وقد صدق المتنبي إذ يقول :

وَلَم أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْباً كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وها نحن أمام البحث عن تراث ابن منظور المفقود وهو كثير جداً ، ولكن المعروف من خلال المصادر التي ترجمت له أو نقلت عنه هذه الكتب .

١ ـ مختصر زهر الآداب وأصله للحصري أبي إسحاق القيرواني .

٢ ـ مختصر يتيمة الدهر للثعالبي .

٣ ـ مختصر نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي .

٤ ـ مختصر العقد الفريد لابن عبد ربه .

٥ ـ مختصر ذيل تاريخ بغداد لابن النجار .

٦ ـ مختصر صفة الصفوة . وهذا الكتاب في الأصل لابن الجوزي وهو مختصر عن حلية الأولياء لأبي الفرج الأصفهاني .

٧ ـ ذخيرة الكاتب ، وهذا الكتاب من تأليف ابن منظور ، وقد نقل عنه كثيراً ابن الفرات في تاريخه .

٨ ـ تذكرة اللبيب ونزهة الأديب ، وهذا الكتاب ورد ذكره في صبح الأعشى .

بعد هذه الجولة السريعة في بستان ابن منظور نجد أنفسنا بحق أمام عالم فذ جدير باحتلال طليعة ركب العلماء ، ولقد قال عنه الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله : « كان ابن منظور مشاركاً في علوم كثيرة فهو من الفقه بالمكانة التي تؤهله لولاية القضاء ، ومن اللغة العربية بالمنزلة التي تراها بين سطور معجمه (لسان العرب) ، ومن المعارف الكونية في أفضل ما كان عليه علماء عصره بدليل ما تركه من مختصرات ومؤلفات في تلك الفنون » .





□□ لشبابنا الحائر نقدم هذا البلسم علّه يضمد ما في نفسه من جراح الضياع ، وللذين يبحثون عن البديل في كل شيء ، نقول : إن في تراثنا الاسلامي بدائل وأفكاراً في غاية التقدم ، نحن في مسيس الحاجة إليها ، قراءة وتعمقاً ، قصد استنباط الدروس والتصورات التي تقترب بنا من النبع الاسلامي الصافي ..ولعل في حياة الإمام ابن قيم الجوزية ، وفي قراءة كتابه « اعلام الموقعين » ما يجيب على كثير من التساؤلات المطروحة في الساحة الاسلامية □□

بقلم :

لطيف احمد

حياته

ولد شمس الدين ، أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية سنة (٦٩١هـ) وعاش حياة علمية كاملة ، تفرغ فيها للعلم وحرر فيها أصول الاسلام ، ورد على الفرق المعطلة والجهمية والمخالفة ، وجعل حياته كلها موجهة إلى الرد على مختلف الشبهات التي أثيرت حول الاسلام . دعم عقيدة السلف ، متابعاً لأستاذه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ، ومحرراً الأفكار الاسلامية مما أصابها من اضطراب ، وما دخل إليها من بدع ، وألف في ذلك :

- هداية الحيارى من اليهود والنصارى .
- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة .
- اعلام الموقعين عن رب العالمين .
- زاد المعاد في هدي خير العباد .
- الكلم الطيب .. إلخ .

حارب التقليد ، ودعا إلى التحرر الفكري ، وصاغ نظرية المنفعة قبل أوروبا بخمسمائة عام ، وارتبط اسمه باسم شيخه « ابن تيمية » ولكنه برز في ذاتية مستقلة ، وخاض مجالات جديدة لم يخضها ابن تيمية ، وأضاف إليها ، مؤكداً دعوته إلى محاربة التقليد . وكانت أبرز نواحي ثقافته : اجتهاده في مجال الفقه ، إذ آمن بأن الفقه قانون الحياة ، والحياة تطور ، فعلى الباحث أن يتوخى المعنى الصحيح .

كان منهجه في القرآن منهج أستاذه ، ويشمل ثلاثة عناصر :

- **تفسير القرآن بالقرآن فيما أجمل في آية وفصل في أخرى .**
- **السنة حين لا يجد في القرآن ما يفسر القرآن .**
- **الرجوع إلى أقوال الصحابة إن لم يكن هناك قرآن ولا سنة .**

موضوع الكتاب

بعد تقديم خطبة الكتاب ، بدأ المؤلف بإبراز ما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون المسلمون ، وهو « العلم النافع ، والعمل الصالح » اللذان لا سعادة للعبد إلّا بهما ، واللذان بسببهما انقسم الناس إلى : مرحوم ومحروم ، ولما كان العلم للعمل قريناً وشافعاً كان أفضل العلوم هو التوحيد ، ولا سبيل إلى اقتباسه إلّا من حياض الرسول الكريم ﷺ الذي يكون التلقي منه على نوعين : بواسطة ، وبدون واسطة ، فالذين تلقوا عنه بلا واسطة هم أصحابه رضوان الله عليهم ، والذين يجب ألّا يحيد عن طريقهم من يختار نهج الله .. والذين تلقوا عنه بواسطة هم الفقهاء ..

بعد ذلك قدم المؤلف جملة فصول كل منها يتناول قضية من القضايا الاسلامية التي يجب على المسلم الاطلاع عليها ، منها :

كلام التابعين في الرأي ـ كلام السلف ـ آراء في الرأي المحمود ـ الصلح جائز بين المسلمين .. بيان أهل الهدى وأهل الضلالة ـ بيان أسرار آيات القرآن .. وسوف أركز على فصل في الجزء الثاني

خاص بالتقليد والمقلدين . .

بطـــــلان التقليـــــد . .

ركز ابن القيم تركيزاً كبيراً على عدة مسائل منها : محاربة التقليد ، ومنع الحيل في الأحكام . . وقد واجه القضية الأولى مواجهة علمية فذة ، وبحثها بحثاً مستفيضاً لم يسبقه إليه أحد من فقهاء المذاهب جميعاً ، إذ عقد في كتابه « اعلام الموقعين عن رب العالمين » فصلاً مطولاً بلغ أكثر من سبعين صفحة ، وساق إحدى وثمانين حجة من المنقول والمعقول في تأييد ما ذهب إليه من بطلان التقليد ، وخلص إلى القول بأن التقليد الذي يحرم القول فيه والافتاء به ثلاثة أنواع :

- **الاعراض عما أنزل الله ، وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء .**
- **تقليد من لا يعلم المقلِّد أنه أهل لأن يُؤْخَذَ بقوله .**
- **التقليد بعدم قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلَّد .**

وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير موضع من كتابه . فقال :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (لقمان : ٢١) . وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الاسراء : ٣٦) . والتقليد ليس بعلم . وقوله تعالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾ (الأحزاب : ٦٧) .

وما دام التقليد بكل أنواعه باطلاً ، فيبقى التسليم والرجوع إلى الأصول وهي : الكتاب والسنة وما كان في معناهما . . والابتعاد عن التأويلات التي لا تستند إلى أي أثر ، لقول الرسول ﷺ : **« إني لا أخاف على أمتي من بعدي ، إلاَّ من أعمال ثلاثة ؛ قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : أخاف عليهم زلة عالم ، ومن حكم جائر ، ومن هوىً متبع »** .

وقد جمع المصنفون في السُّـنَّة بين فساد التقليد وإبطاله ، وبين زلة العالم ، ليبينوا بذلك فساد التقليد ، وأن العالم قد يزلّ ولا بد ، إذ ليس بمعصوم ، فلا يجوز قبول كل ما يقوله ، ويُنَزِّلُ قوله منزلة قول المعصوم ﷺ (١٣٣/٢) .

وقد ذكر البيهقي وغيره من حديث كثير عن أبيه عن جده مرفوعاً : « اتقوا زلة العالم ، وانتظروا فيأته » . . وقال عبد الله بن المعتز :

« لا فرق بين بهيمة تنقاد ، وبين إنسان يقلد » (ص : ١٣٥) .

وقد نهى الأئمـــة الأربعة عن تقليدهم ، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة ، فقـال الشافعي : « مثـل الذي يـطلب العلم بلا حجة ، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه ، وهو لا يدري » ذكره البيهقي .

وقال ابو حنيفة وأبو يوسف : « لا يحل لأحدٍ أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه » .

وهكذا سلك الإمام ابن القيم في طرحه لإشكالية التقليد منهجاً علمياً ، إذ قدم المعطيات كما هي ، متحلياً بما يجب أن يكون عليه العالم الحقيقي ، المزود بثقافة شمولية واستقلال في الرأي من تجرد ، ثم ناقش كل واحدة على حدة ، مستدرجاً محاوريه إلى الاقتناع بوجهة نظره ، والتسليم ببطلان الجمود الفكري ، بل بتناقض المقلدين فيما يأتون به من حجج ، حيث يصورهم (خشباً مسندة) ليس لها شخصية ، بل هي ظلال لغيرها ، تجتر الأفكار ، وتسلك النهج السهل ، بل تتجرأ ـ من حيث لا تدري ـ **فتخالف أمر الله وأمر رسوله ﷺ** ، وهدي أصحابه وأحوال **أئمتهم ، فالله أمر برد ما تنازع عليه المسلمون إليه وإلى رسوله ، والمقلدون قالوا : إنما نردُّه إلى من قلَّدناه** . وقد ورد عن الرسول **الكريم ﷺ : « فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً »** وهو ذم للمختلفين ، وتحذير من سلوك سبيلهم . . وإنما كثر الاختلاف وتفاقم أمره بسبب التقليد وأهله ؛ وهم الذين فرقوا الدين وصيروا أهله شيعاً . .

دروس من ابن القـــــيم . .

من هذه القراءة السريعة يمكن أخذ الدروس الآتية من الإمام بن القيم الجوزية وهي :

- **الاســلام ضد التقليد الأعمى .**
- **تراثنا الاسلامي نابض بالحياة ، وقابل للأخذ والعطاء .**
- **يجب محاصرة الخلاف ، والدعوة إلى توحيد العالم الاسلامي .**
- **يجب التجنيد في سبيل الدعوة الاسلامية قولاً وعملاً .**
- **الدفاع عن قضايانا بطرق تربوية مرنة بعيداً عن كل تشنج وعصبية .**
- **الرجوع بالأمة الاسلامية إلى الصفاء الروحي الأول : القرآن والسنة ، مقتدين بمعاذ بن جبل حين سأله رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن : « كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : « فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ قال : « فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ » قال : أجتهد رأيي لا آلو . قال : فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ »** .

فلنحاول أن نسلك هذا النهج القويم ، وأن نرضي الله ورسوله ﷺ ، مبتعدين عن الخلافات والشبهات ، مرددين قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) .



عالم وكتاب

بقلم : عودة خليل أبو عودة

الفيروزأبادي وكتابه "بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز"

■■ الفيروزأبادي عَلَم من الأعلام الكبار في سجل الحضارة الإسلامية الخالدة ، وهو أحد العلماء الذين قد لا يتكررون في تاريخ الفكر الإنساني .

وقد عرفت الفيروزأبادي منذ عهد بعيد ، منذ عرفت القاموس المحيط ، أحد المعاجم العربية الأصيلة ؛ إذ لا يكاد يخلو منه بيت ، أو يخالف عنه باحث في اللغة . ولكني عندما عرفت « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » عام ١٩٨١م ، عندما كنت أكتب « التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم »[1] أدركت أنني أمام عَلَم من أعلام العربية لا بد أن يذكر في الناس ، وأمام كتاب يعدّ كنزًا من كنوز الحضارة الإسلامية لا بد أن يُكشفَ عنه ، وشعرت أن الأمانة تقتضيني تقديم هذا الكتاب الكبير لقراء العربية وعشّاق اللغة ، عسى أن أنقل لهم ما ملأ قلبي من إعجاب بهذا الكتاب لما فيه من تنوع الموضوعات ، وسعة العلم ، ودقة الإحصاء ، والتزام المنهج ، وصبر على البحث والتأليف ... ■■

إنَّ قارىء هذا الكتاب يحتار كيف تأتّى للفيروزأبادي أن يجمع هذه الإحصاءات في كتابه هذا الكبير ، لقد أحصى في « بصائر ذوي التمييز » عدد سور القرآن الكريم ، وأسماء كل سورة ، وعدد آياتها ، وكلماتها ، ومجموع فواصل آياتها ، كما أحصى عدد كلمات القرآن الكريم وعدد حروفه ، وعدد نقطه ، ثم عدَّ كل حرف في القرآن الكريم ، فقال : عدد الألفات أربعون ألفًا وثمانية آلاف وثمانمائة ألفًا ؛ وجملة الباءات : أحد عشر ألفًا ومائتان واثنتان باءً ؛ وجملة التاءات : عشرة آلاف ومائة وتسع وتسعون تاء[2] ؛ وهكذا مضى يعدّ جملة الثاءات والجيمات والحاءات ... حتى انتهى إلى جملة الهاءات واللاءات[3] والياءات ، في إحصاء عجيب قد لا يقوم به الحاسب الإلكتروني في يوم الناس هذا .

فمن هو هذا الفيروزأبادي ؟ وما سبب تأليف كتابه هذا ؟

هو مجد الدين محمد بن يعقوب ، ولد في بلدة « كارزين » جنوبي شيراز في ربيع الآخر سنة ٧٢٩هـ ، وقد عرف في التاريخ بالفيروزأبادي ، نسبة إلى فيروزأباد ، وهي مدينة « جور » نفسها ، وتقع شمالي كارزين حيث ولد المجد ، ويقال : إن أباه وجدّه من فيروزأباد ، ويرى بعض المحققين أن هذه النسبة أتته من انتسابه إلى أبي إسحاق ، أحد علماء فيروزأباد ، الذي انتقل منها إلى شيراز حيث أخذ عنه مجد الدين ، ولازمه ، وعُرف به ، فقيل : الفيروزأبادي .

كان أبوه من علماء اللغة في شيراز ، فتلقى عليه علومه الأولى في الصرف والنحو والأدب والبلاغة ، ووجهه إلى حفظ القرآن ، فحفظه وهو ابن سبع سنين ، وكان سريع الحفظ ، وصف نفسه فقال : « لا أنام حتى أحفظ مائتي سطر » .

أحب الفيروزأبادي علوم المنقول ، كاللغة والأدب والفقه والحديث والقراءات والتفسير ؛ ولم يتجه إلى علوم المعقول ، كالمنطق والفلسفة والكلام .

وقضى عمره في سفر متصل ، وبحث مستمر عن المعرفة ، وعمل دائم في الكتابة والتأليف ؛ بدأت رحلاته عام (٧٤٥هـ) إلى مدينة واسط ، وفيها تعلم القراءات العشر ، وسمع صحيح البخاري على القزويني ، و« مشارق الأنوار » للصاغاني في الحديث .

وفي سنة (٧٥٥هـ) دخل دمشق ، والتقى فيها قاضي القضاة التقيّ السبكي ، ومنها توجه إلى بيت المقدس التي أقام فيها عشر سنوات ، كان خلالها دارسًا ومدرِّسًا . درس في القدس على الشيخ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي في المدرسة الصلاحية ، ودرّس فيها ـ بعد أن ذاع صيته ، وتأكّدت أستاذيته ـ أناسًا كثيرين منهم : الصلاح الصفدي .

ومن القدس ـ في هذه الفترة ـ انتقل الفيروزأبادي إلى مكة ، وإلى القاهرة ، حيث لقي مشاهير العلماء ، مثل : ابن عقيل ، والأسنوي ، وابن هشام ، أساتذة اللغة والنحو ، وكان بعد كل رحلة يعود إلى القدس ، خلال هذه السنوات العشر .

وفي عام (٧٧٠هـ) غادر إلى مكة المكرمة مرة أخرى ، وجاور فيها ست سنين ؛ وبعدها شوهد الفيروزأبادي في اليمن عام (٧٩٦هـ) ، ثم في الهند حيث

■ « بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز » كنز من كنوز الحضارة الإسلامية ، لما فيه من تنوع الموضوعات ، وسعة العلم ، ودقة الإحصاء ، والتزام المنهج ، وصبر على البحث والتأليف ، يجمع بين دقة الهدف وأصالة المحتوى ، ويسر الأسلوب وسمو التوجيه والتقويم ■

وصل إليها من اليمن ، وبعدها عاد إلى بلاد الروم واتصل بسلاطينها وعلمائها ، وكان موضع حفاوة وتكريم في كل مكان يحلّ به ، ومن كل حاكم يعيش في دولته .

وعندما كان الفيروزأبادي في اليمن استقبله صاحبها الأشرف إسماعيل بن العباس من آل رسول ، ودعاه للإقامة في عاصمته « زبيد » ، ونصّبه للتدريس فيها ، وكان الأشرف يشهد حلقاته ، وما لبث أن ولاّه قضاء الأقضية ، وما زال الفيروزأبادي مدرِّسًا في اليمن ، لم يغادرها إلَّا فترة قصيرة أقام فيها بالطائف ، عاد بعدها إلى اليمن حيث توفاه الله عزّوجل في زبيد عام (٨١٧هـ) ، بعد حياة مديدة عامرة ، حافلة بالعلم والبحث والتأليف والتدريس ، وفي زبيد هذه كتب الفيروزأبادي كتابه الكبير « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » .

سبب تأليف الكتاب :

كانت الصلة بين الفيروزأبادي والأشرف إسماعيل بن العبَّاس وثيقة ، توَّجها الأشرف بزواجه من ابنته ، فازداد المجد قربًا منه وزلفى إليه ، ويُروى أنه ألَّف له كتابًا وأرسله إليه محمولاً على أطباق ، فردّها إليه السلطان مملوءة دراهم(٤) .

وربما كان كتاب « **بصائر ذوي التمييز** » هو الذي حُمل على الأطباق إلى السلطان الأشرف ، وربما كان غيره ، فقد أحصى الباحثون للفيروزأبادي ثمانية وأربعين كتابًا ، منها :

- القاموس المحيط .
- مقصود ذوي الألباب في علم الإعراب .
- المتفق وصفًا والمختلف صقعًا .
- البلغة في تراجم أئمة النحاة واللغة .
- عدة الحكام في شرح عمدة الأحكام .
- نزهة الأذهان في تاريخ أصفهان .
- الأحاديث الضعيفة .
- زاد المعاد في وزن بانت سعاد .

ولكن الثابت في المصادر الموثوقة أن الذي رسم فكرة الكتاب ووضع خطّته هو السلطان الأشرف الذي كان واسع المعرفة ، مضطلعًا بالعلوم ، يبعث العلماء على التصنيف ، كما وصفه من عاصره(٥) .

ويسجل الفيروزأبادي للسلطان الأشرف هذا الموقف ، فيقول : « ... فهذا كتاب جليل ، ومصنَّف حفيل ، ايتمرت بتأليفه الأوامر الشريفة ، العالية السلطانية الأشرفية ، ممهد الدنيا والدين ، خليفة الله في العالمين ، إسماعيل بن العبَّاس ، خلَّد الله سلطانه ، وأنار في الخافقين برهانه ، قصد بذلك - نصره الله - جمع أشتات العلوم ، وضم أنواعها ، على تباين أصنافها ، في كتاب منفرد ، تسهيلاً لمن رام سرح النظر في أزاهير أفنان الفنون ، وتيسيرًا لمن أراد الاستمتاع برائع أزهارها ، ويانع ثمارها الغض المصون ، فيستغني الحائز له الفائز به عن الأسفار في الأسفار ، حيث تجتمع له خزائن العلوم في سفر مخزون ، ومجموعة يتحلى من أغاريد مسمعاتها القلب المحزون »(٦) .

وقد كانت خطة الكتاب في الأصل أن يكون كتابًا جامعًا لمقاصد العلوم والمعارف في عصره ، حتى العلوم المدنية التي لم يكن للمؤلف يد فيها ولا بصر بها ، كالهندسة ، والموسيقى ، والمرايا المحرقة ؛ ولذا نراه يذكر في مقدمة كتابه أنه رتَّبه على مقدمة وستين مقصدًا :

- المقدمة : في تشويق العالم إلى استزادة العلم الذي طَلَبُهُ فرض ، وتمييز العلوم بعضها عن بعض .
- المقصد الأول : في لطائف تفسير القرآن العظيم .
- المقصد الثاني : في علم الحديث النبوي وتوابعه .
- المقصد الثالث : في علوم المعارف والحقائق .
- المقصد الرابع : في علم الفقه .
- المقصد الخامس : في علم أصول الفقه .
- المقصد السادس : في علم الجدل(٧) .

ثم تتتابع المقاصد في علوم : النحو ، والصرف ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، والعروض ، والقوافي ، والطبيعيات ... حتى ينتهي إلى المقصد الخامس والخمسين في علم قوانين الكتابة ، وإلى المقصد السادس والخمسين في علم ... ...

ولا يذكر الفيروزأبادي ما العلم المقصود في المقصد السادس والخمسين ، بل إنه لم يكتب من هذه المقاصد كلّها إلَّا المقدمة والمقصد الأول الذي سمَّاه « **لطائف تفسير القرآن العظيم** » ، ويبدو أن السلطان الأشرف مات بعد تمام المقصد الأول ، ولم يجد الفيروزأبادي عند ولده الناصر ما كان يجده عند أبيه من بر وكرم ، ففترت همّته وضعفت حماسته ، خاصة مع تقدم العمر وفتور الشيخوخة ، فاقتصر على هذا المقصد السامي الأول .

ويرى الفيروزأبادي أن عنوان الكتاب لم يعد له مكان بعد عدوله عن بقية المقاصد ، فيضع عنوانًا جديدًا يناسب ما كتبه عن القرآن الكريم ، ولما كان يفتتح كل بحث في مقاصده بكلمة بصيرة ، فيقول : بصيرة في كذا ،

وبصيرة في كذا ، حتى صار كتابه جملة بصائر ؛ فقد سمّى كتابه - إذنْ - : « بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز » . واستبدل - كما تراه - كلمة الكتاب العزيز بكلمة القرآن العظيم ليستقيم له السجع الذي كان شائعًا في أساليب الكتابة في ذلك العصر .

مضمون هذا الكتاب

يشتمل هذا الكتاب على ثلاثين بابًا - في ستة مجلدات - . وقد قسم الفيروزآبادي الأبواب إلى «أطراف» ، وقسم الأطراف إلى «مواقف» تارة وإلى «بصائر» تارة أخرى . يقول عند بداية الباب الأول « الباب الأول ، وهذا الباب يشتمل على طرفين : الطرف الأول في المقدمات وهي ثمانية فصول ، والطرف الثاني في المواقف وهي تفصيل سور القرآن »[٨] .

وفي الطرف الأول - من الباب الأول - كتب الفيروزآبادي الفصول التالية :

- في فضائل القرآن ومناقبه .
- في ذكر إعجاز القرآن وتمييزه بالنظم المعجز عن سائر الكلام .
- في شرح كلمات لا بد من معرفتها قبل الخوض في شرح وجوه التفسير .
- في ذكر أسماء القرآن .
- في ترتيب نزول سور القرآن .
- فيما لا بد من معرفته في نزول القرآن .
- في أصناف الخطابات والجوابات التي يشتمل عليها القرآن .
- فيما هو شرط في معرفة الناسخ والمنسوخ .

وفي الطرف الثاني - من الباب الأول - كتب المقاصد المشتملة على سور القرآن جميعها ، وسمّى كل بحث حول كل سورة «بصيرة» ، فقال : بصيرة في سورة الحمد ، بصيرة في الٓمٓ ذلك الكتاب - أي سورة البقرة - ، وهكذا . وقد اشتمل البحث في كل بصيرة منها على ثمانية فروع متعلقة بالسورة : الأول : موضع نزولها ، الثاني : عدد آياتها وكلماتها وحروفها والآيات المختلف فيها ، الثالث : بيان مجموع فواصلها ، الرابع : ذكر اسمها أو أسمائها ، الخامس : بيان المقصود من السورة وما تتضمنه مجملًا ، السادس : بيان ناسخها ومنسوخها ، السابع : في تشابهها ، الثامن : في فضلها وشرفها .

وفي نهاية هذا الباب الأول عقد الفيروزآبادي بحثًا طريفًا إحصائيًا مثيرًا للدهشة ، ذكر فيه عدد سور القرآن وعدد آيات كل سورة وفواصلها وكلماتها وحروفها ونقطها ، كما ذكر عدد كل حرف من حروف القرآن ، ويؤلف هذا الباب الأول - بطرفيه - المجلد الأول من مجلدات هذا الكتاب الستة ، ويبلغ عدد صفحات هذا المجلد زهاء (٦٠٠) صفحة .

فماذا صنع الفيروزآبادي في الأبواب التسعة والعشرين الأخرى من هذا الكتاب ؟ وماذا احتوت المجلدات الخمسة الأخرى فيه ؟

أما الأبواب الثمانية والعشرون - من الباب الثاني حتى نهاية الباب التاسع والعشرين - فقد جعلها بصائر في مفردات القرآن الكريم . وقد قسم المفردات حسب بدايات حروفها ، فجعل الكلمات التي تبدأ بالألف في باب ، والكلمات التي تبدأ بالباء في باب ثانٍ ، والتي تبدأ بالتاء في باب ثالث ، وهكذا حتى وصل إلى حرف الياء في الباب التاسع والعشرين .

وفي كل باب منها كان يتحدث عن الحرف ، وأصل اشتقاق اسمه ، والوحدة التي يرد عليها في كلام العرب ، ثم يذكر أشهر الكلمات القرآنية التي تبدأ بذلك الحرف .

ففي حرف الألف مثلًا - وهو يجعلها مرادفة للهمزة - بدأ باشتقاق كلمة « ألف » على وزن فَعِل من الألفة ضد الوحشة[٩] ، ثم مضى يفسر هذه الكلمة ومشتقاتها وأصل معانيها . وقال : إنّ الألف في القرآن ، وفي لغة العرب ، يرد على نحو من أربعين وجهًا ، ومضى يعدّد هذه الوجوه . ثم بدأ بذكر أشهر الكلمات القرآنية التي تبدأ بالألف ، فذكر كلمة « الله » ، وعقد لهذه الكلمة الجليلة بحثًا ثمينًا تحدّث فيه عن أصل الكلمة واشتقاقها اللغوي إن كانت عربية ، وآراء الباحثين فيها إن كانت معرّبة . مع ذكر شواهد كل فريق ، ثم ذكر عدد مرّات ورودها في القرآن الكريم ، ثم ذكر خصائص هذه الكلمة ، ومعانيها فعدّ مائة وعشرين خصلة لها . وهكذا شرح كلمات : الإنسان ، فالإضافة ، فالأمر ، ومضى حتى ذكر لحرف الألف ثمانين بصيرة آخرها الاستطاعة .

وقد صنع الفيروزآبادي هذا الصنيع نفسه ، مع الحروف كلّها ، في الأبواب التالية حتى نهاية الباب التاسع والعشرين ، وقد استغرق هذا المجلدات الأربعة التالية من الكتاب أي من المجلد الثاني حتى نهاية المجلد الخامس .

أما الباب الثلاثون - الباب الأخير من الكتاب الذي استغرق المجلد السادس كلّه - فقد جعله الفيروزآبادي بصائر في : « أسماء الأنبياء عليهم السلام ، وبصائر بعض الأعداء عليهم الغرام »[١٠] .

وقد عدّ المجد في بداية هذا الباب اثنين وأربعين اسمًا بدأها باسم رسول الله محمد ﷺ ، وذكر معه أسماء الأنبياء وأسماء غيرهم من الصالحين ، وأسماء أعداء الله المذكورين في القرآن . ولم يفرق الفيروزآبادي في سرده للأسماء بين الأنبياء وغيرهم من الناس سواء أكانوا من الأولياء أم من الأعداء ، ولم يجعل كل صنف وحده ، ولا أدري لِمَ صنع ذلك ، وكان حقه أن يفصل أسماء كل فريق على حدة ؛ كما كان حقّه - أيضًا - ألَّا يستسلم للأخبار التي تسربت إليه من كتب السابقين ، ومنها كثير من الإسرائيليات التي دخلت كتب بعض المؤلفين في غفلة أو جهل منهم دون تحقيق أو تدقيق .

كما كان حريًا به ألَّا يتوسع في إطلاق الأسماء على النبي ﷺ وعلى غيره من الأنبياء ، توهمًا في أنها مذكورة أو مشتقة من نصوص بعض الآيات القرآنية أو معانيها .

فإذا قال الله عزّ وجل : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ (الأنعام : ٥) فإن اسم محمد عليه الصلاة والسلام : الحق ، وإذا قال الله عزّ وجل : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس : ٧٢) فإنّ اسمه : مسلم ، وإذا قال الله تعالى :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (النساء : ٥٤) فإنَّ اسمه : ناس ، ولا يخفى ما في هذا التفسير أو التأويل من تكلف .

كما ساق الفيروزابادي ـ في هذا الباب ـ بعض الأخبار عن النبي ﷺ وعن غيره من الأنبياء ، لم يعهدها القارىء في كتب التفسير المعتمدة ، أو كتب السير المعروفة ، خاصة ما يتعلق بذكر المقامات والحجب والمنازل التي وصل إليها الأنبياء ، وهي أخبار لا تستقيم لها إلّا بعض الأفهام الصوفية ، وقد يتوقف عندها القارىء بشيء من التبصّر ، والتساؤل .

على أنَّ هذه الملاحظات لا تشكل إلّا سطورًا قليلة في هذا السفر الكبير ، وهي لا تؤثر فيه إلّا مثلما تؤثر نقطة كدرة إذا انزلقت في المحيط .

وإني مُختار في السطور التالية نبذة قصيرة مما قاله المجد تحت عنوان : « بصيرة في الحمد » وعنوان : « بصيرة في قُل أعوذ بربّ النَّاس » أول سورة في القرآن الكريم وآخر سورة ، فجاعل منها مثلًا لأسلوب الفيروزابادي ومنهجه في تحليل السور ، مع التنبيه على أنَّ هذا المثال موجز لا يقدم دلالة كاشفة على هذا الكتاب ، لأنَّ الفيروزابادي قد توسع في الحديث عن سور القرآن وعن مفرداته بحيث استغرق مباحث التفسير واللغة مما يجد فيه القارىء كامل فائدته وسعادته .

بصيرة في الحمد[11] :

اختلف العلماء في موضع نزولها ، فقيل : نزلت بمكة ، وهو الصحيح ، لأنَّه لا يعرف في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب ، وقيل : نزلت بالمدينة المنورة مرة وبمكة المكرمة مرة ، ولهذا قيل لها : السبع المثاني ، لأنها ثنيت في النزول .

وأما عدد الآيات فسبع بالإجماع ، غير أن منهم من عدّ ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ دون البسملة ، ومنهم من عكس ، وشذَّ قوم وقالوا : ثمان آيات ، وشذَّ آخرون فجعلوها ست آيات .

عدد كلماتها : خمس وعشرون .

عدد حروفها : مائة وثلاثة وعشرون ؛ وفواصل الآيات : م ، ن .

أسماؤها قريبة من ثلاثين : الفاتحة ، فاتحة الكتاب ، الحمد ، سورة الحمد ، الشافية ، الشفاء ، سورة الشفاء ، الأساس ، أساس القرآن ، أُمّ القرآن ، أُمّ الكتاب ، الوافية ، الكافية ، الصلاة ، سورة الصلاة ، قال الله تعالى في حديث قدسي : (**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**) الحديث ، يعني فاتحة الكتاب ، السبع المثاني ، لأنها تثنىٰ في كل صلاة ، أو لاشتمالها على الثناء على الله تعالى ، أو لتثنية نزولها ؛ سورة الفاتحة ، سورة الثناء ، سورة أُمّ القرآن ، سورة أُمّ الكتاب ، سورة الأساس ، الرقية لقوله ﷺ : (وما أدراك انها رقية) .

ومضى الفيروزابادي يذكر المقصود من نزول هذه السورة ، ويبين انه ليس فيها ناسخ ومنسوخ ، ويبين أيضًا المتشابهات في سورة الحمد ، وفي النهاية تكلّم عن فضل السورة ومكانتها .

بصيرة في ﴿ قل أعوذ بربّ النّاس ﴾[12]

« السورة مدنية ، وآياتها سبع عند المكيين ، والشاميين ، وست عند الباقين : المختلف فيها آية ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ . وكلماتها : عشرون ، وحروفها : تسعة وعشرون ، وفواصلها على السين ، وسميت سورة النَّاس لتكرر لفظ النَّاس خمس مرّات .

معظم مقصود السورة : الاعتصام بحفظ الحق ـ تعالى ـ وحياطته ، والحذر والاحتراز من وسواس الشيطان ، ومن تعدِّي الجنّ والإنسان في قوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .

ومن المتشابه قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ثم كرّر (الناس) خمس مرّات . قيل : كرر تبجيلًا لهم على ما سبق . وقيل : كرر لانفصال كل آية من الأخرى بعدم حرف العطف ، وقيل : المراد بالأول الأطفال ، ومعنى الربوبية يدل عليه ؛ وبالثاني : الشبان : ولفظ الملك يدل عليه ، لأنه منبىء عن السياسة ؛ وبالثالث : الشيوخ ، ولفظ إله المنبىء عن العبادة يدل عليه ؛ وبالرابع : الصالحون والأبرار إذ الشيطان مولع بإغوائهم ؛ وبالخامس المفسدون والأشرار وعطفه على المعوّذ منهم يدل عليه » .

وبعد ؛

فهذا هو كتاب الفيروزابادي « **بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز** » أحد كتب الحضارة الإسلامية الخالدة ، وهو دليل واضح على ما قدّمه أسيادنا الأعلام ، وعلماؤنا الأمجاد من خدمات لهذا الدين الحنيف ، ولهذه اللغة الشريفة ، وما أحرانا أن نترسم خُطا هؤلاء السادة ، فنقرأ ما كتبوا ، ونتعلم ما رسموه لنا من مناهج البحث والتأليف . إن المؤتمرات التربوية لتعقد اليوم ، على أعلى مستويات المسؤولية في الوطن العربي ، للبحث في المناهج الدراسية ، المناهج المحورية ، المناهج المتداخلة التخصصات ، خصائصها ومميزاتها ، وما علموا أن كلّ كتاب من كتب الحضارة الإسلامية الخالدة ، يقدم مثلًا على هذه المناهج المتكاملة ، وما علموا أن كل عَلَم من أعلام الفكر الإسلامي الشامل ، هو مثل على هذه النظرة التربوية النبيلة ، التي تجمع بين دقة الهدف وأصالة المحتوىٰ ويسر الأسلوب وسمو التوجيه والتقويم ، وقبل ذلك وبعده ، أصالة التربية وتوجهها نحو صناعة جيل متعلم ، مؤمن بربه ، متخذ سبيله على بصيرة وهدى ، إلى طريق السعادة في الدارين : الدنيا والآخرة ، والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) نشرته مكتبة المنار بالزرقاء ـ الأردن ، صيف عام ١٩٨٥م .

(٢) الفيروزابادي ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، دار الباز للنشر والتوزيع بمكة المكرمة ، والمكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، الجزء الأول ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤ .

(٣) اللاءات تعني مجموع ما في القرآن الكريم من حرف لا ، أما اللام فجمعها لامات .

(٤) بصائر ذوي التمييز ، ج١ ص١٥ .

(٥) بصائر ذوي التمييز ، ج١ ص٢٦ .

(٦) بصائر ذوي التمييز ، ج١ ص٢٤ ـ ٣٥ .

(٧) بصائر ذوي التمييز ، ج١ ص٣٥ .

(٨) بصائر ذوي التمييز ، ج١ ص٥٧ .

(٩) بصائر ذوي التمييز ، ج٢ ص٤ .

(١٠) بصائر ذوي التمييز ، ج٦ ص٧ .

(١١) بصائر ذوي التمييز ، ج١ ص١٢٨ .

(١٢) بصائر ذوي التمييز ، ج٥ ص٥٥٧ .

أبو جعفر النحاس وكتابه: القطع.. والائتناف



عالم الكتاب

عرض: الدكتور أحمد محمد الخراط

■■ يعبر كثير من مؤرّخي الغرب عن دهشتهم إزاء كثرة المؤلفات التي تركها العلماء المسلمون حول القرآن الكريم، حيث اقبلت الأجيال تلو الأجيال على دراسته وبيان أوجه العظمة في ثناياه. والواقع أن كتاب الله لا يزال يستحق المزيد من التعمق في درره وعلومه وآفاقه لكي لا يكون تعاملنا معه مقصوراً على التقدير العاطفي، وإنما ينبغي أن يكون هذا التقدير مبنياً على أسس العلم والفهم والإدراك.. وفي هذه الصفحات سندرس كتاباً من كتب التراث التي بحثت علماً من علوم القرآن وهو كتاب «القطع والائتناف» للنحاس.. ■■

المؤلف :

ابو جعفر محمد بن إسماعيل النحاس النحوي المصري، رحل لطلب العلم إلى بغداد، حيث كانت تزخر بالعلماء آنذاك، وأخذ هناك عن مشايخ النحو الذين يشار إليهم بالبنان من مثل: **الزجّاج والأخفش الأصغر وابن كيسان**، (بغية الوعاة: ١/٣٦٢)، كما اتجه إلى تنويع ثقافته، فأخذ عن النسائي علم الحديث (الوافي بالوفيات: ٣٦٢/٧). وعُرف عن الرجل كثرة الشيوخ فقد وصفه **الزبيدي في طبقاته (ص:٢٣٩) بقوله**:

«... كان واسع العلم غزير الرواية كثير التاليف، لم تكن له مشاهدة، فإذا خلا بقلمه جَوَّد واحسن»، وزادت مؤلفاته على الخمسين، طبع منها: **إعراب القرآن، القطع والائتناف، الناسخ والمنسوخ، شرح القصائد، شرح ابيات سيبويه**.

توفي الرجل سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة.

الكتاب

القطع معناه الوقف؛ وهو قطع الكلمة عما بعدها وجوباً أو جوازاً، كما افاض في شرحه القراء وبيَّنوا أنواعه.

أما **الائتناف فهو الابتداء والاستئناف**، وقد استخدم **النحاس** في كتابه عدة مصطلحات لأنواع الوقف، منها التام أو التمام والكافي والحسن والقبيح.

ويحتاج هذا العلم إلى دراية خاصة بالمباحث التالية :

١ — القراءات :

من المعلوم أن كتاب الله قد تُلي على وجوه متعددة، منها: ما هو متواتر، ومنها: ما هو شاذ، وكانت هذه القراءات تستقي من لغة العرب وأشكال التعبير فيها، وتعتمد لغة العرب في أدائها على وظيفة الحركة الإعرابية آخر الكلمة، وأحكام الوقف والابتداء مظهر واضح من مظاهر اختلاف الأداء الوظيفي للحركة الإعرابية. وعُني **النحاس** في كتابه بربط مواضع الوقف والابتداء بمذاهب القراء **فكان يُبَيِّن ان التمام عند هذا القارىء عند ذلك اللفظ، أما القارىء الآخر فكان يستانف ليوافق الاستئناف قراءته مثال ذلك قول النحاس**:

«... **قال يعقوب**: **من الوقف قول الله جل وعز**: ﴿ **وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (مريم:٣٥)، ثم قال مبتدئاً مخبراً: ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ** ﴾ (مريم:٣٦) فكسر (إنَّ) على الابتداء. ومن قرأ ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ**﴾ [قرأ ابن كثير ونافع وابن عمرو بفتح همزة «أنَّ» والباقون بكسرها، السبعة: ٤١٠] ففتح، عَطَفَهُ على ﴿ **وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ** ﴾ (مريم:٣١)، وبأن الله ربي وربكم.

قال **ابو جعفر**:

إذا كسر فالقول كما قال، وإذا فتح فقوله كقول الفراء: إنه معطوف، ولا يكفي الوقف على «**فيكون**»، وكذا على **قول ابي عمرو** لا يكفي الوقف على «**فيكون**» لأنه يقدِّره بمعنى: «**وقضى أن الله ربي وربكم**»، وعلى قول **الخليل وسيبويه** يكفي الوقف على «**فيكون**» لأن التقدير عندهما: ولأن الله. وعلى قول الكسائي يكفي الوقف على

■ إذا أراد المسلم ان يستقي من كتاب الله ماينفعه كان لا بد له أن يفهم ارتباط أول اللفظة بآخرها وعلاقة الجملة التالية بالأولى ■

■ لايقوم بالتمام إلا نحوي عالم بالقراءة عالم بالتفسير عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض عالم باللغة التي نزل بها القرآن ■

« فيكون » لأن تقديره : « والأمرُ أنَّ الله ربي وربكم » (القطع والائتناف : ٤٥٤ - ٤٥٥) .

٢ - تفسير المعاني :

نزل كتاب الله ليخاطب العباد بتوجيهاته وأوامره ونواهيه ؛ وإذا أراد المسلم أن يستقي منه ما ينفعه كان لا بد له أن يفهم ارتباط أول اللفظة بآخرها ، فأين الأول وأين الآخر ؟ وما علاقة الجملة التالية بالأولى ؟ أتفيد منطوقاً جديداً أم انها ترتبط بسابقها .. وما مدى هذا الارتباط ؟ إن أبا جعفر يبيِّن كل أولئك ويوضح ارتباط أحكام الوقف بالمعنى ، ويعلل ذلك ، ويشير إلى آراء العلماء ، حيث كان فَرْشُ أحكام الوقف والابتداء صدى لاختلافهم في معاني الآيات الكريمة ، وقد يكون حكم الوقف مما اتفقوا عليه . قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة:١٩) ، ثم قال :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (التوبة:٢٠) ، قال **النحاس :**

« ... **والتمام : ﴿ ... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾** » (القطع والائتناف:٣٦٠) .

٣ - مذاهب الفقهاء :

اختلف الفقهاء في كثير من القضايا الفقهية ، ومضى كل فريق منهم يحاول أن يدعم مذهبه بآيات القرآن الكريم ، ويوجه سير هذه الآيات توجيهاً يوافق فَهْمَه ، فيقرر الوقف على تلك اللفظة والاستئناف بما بعدها ، بينما يستأنف آخرون حيث وقف الأوّلون .

وأبو جعفر - وإن لم يمض في بيان تفاصيل احتجاج المدارس الفقهية - يشير إلى ذلك بعبارات موجزة ، بحيث لا يخرج عن موضوعات كتابه .

٤ - النحو :

تُعَدُّ مباحث الوقف والابتداء لصيقة بأحكام النحو والإعراب ، حيث إنها الثمرة الدانية التي يجنيها الواعي البصير بهذه الأحكام ، فهذا هو المبتدأ الذي لا يجوز الوقف على ما بعده من كلمات لأنَّ خبره لم يأتِ ، وهذه الجملة الواردة بعد هذه الكلمة استئنافية ، لذا كان على القارىء أن يقف على تلك الكلمة ، وهذا الجار والمجرور خبر فالوقف عنده ، وإن أعربناه حالاً من المبتدأ فلا يجوز الوقف عنده لأن المبتدأ لم يستكمل خبره . وهكذا يمضي أبو جعفر مع أقوال النحاة ومذاهبهم ليعلل ما يكون ثمرة لهذه المذاهب في أحكام الوقف والابتداء . وتبدو شخصية **أبي جعفر** واضحة في ثنايا الكتاب حيث كان يضعِّف بعض الآراء في الوقف ويستدل على ذلك التضعيف بقواعد النحو الصناعية .

مقدمة الكتاب :

بدأ **أبو جعفر** كتابه بالحضِّ على قراءة القرآن قراءة مرتلة على مُكْث ، وبيَّن أن معنى الترتيل في قوله تعالى : **﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾** (المزمل:٤) التبيين ، ومن التبيين : تفصيل الحروف ، والوقف على ما تم معناه منها ، والابتداء بما يحسن الابتداء به ، وتبيين ما يجب أن يجتنب من ذلك . (ص:٧٣) ، ثم قال :

« ... **وهذا الكتابُ نذكر فيه التمام وما كان الوقف عليه كافياً أو صالحاً ، وما يحسن الابتداء به وما يجتنب من ذلك** » ، وبيَّن ضرورة هذا العلم وطريقة سرده للمعلومات « ...**ونؤلفه سورة سورة** » وبعد المقدمة يذكر فضائل القرآن وأهله واختار من الأحاديث « **ما لم يكن مُطّرح الأسانيد ، لأن الفضائل قد كثر فيها ما هو مُطَّرح الإسناد** » . ثم ذكر صفة قراءة **النبي** ﷺ وإنكاره الوقف على غير تمام :

« **عن عدي بن حاتم الطائي قال : جاء رجلان إلى رسول الله ﷺ فتشهَّد احدهما فقال : « من يطع الله جل وعزَّ ورسوله فقد رشد ومَنْ يعصهما » فقال رسول الله ﷺ : بئس الخطيب انت ، فقم ، كان ينبغي أن تصل كلامك : ومَنْ يعصهما فقد غوىٰ ، أو تقف على رسوله فقد رشد** » .

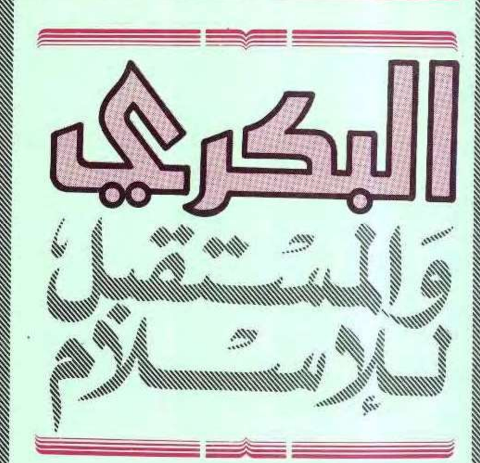
قال النحاس :

« ... **فإذا كان هذا مكروهاً في الخطب وفي الكلام الذي يكلم به بعض الناس بعضاً كان في كتاب الله عز وجل أشد كراهة** » ، (ص:٢٨) ، ثم ذكر مذاهب الصحابة والتابعين في الوقف والابتداء وما يحتاج إليه من حقَّق النظر في التمام فيروي عن مجاهد أنه كان يقول : « **لا يقوم بالتمام إلا نحوي عالم بالقراءة ، عالم بالتفسير ، عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض ، عالم باللغة التي نزل بها القرآن** » (ص:٩٤) . ثم ذكر مصادر هذا العلم من كتب القراء : كنافع ويعقوب ، وكتب النحاة : كالأخفش والفراء ، وذكر أسانيد ما في الكتاب ، فقال مثلاً : « **كل ما قلنا فيه : قال نافع فإنا كتبناه عن ابي جعفر احمد بن عبدالله يرويه عن إسماعيل بن عبدالله واشعث بن سهل عن احمد بن محمد عن نافع بن ابي نعيم** » (ص:٩٩) . ثم يعرض أحكام الوقف والابتداء في سورة الفاتحة فالبقرة فآل عمران إلى نهاية القرآن الكريم .

قامت وزارة الأوقاف العراقية بطباعة الكتاب في مجلد كبير يقع في أربعين وتسعمائة صفحة بتحقيق **الدكتور احمد خطاب العمر** . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عالم و كتاب





□□ كان الشيخ محمد توفيق البكري (١٨٧٠ - ١٣ أغسطس ١٩٣٢) ، من ألمع الأسماء المصرية في الشرق العربي والاسلامي ، وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .. عاش البكري حياته ، وهدفه الأكبر .. أن يتحقق بعث الانسان المسلم القوي الحر ، من جديد ، كانت اليقظة الاسلامية ، هي أمله في تغيير واقع المسلمين الضعيف .. وقضيته التي يعمل من أجلها بشتى الوسائل □□

حياته

ولد في بيت ديني عريق ، يتصل نسبه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه . وقد عرف هذا البيت ، منذ وقت طويل ، بالإسهام الإيجابي في الحياة المصرية اليومية .. على المستوى الجماهيري والقيادي على حد سواء . حتى يكون بيت البكري ، في يوم ما أول البيوتات ، كما يقول عباس محمود العقاد « التي اشتركت قديماً وحديثاً في خلع الولاة وتنصيبهم بمراجعة الباب العالي في الآستانة » .

كان **محمد توفيق البكري** ، تلميذاً مخلصاً في مدرسة القرآن .. منذ أن قرأ آياته لأول مرة وهو طفل ، يحفظها ، قبل أن يدخل مدرسة الأنجال .. التي أنشأها الخديوي توفيق لأبنائه وولي عهده ، وأمراء الأسرة المالكة ، وأبناء الصفوة الارستقراطية والثرية في المجتمع المصري ، وظل البكري كذلك بعد أن حصل على البكالوريا (**الثانوية العامة**) ١٨٨٩م ، وكان **ترتيبه الأول** ، وأخذ يدرس العلوم القرآنية ، بكل ما يتصل بها .. **حتى امتحنه وأجازه شيخ الجامع الأزهر العلامة الشيخ الانبابي ، وقد عين في نفس العام .. عضواً في مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وقام بإصلاحاته المشهورة** .. وقد اصطبغت أعماله بالصبغة الاسلامية ، التي جعلته شخصية مرموقة في المجتمع .

وقد تصدى عالمنا للعمل الاسلامي ، وهو في سن الشباب .. قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . كما اشتغل بالسياسة وحظي بإعجاب **الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد الثاني** .. إلى درجة أن أنعم عليه برتبة « **الوزارة العلمية** » ، فكان المصري الوحيد الذي حصل عليها .

والتلمذة في مدرسة القرآن ، هي التي جعلت **محمد توفيق البكري** أيضاً ، مع نسبه العريق .. لا يعتمد على هذا النسب ، مكتفياً بأن يتفيأ ظلاله .. مادياً ومعنوياً ، كما كان ولا يزال يفعل غيره ، من العاطلين بالوراثة ، بل كان يؤمن بأن قيمة كل امرىء ، كما يقول : « **بقدر علمه وعمله .. وما عدا هذا فأحاديث وسير ، وأقاصيص وسمر** » ! وهذه الرؤية الفكرية الاسلامية المتقدمة ، هي التي دفعت **البكري** إلى المساهمة في تشكيل الحياة المصرية الحديثة ، في أكثر من مجال .. ولا يبالي بمجابهة أكبر رأس في البلاد ، وهو **الخديوي عباس الثاني** .

« **فانظر في سير الأولين ، وأخبار الماضين ، فكم فيها من جليل وغني ، وكبير وسري ، كانت تسير له المواكب ، ويقف له على كل باب حاجب ، قد انقضى بموته خبره ، ومحي في غياهب الحقب أثره ، فلا نعرف له اليوم ذكراً ، ولا نقيم له قدراً ، وكم من عالم أو شاعر ، أو قائد أو ناثر ، كان من خدام بابه ، وسدنة أعتابه ، لا يزال ذكره بيننا حاضراً ، وفضله في أيدينا ناضراً ، ولا سبب لهذا إلا أنه كان لهذا (علم وعمل) ، وأما الأول فكان خلواً منهما ، إن هي إلا زخارف وشارة ، وأبهة وامارة ، تذهب كالزبد جفاء ، إن حان لصاحبها انقضاء . ولهذا قلت في شعر لي :**

إنمـــا التَّاريخ كـــير لا يني ينفـــث الخبـــث

كتبـــــــــه ومؤلفـــــــــاته ..

وتحقيقاً لهذا المبدأ ، من ناحية الاشتغال بالفكر .. قدم البكري إلى المكتبة العربية ، ستة كتب هي : **صهاريج اللؤلؤ ، أراجيز العرب ، فحول البلاغـــة ، بيت الصديق ، بيت السادات الوفائية ، المستقبل للإسلام .. حظيت بإعجاب الملايين ، وطبعت عدة مرات** .

بقلم : علاء الدين وحيد

● إن الموت في حياة الأمة خير من الحياة في موتها

● ليست الغاية من الدين مجرد الانتساب إليه فإن ذلك لا يهدي الى خير ولا يدفع عن شر



□ جمال الدين الافغاني : نبّه المسلمين إلى المطالبة بالشورى في الحكم □




□ عبد الرحمن الكواكبي : العقيدة الاسلامية اساس الوحدة الصادقة □

ونذكر في هذا المقام ، قول شيخ الشعراء إسماعيل صبري باشا ، عن البكري وكتاباته :

مؤلف لو أنصفوه لما | أصغى له المصغون إلّا قياما

كان **البكري** ، يؤمن إيماناً عميقاً بالوحدة الاسلامية ، وأنها الملاذ الأول والأخير للبعث الاسلامي والعربي ، ولهذا فهو يدعو إلى هذه الوحدة بقوة .

وقبل أن نتناول دعوته بالدراسة ، نجد أنه من الضروري الإشارة إلى العوامل السياسية التي كانت تدفع **المصلح الاجتماعي ، والمفكر المجدد ، والداعية الاسلامي ، إلى التماس الوحدة الاسلامية ملجأً .. خاصة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .**

لقد كانت معظم البلاد التي تنطق بالضاد أو تدين بالاسلام ، واقعة تحت سيطرة الاستعمار ، وكانت الصليبية المتعصبة تتسلط على مقدراتها ، وتحاول أن تقضي على اختلاجة الحياة التي بدأت تدب في جسد الانسان العربي والمسلم ، وهو يعمل على التحرر من قيده .. وكان الخليفة العثماني في استنبول مع ضعفه ، رمز المسلم الذي يلاقي الهوان من العالم الغربي .. ولذا كانت أفئدة المسلمين تتعلق به ، مع ما كان ينسب إليه من ظلم .

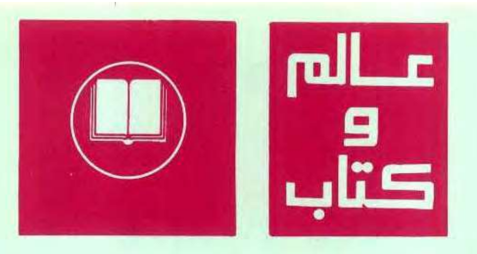
يقول دكتور عبد اللطيف حمزة :

« منذ أصبحت أمم الشرق هدفاً من أهداف الاستعمار الأوروبي ، والساسة الأوروبيون يفكرون جدياً في هدم كيان هذه الأمم وتوهين قواها ، وحل الرباط الذي يربط بينها ، سواءً كان هذا الرباط سياسياً كما تصوره العلاقة بين الدولة العلية والأقطار الاسلامية التي تدين لها بالزعامة الحقيقية ، أم كان هذا الرباط معنوياً كما تصوره العقيدة الاسلامية التي تعلق بها جميع رعايا الدولة العثمانية » .

وهذه الملامح في مجموعها لا تختلف عما يحدث اليوم ، والمسلمون يتعرضون لتنكيل الرجل الأوروبي ، الظاهر والمستتر ، الذي يريد إجهاض البعث الاسلامي . ولا يملك مفكر كبير مثل عباس محمود العقاد ، إلا أن يقول محذراً : « لا ينسى المسلمون أنهم مجموعة من أمم العالم ، فإن العالم لا ينسى هذه الحقيقة ولا يزال يذكرها ويتذاكرها ويرتب عليها ما يرتبه من الخطط والمواقف بإزائها » .



□ السلطان عبد الحميد الثاني : ضحية الصهيونية الحاقدة والصليبية المتعصبة □



عالم و كتاب

موضوع الكتاب

« المستقبل للإسلام » دعوة البكري من خلال كتابه ..

كان الشيخ البكري في دعوته ، بشكل عام مستوحياً قوله تعالى في القرآن الكريم ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وكان يردد : **من قال من المسلمين في أية بقعة من الأرض (وطني) فقد قال (ديني)** .

ونستطيع أن نقف على تفاصيل دعوة البكري ، من كتابه الذي ضمها وهو « المستقبل للاسلام » الذي صدرت منه الطبعة الأولى في عام ١٨٩٣م ومع أنه بهذا الشكل يكاد يبلغ من العمر مائة سنة ، إلا أنه لا يزال يقول الشيء الكثير المفيد في موضوعه ، وقد كان الصحفي المشهور **الشيخ علي يوسف** ، يعد هذا الكتاب في زمنه ـ حسبما أشار الدكتور ماهر علي **حسن فهمي** في كتابه « **محمد توفيق البكري** » ـ المرجع الإسلامي الثاني بعد « **أم القرى** » **لعبد الرحمن الكواكبي** » لكل مهتم بأحوال المسلمين الفلسفية والاجتماعية .

والكتاب يتكون من ثلاثة فصول هي : في رأس مال المسلمين ، وفي أسباب الانحطاط ، وفي وسائل الارتفاع .

كان **الشيخ البكري** يؤمن بأن مستقبل الأمم ، يتوقف على عاملين يتوافران في البلاد الاسلامية ، وهما : كثرة السكان ، وخصب المكان .

فإذا استوفت الأمة حظها من هذين الأمرين عظم مستقبلها بقدر ذلك مهما حرمت في الحال من الأسباب الأخرى الكسبية كالعلم والأخلاق والقوانين والحكومة وغير ذلك ، فإن هذه جميعها يأتي بها دور الزمان ، وإن أخرتها آونة طوارق الحدثان » .

وبجانب ذلك ، فالإسلام يملك في ذاته وسيلة انتشار غير عادية بالنسبة إلى الأديان الأخرى ، ويرجع سبب ذلك إلى عدة عوامل :

الأول : سلامة العقيدة الاسلامية وسهولتها ، يقول **إسحق طيلر** :

« وهو الآن (أي الاسلام) ينتشر في افريقيا بسرعة لا يتأتى عليها الوصف ، وإننا لنرى الاسلام أوفق ما يكون لتهذيب الأمم المتوحشة وترقيتها ، أما الديانة النصرانية فلا تنالها عقولهم ، وبذا قد نفع الاسلام المدنية أكثر مما نفعتها النصرانية » .

أما العامل الثاني فهو :

موافقة أحكام الاسلام للفطرة الانسانية وابتناؤها كما يقول البكري على الحكمة العقلية ، ويستشهد عالمنا الاسلامي بهذه الفقرة للعالم الفرنسي لوشاتلييه في كتابه « **الاسلام في القرن التاسع عشر** » وهو يقول :

إن نمو الاسلام في الهند أمر لا ينكر ، وسببه في الغالب حكم المساواة بين الناس الذي سنته الشريعة الاسلامية ، وذلك أن أهل الهند حسب مذاهبهم القديمة ينقسمون إلى طوائف لا ينبغي لطائفة منها أن ترقى إلى الطائفة التي فوقها ، فمن ولد منهم في طائفة دنيا لا يجد له مخلصاً من الارتقاء إلى العلاء والخلوص من قيد الطائفة إلَّا اعتناق الاسلام » .

أما العامل الثالث في انتشار الاسلام فهو : حذق دعاة الاسلام ، والتزامهم العملي بما يؤمنون به ويدعون إليه .

والعامل الرابع والخامس ، هما : **تعدد الزوجات ، وبغض الأمم الوثنية للنصارى وميلهم إلى المسلمين بالفطرة** .

وبالنسبة لهذا الأمر ، يعترف **هانوتو** وكان وزيراً لخارجية فرنسا ـ الذي ناقش كتاباته الشيخ محمد عبده ـ أن الاسلام : هو الدين الوحيد الذي أمكن اعتناق الناس له زمراً وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه » .

وينتقل **البكري** إلى دراسة أسباب انحطاط المسلمين ، فيجده قبل كل شيء في الجهل ، فقد كان رأيه : ان الأمم يمكن رفعها أو خفضها بالارادة ، أما الآلة الرافعة أو الخافضة لها فقد اتفقوا أنها العلم أو الجهل . ويقول في موضع آخر : **إن الذين يعددون الأسباب الكثيرة في انحطاط الأمم أو ارتفاعها إنما يذكرون أسباباً ثانوية لعلة أولى هي علة العلل وهي الجهل أو العلم** .

والجهل الذي أخر المسلمين ، أفرخه أيضاً البعد عن تعاليم الدين والتخفف من القيم الاسلامية والاسراف على النفس في الطمع والأثرة والحقد والشر ، وكان البكري ألصق الناس بهذه القضية ، يأسى على حال المسلمين والهوة التي تردّوا فيها بسبب تجاهلهم لدينهم .. حتى أصبحوا مثالاً للضعف والذلة والهوان ، يتضاربون فيما بينهم ويكره بعضهم بعضاً ، ويحتلهم الاستعماريون ويقعون بين مخالب المستغل الداخلي والخارجي على حد سواء .

« أما الدين فلو حكمناه في نفوس أكثر المسلمين الآن ، وطبقناه على عقائدهم وأخلاقهم وأحكامهم لوجدناه لدى أكثرهم في محل كل عقيدة قرآنية ، أو خلق ديني ، عقيدة أخرى ، أو خلقاً آخر يكاد يضاد الأول على خط مستقيم ، وإذا كان الأول آلة للعلاء كان الثاني علة للانحطاط . ليس الغاية من الدين مجرد الانتساب إليه ، فإن ذلك لا يهدي إلى خير ، ولا يدفع عن شر ، وإنما العمل والانتفاع بكل ما جاء فيه هو الذي يرقى صاحبه إلى ذرى الكمال » .

« ومهما قلَّبت بصرك لا تجد الدين في الغالب مستعملاً فيما وضع

له ، فهو عند الخاصة موضوع مناقشات لفظية ، وصناعة فصاحة كلامية ، ومجال براعة في اختراع وجوه ، وتأويل مناحٍ ، وبعد عن مقاصد ، وعند العامة دفتر تعاويذ ورقىً ، وكتاب ترتيل وكلام يقال لكي لا يفهم ، حتى قال بعض الأدباء : **فات هؤلاء أن يفهموه الأحياء فهم يسمعونه الموتى في القبور** !

وكان عالمنا من أسبق مفكري جيله في دحض القضية المثارة وقتها ـ ولا تزال ـ والتي تجعل الدين ضد العلم .. « إن ذلك غير صحيح ، وإنما جاء لهم من أنهم حصَّلوا من الدين ما ليس منه أو أخطؤوا مقاصده ومعناه » . « وكل ما أدخل على الدين من تحريف الأصول الحقيقية والقواعد العامة التي فيه فإنما جاء من فساد عرض ، أو عرام طرأ ، وهو منه براء » .

وبعد أن يحدد شيخنا علة المسلمين وأسباب المرض ، يحدد العلاج . ويكون .. العلم . ومن كلمات البكري الرائعة في هذا المجال ، قوله : لا يكون (استقلال) حتى تكون (أمة) ولا تكون (أمة) حتى يكون (علم) ..

إن الدعوة إلى اليقظة هي التي تستوعب نداء الشيخ البكري في « المستقبل للاسلام » . إن صاحبها لا يفتأ يردد كثيراً :

« والأمة الاسلامية التي ملأت المشرقين والمغربين ، تنتفض انتفاض الطائر في شباك الصائد ، ولا تعمل للنجاة عملاً ، وكيف ترجو الوصول إلى الغاية وهي لا تنقل إليها قدماً ، ولا تحرك شفة ولا قلماً ، ومن طلب شيئاً وجده ، ومن تركه فقده » .

وهكذا كان اللحن الغالب على دعوة البكري ، هو مطالبة الأمة الاسلامية ، أن تستجمع عزيمتها مؤصلة : **أن الموت في حياة الأمة خير من الحياة في موتها ، وأنه لا محيص من الصدر أو القبر ..**

ومن الجوانب الهامة في دعوة عالمنا ، التفاته إلى الدعوىٰ التي يزعمها دائماً نفر من الأقلية النصرانية في البلدان العربية والاسلامية وتعضدهم فيها الصليبية الغربية .. والتي لا تزال حتى اليوم تلازم الدعوة إلى وحدة المسلمين ، وهي معاداة هذه الوحدة للأقليات الدينية ، مفنداً ، مبيناً الحقيقة فيقول : « على أن الأمر ليس كذلك فإن رابطة الذمة تقوم مع هؤلاء النصارى مقام الدين ، فلا يحرم الفريقان من التعاون والتعاضد للعمل ، وقد أمر القرآن بمزيد الحسنىٰ معهم . قال تعالى :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : ٨) .

كما يذكر البكري أيضاً في احترام الاسلام لحقوق الأقلية ، كلمات للرسول عليه الصلاة والسلام وهي : « من قتل معاهداً في غير كنهه حرَّم الله عليه الجنة » و « من آذى ذمياً فقد آذاني » وفي رواية « فأنا خصمه » .

ولا ريب أن الكثير مما جاء في دعوة البكري أو « **نابغة الاعلام** » كما يصفه **محمد صبري** صاحب « **شعراء العصـــر** » كان يُغضب الاحتلال الانجليزي ممثل الصليبية ، والخديوي عميلهم الأول ، والخواجات القابضين على الاقتصاد المصري ، ولكن لا جديد في شجاعة **البكـري** وصراحته وتعاطفه مع الآخرين ، والموقف في « **المستقبل للإسلام** » ، **يقـــول الاستاذ عمر الدسوقي** عن الجانب الأخير في فكر **البكري** وموقفه الحياتي :

« إن هذه الآراء متقدمة على زمانه ولا سيما في مصر ، إذا كان جمال الدين قد نبه المصريين إلى المطالبة بالشورى ، فإنه لم يعن العناية الكافية بالاصلاح الاجتماعي على الرغم من صيحته المدوية للمصريين بأنهم نشؤوا في الاستعباد ، وربوا في حجر الاستبداد ، وعلى الرغم من تحريضه لهم على الثورة ، لأن غايته كانت سياسية ،**وإن كان بعض تلاميذه قد تأثر بدعوته إلى الاصلاح الاجتماعي مثل عبدُ الله نديم ، ونادىٰ في جريدته « التنكيت والتبكيت » بإصلاح المفاسد الاجتماعية ، ولكن آراءه لم تبلغ في جرأتها ، وتقدمها نحو المساواة الحقيقية بين طبقات الأمة مثل آراء توفيق البكري ، وإن لم يكن لها الصدىٰ الذي تستحقه لأن الأسلوب الذي صيغت فيه يعلو على مستوى أبناء الخاصة وجمهور العامة في ذلك الوقت** » .

ولقد كان اسلوب عالمنا الشيخ في « **المستقبل للاسلام** » ، سهلاً بسيطاً سلساً ، أقرب ما يكون إلى الأسلوب الصحفي الأدبي ، ونادراً ما تعثر فيه على كلمة صعبة ، كما يتفشى ذلك في شعره ! ومجموعة مقالاته « **صهاريج اللؤلؤ** » ! .

ولا شك أن **البكـري** وفق في دعوته ، وكان لسعة أفقه وعمق ثقافته الاسلامية ، واستيعابه لجوانب غير قليلة من الفكر الأوربي خاصة الفرنسي في عصره ، (وهو يعرف عدداً من اللغات الأجنبية) انعكاسٌ في تناوله لموضوعه ، واستعانته بآيات كثيرة من القرآن وأحاديث للنبي الكريم ﷺ ، ومواقف لكبار المفكرين العرب القدامىٰ والجدد خاصة الشيخ جمال الدين الأفغاني ، وكذلك دراسات أجنبية سياسية وتاريخية واجتمـاعية لكبـار الكتاب والمفكرين في الغرب ..

واجتماع الثقافة العربية والاسلامية بالثقافة الغربية عند صاحب « **المستقبل للاسلام** » ، جعله يتجاوز السطح إلى الأعماق ، ويقدم أكثر من بعد لمعالجته ، خاصة وهو يعرض للجانب الآخر الذي يمثله رجال الدين النصارى المنصفون ، فإذا بملامح الصورة تبدو أكثر جلاء ، كما فعل وهو يستشهد بالقسيس إسحاق طيلر الذي يقول :

إن الاسلام يمتد في افريقيا وتسير الفضائل معه حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره ، ومع الأسف إن السكر والفحش والقمار تنتشر بين السكان بانتشار دعوة المبشرين » !



الشيخ مصطفى عبد الرازق

وتمهيد في تاريخ الفلسفة الاسلامية

يقول الدكتور طه حسين في وصف اسلوبه :

« لا تجد فيما يكتبه معنى نافراً او فجاً لم يتم نضجه قبل أن يعرب عنه .

وانت لا تجد فيما يكتبه لفظاً نابياً عن موضعه ، او كلمة قلقة في مكانها .. ما اشبه كتابته بعمل صاحب الجواهر يستاني ويتأنق في صنعها لتخرج من يده جميلة رائعة .. » .

□□□□□

حياته

□□ ولد الشيخ مصطفى حوالي عام ١٨٨٥م (لا يمكن على وجه الدقة تحديد يوم ، وشهر ، وسنة مولده فيما يقرر الأخ الأصغر للشيخ مصطفى في كتابه عنه المعنون « مصطفى عبد الرازق » وأصدرته دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠م تأليف علي عبد الرازق) .

وتلقى العلم في باكوراه بالكتَّاب ، فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم . ثم التحق بجامعة الأزهر . وحصل على الإجازة العالمية عام ١٩٠٨م .

وظل يداوم على قراءته للقرآن الكريم منذ يفاعته عقب صلاة الصبح والعصر كل يوم ، بقدر ربعين أو ثلاثة ، فإذا صام فرضاً أو نفلاً أدام قراءة القرآن إلى أقصى مدى يمكن أن يبلغه جهده في الفهم والإحاطة والاستيعاب .

وكانت مداومته قراءة القرآن سبباً في غرس ميله إلى القراءة والاطلاع ، فصار طلعة ، لم يعقه عائق عن الاقبال على الكتب وهضم محتواها في كل الظروف وتباين الأحوال ، ومهما اختلفت تقلباته المزاجية ، أو تفاوتت شدة ويسراً وقائع حياته اليومية □□

وقد هيأ له اطلاعه ، وطول عكوفه على البحث والتأمل ، أن تكون له عقلية موسوعية شمولية ، تتسم بالموضوعية ، وحسن الفهم ، والغوص وراء المعاني والدلالات مع قدرة على المقارنة والتقويم .

وتشحذ عزيمته لاتساع آفاق دراسته ، فيسافر إلى فرنسا عام **١٩٠٩م** . . ويقبل على الدراسة في جامعاتها ، ويتقن الفرنسية ، ويدرس بها الفلسفة والاجتماع والآداب ، ويحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة الاسلامية .

وحينما يعود إلى مصر يعين بمجلس الأزهر الأعلى ،وتتوالى المراكز العلمية التي يشغلها . وكان أقربها إلى عقله وقلبه ، منصبه أستاذاً مساعداً للفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية القديمة (الأهلية) عام ١٩٢٧م .

وكان أسلوبه في التدريس يستهوي تلاميذه الذين التفوا حوله ، وأقبلوا عليه ، ويتخرج عليه من حملوا رسالته في العلم والتعليم أمثال الدكاترة عثمان أمين ، وتوفيق الطويل ، وعثمان نجاتي الذين عملوا بالتدريس بقسم الفلسفة بكلية الآداب في جامعة القاهرة وغيرها .

وكانت طريقته في التدريس قوامها مشاركة تلاميذه البحث ، واستكشاف الحقائق ، وجمع المعلومات من مظانها .

وقد منح لقب أستاذ في الفلسفة في أكتوبر عام **١٩٣٥م** .

واشترك مع الدكتور طه حسين في ترجمة كتاب « **الواجب** » لمؤلفه الفيلسوف الفرنسي « **جيل سيمون** » عن الفرنسية .

منهجه في تاريخ الفلسفة الاسلامية ..

تنفرد بعض المؤلفات التي يكتبها أصحابها باحتوائها على الأسس والمبادىء الجوهرية التي تكمن وراء وجهة نظرهم في موضوع ما . وتعتبر هذه المصنفات المحاور الأساسية التي يرجع إليها في تفسير اتجاهاتهم ، وتفهم آرائهم .

وهذا ما يؤكده كتاب « **تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية** » الذي ألَّفه الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ويتميز بهذه الخصائص من بين مقالاته ومحاضراته في هذا الميدان . وقد جاء تعبيراً عن ثقافته الاسلامية ،

وتفاعلها في عقله ، واهتماماته الدينية وصداها في قلبه . . مما ميز معالجته برحابة الأفق ، والتنزه عن التعصب ، وسعة الصدر ، والموضوعية في العرض .

ومن ثم كان هذا الكتاب الذي صدر عام ١٩٤٤م ركيزة أساسية في تفهم موقفه من تاريخ الفلسفة الاسلامية .

ويفصح عن منهجه موضحاً أنه يبدأ باكتشافه بذور الفكر الاسلامي ، ومتابعة أطواره حتى يقف على البذور الأولى للنظر العقلي الاسلامي في سلامته وخلوصه قبل أن يدخل في نطاق البحث العلمي ، وينص على أنه « **جرياً على هذه الخطة نشرع في البحث عن بداية التفكير الفلسفي عند المسلمين ، والبحث في بداية التفكير الفلسفي يستدعي إلمامه بحال الفكر العربي واتجاهاته حين ظهر الإسلام** » .

العرب عند ظهور الاسلام ..

ومن بحث للشيخ مصطفى عبد الرازق عن حال العرب عند ظهور الاسلام يستخلص أن الاسلام جاء والعرب في تشعب ديني وبوادر انبعاث إلى نهضة دينية . والقرآن هو أصدق مرجع في تصوير حالة العرب ، وهو أقدم ما نعرفه من الكتب العربية وبما لقى من العناية بحفظه على مر العصور صار أجدر المراجع بالثقة .

وقد جمع القرآن الأديان التي كان للعرب اتصال بها في عهده في الآية ١٧ من السورة « ٢٢ : الحج » مدنية ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ .

وكان عند العرب طائفة مميزة يسمونهم حكماءهم ، ومن أمثالهم « **في بيته يؤتى الحكم** » وكانت لهم أمثالهم شعراً ونثراً وأطلق عليها حكمة وحكماً وفي الحديث : « **إن من الشعر لحكمًا** » أي كلاماً نافعاً . وعناصر الحكمة هي إتقان في العلم والعمل .

وإذا كان **القرآن الكريم** قد نفر من الجدل في العقائد لتحقيق الوحدة في الدين والتآلف لقوله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا** . . . ﴾ فإنه قد ذكر الحكمة التي عرفها العرب وشجع على استمرارها ، واستعمل الحكمة والحُكم ، ففي قوله تعالى : ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ الحكمة هي العلم النافع والفقه في شؤون الحياة بتعرف الحق فيها وإمضائه . ولا مشاحة أنه قد كان لهذه المعاني الدينية التي أقرها الإسلام أثرها في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهدهم الأول .

الاجتهاد بالرأي .. بداية التفكير الفلسفي عند المسلمين

ويقدم **الشيخ مصطفى** البراهين والأدلة التي تؤكد أن الاجتهاد بالرأي هو بداية التفكير الفلسفي عند المسلمين . فينص على أنه « قد سن الرسول ﷺ لولاته في الأمصار أن يجتهدوا رأيهم حين لا يجدون نصاً ، وجاء القرآن بأحكام كُلِّف بها المسلمون على أن يكون سبيلهم في طاعتها الاسترشاد بالعقل . . فحدث الاجتهاد في التشريع الاسلامي منذ عهد الاسلام الأول في كنف القرآن بترخيص من الرسول ﷺ ، هذا الاجتهاد بالرأي في الأحكام الشرعية هو أول ما نبت من النظر العقلي عند المسلمين ، وقد نما وترعرع في رعاية القرآن وبسبب من الدين ، ونشأت فيه المذاهب الفقهية ، وأينع في جنباته علم فلسفي هو علم « **أصول الفقه** » .

والاجتهاد مرادف للقياس والرأي ، وعند « الشافعي » في « الرسالة » القياس والاجتهاد « **هما اسمان لمعنى واحد** » .

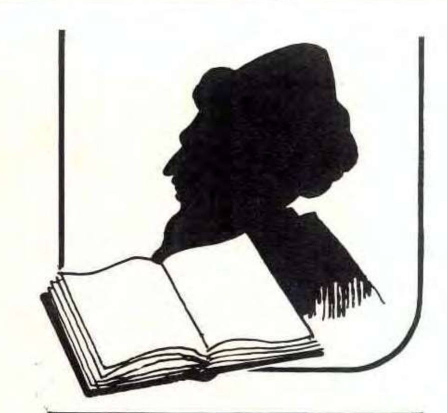
الفلسفة الاسلامية نسق فريد

وبروح سمحة ، تنأى عن التعصب ، وتتنزه عن التحيز يعرض **الشيخ مصطفى** وجهات نظر المؤرخين الغربيين الذين اهتموا بالتأريخ للفلسفة الاسلامية ، ويستخلص أنه قد تلاشى القول بأن الفلسفة العربية أو الاسلامية ليست إلَّا صورة مذهب أرسطو ومفسريه . وأصبح في حكم المسلم به أن للفلسفة الاسلامية كياناً خاصاً متميزاً ، وقد ظهرت فيها ثمرات من عبقرية أهلها . وكما يعترف وُلف **Wulf** أن الفلسفة الاسلامية قد أكدت أنها « **بهذه المثابة انتهى العرب فيها إلى نسق فلسفي فريد في بابه** » .

ويرى **الشيخ مصطفى** أنه قد « **أصبح لفظ الفلسفة الاسلامية أو العربية شاملاً كما بينه « هورتن » لما يسمى فلسفة أو حكمة ، وقد اشتد الميل إلى اعتبار التصوف أيضاً من شعب الفلسفة** » .

وكأن **الشيخ مصطفى عبد الرازق** يوجه كلماته إلى كل المحافل التي تشترك في الاحتفال بالذكرى الألفية « **لابن سينا** » حينما يقول :

« **أرجو أن يكون في تيقظ الخير في البشرية وانسياقها إلى دعوة السلم العام . . والنزاهة الخالصة . . مدعاة للتعاون بين النَّاس جميعاً على خدمة العلم** » .



عالم الكتاب

محمد الصادق عرجون وكتابه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة.. بحث وتحقيق

■■ لا تزال خصائص رسول الله ﷺ في رسالته معيناً لا ينضب، وغيبًا يمدّ العقول والأرواح، والحديث في سيرته ﷺ عريض الأكناف، بعيد المدى، غزير المادة، تسابقت فيه الأقلام، وتنافست الأفكار، فالقدماء من المؤرخين والعلماء والرواة جمعوا ما تناهت إليهم به الأحداث والوقائع من الحقائق، خالط ذلك أقاصيص لا تثبت للنقد والتمحيص، وحشدوا في دواوينهم الكثير مما ناء به كاهل التاريخ.. ■■

وجاء مَنْ بعدهم فاتخذوا تلك الدواوين مراجع لهم، فكان منهم الناقد الممحِّص والعالم البصير، وفيهم الصحفي الغُمْر والمتعالم الجهول، كما كان فيهم الجحود الكنود الذي طوى نيّته على حقد أسود للإسلام والمسلمين فأشاح عن الحق وأعرض عن الهدى، وسار في دياجير الأباطيل، فانحرف وحرَّف، وبهرج وزيَّف !! لكن تلك المؤلفات جميعًا - قديمها وحديثها - لم تخلُ من الروايات العاطفية الواهية، والنقول التقليدية دون إعمال العقل فيها؛ استسلاماً من المحدِّثين للقدماء أصحاب الهالات المشهّرة، حتى ولو كانت هاته الروايات لا تليق بمقام صاحب السيرة عليه الصلاة والسلام، وتتناقى مع أصل من أصول الإسلام! وههنا تكون الثغرة التي اخترق منها الخصوم حصون السيرة المطهَّرة، ومن هنا تبرز أهمية الكتاب الذي نعرض له.

■ المؤلف[1]

هو محمد الصادق إبراهيم عرجون، ولد عام ١٩٠٣م، وتخرج في الأزهر فنال شهادة «العالمية» سنة ١٩٢٩م، والتحق بقسم التخصص ونال شهادته عام ١٩٣٥م، وعُيِّن مدرساً بمعاهد الأزهر، ثم نُقل إلى كلياته فعمل مدرسًا بكلية اللغة العربية ثم كلية أصول الدين.

عُين بعدها شيخًا لمعهد دسوق الديني، ثم انتقل شيخًا لمعهد أسيوط الديني ما بين عامي ١٩٥٣ - ١٩٥٤م، وبعدها شيخًا لعلماء الإسكندرية وعميدًا لمعهدها لمدة عشر سنوات. وفي هذه الفترة اشترك بمهرجان الغزالي الذي أقيم في دمشق، وقدم بحثاً عنوانه: «مفتاح شخصية الغزالي: هل شكَّ حجة الإسلام؟».

بعدها انتقل إلى جامعة الأزهر عميدًا لكلية أصول الدين فكان آخر منصب تولّاه بمصر، حيث تولى عدة مناصب في دول عربية: فكان مديرًا لمعهد الدراسات العليا للدعوة الإسلامية بجامعة أم درمان، وأستاذاً بالجامعات الإسلامية في الكويت والمدينة المنورة، وأستاذًا زائرًا بجامعة بني غازي.

أما آخر منصب علميّ تولاه فهو منصب أستاذ الدراسات العليا للحديث بجامعة الملك عبد العزيز - أم القرى الآن - بمكة المكرمة، ثم تقاعد من هذا العمل وتفرغ بالقاهرة لإتمام الكتاب الذي نُعرِّف به، حيث تُوفي يوم ٩ نوفمبر «تشرين الثاني» من عام ١٩٨٠م، رحمه الله.

■ حياته العلمية:

تتلمذ على كبار علماء الأزهر، وأبرز من تأثر بهم الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ الجبالي. ولقد تخرجت على يديه أجيال من التلاميذ انتشروا في أنحاء العالم الإسلامي، وكان معروفاً بشدته على تلاميذه في جهدهم العلمي، ولا يرضى إلا بالإتقان والعمل المستوفي لجوانب الجودة، وهو منهج مشايخ وعلماء الأزهر من الجيل القديم.

عمل محررًا في مجلة الأزهر، ثم في جريدة الأهرام، وكان يقرض الشعر، وله قصائد منشورة، كما كانت له مساجلات أدبية كالتي بينه وبين محمد فريد وجدي.

لكن جهده العلمي وإسهامه الفكري انصبّا في مجال تحقيق التاريخ الإسلامي، فكتب: «عثمان بن عفان» و«خالد بن الوليد» وقد قوبل الكتابان بالحفاوة في المحافل العلمية، وقدّم للأخير الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى.

بقلم : عبد الستار الشيخ

■ آثـــار المـــــؤلف

١ - كتاب « عثمان بن عفان » .
٢ - كتاب « خالد بن الوليد » .
٣ - كتاب « حجة الإسلام الغزالي المفكر الثائر » .
٤ - القرآن الكريم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين .
٥ - التصوّف في الإسلام (منـابعـه وأطواره) .
٦ - الموسوعة في سماحة الإسلام .
٧ - محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته .
٨ - حرية الفكر في الإسلام .
٩ - الأدب بين القديم والحديث .
١٠ - عظمة محمد ﷺ في رسالته .
١١ - الدين منبع الإصلاح الاجتماعي .
١٢ - من رياض القرآن .
١٣ - موقف الإسلام من المختـرعـات الحديثة .
١٤ - بيني وبين الأستـاذ محمد فـريد وجدي (الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام) .
١٥ - ردُّ مزاعم رسالة في قراءات القرآن .
١٦ - سنن الله في المجتمع من خلال القرآن .
١٧ - الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن .
١٨ - نحو منهج في تفسير القرآن .

●● [وأما ما لم يُطبع فهو] :

١ - نفحات الإنعام في تفسيـر سورة الأنعام .
٢ - النقد الأدبي عند العرب .
٣ - تفسير سور : التوبة والروم ولقمان والسجدة « حلقات تلفزيونية » .

وصف الكتاب ومادته ومنهجه

■■ عنوان الكتاب « محمد رسول الله ﷺ : منهج ورسالـة - بحث وتحقيق » . بلغت صفحاته ٢٦٦٠/صفحة ويقع في أربعـة مجلـدات ، وهو من منشـورات دار القلم بدمشق .

■■ ومادة الكتاب التي بُني عليها صرحه - كما يقول المؤلف - هي : أولاً القرآن الحكيم من بين دفتي المصحف ، مع إعمال النظر في تفاسير المفسرين . ثانياً : السنة المطهرة التي صحّ نقلها عن رسول الله ﷺ ، وهذه الصحة لاتقف عند صحة السند ، بل لابدّ فيها من صحة المتن : بل هذه الأخيرة أجلّ وأعظم ، ونعني بصحة المتن عدم مخالفته لأصل من أصول الإسلام ، فإذا جاءت رواية تمسّ عصمة الرسول ﷺ وجب طرحها كان مَنْ كان راويها لأنه غير معصوم .

■■ منهج الكتاب : تتبع المؤلف النصوص في الموضوع الواحد ، والمسألة الواحدة ، ثم ناقش تلك الـروايات ، واستخلص من أضابيرها الصحيح الذي يتفق مع القرآن العظيم ، ويتفق مع حياة رسول الله ﷺ منذ ولادته إلى أن فارق الدنيا ، وفي ذلك يقول : « وعمود البحث في منهجنا هو ما أصّلنا في كتبنا ومؤلفاتنا ، ولا سيّما التاريخية منها : أننا نقرأ ونقرا ، حتى نظنّ أننا استوعبنا أو قاربنا ، ثم نفحص ونمحّص ، ونوازن وننقد ، ونعتمد ما تثبت لدينا صحته سندًا ، ويدخل في وصيد القبول متناً وأصلًا ، ولم يعارضه من مدركات العقل والعلم ما يعلو عليه ، مع إيماننا أن للعقل حدًّا يقف عنده ، ولقضايا العلم مـوضوعـات تنتهي عندهـا ، وهما محجوبان عن عالم الغيب ، مقصّران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة » .

وكـانت للمؤلف في كتـابـه تحقيقـات وتعليقات وبحوث حمل فيها قلم العـالم المتعمق ، والبـاحث المحقق ، والمـؤرخ الناقد ، والأديب المبدع ، أعانه على ذلك اختصـاصه ، وتـدريسه سنـوات عديـدة للحديث الشريف ، وطول معاناةٍ وبحث في كتبِ التاريخ ، وسعة عارضة في لغة القرآن ، تلمح من خلالها أسلوب الرافعي في دقة التصوير وجزالة العبـارة . وتراه يحتـدُّ أحياناً لخطورة المسألة التي يناقش ، حيث يأبى عليه إيمانه أن يرى بعض الأدران عالقة بثياب السيرة المطهرة !!

ولقـد نـاقش المؤلف من خـلال تلـك التحقيقات بعض الأفذاذ من أعلام علماء الإسلام ، ومنهج النقد لتصحيح المسـار وكشف الأخطاء أصّله القرآن الكريم ، وسلكه أئمة الهدى عند تدوين السنة ؛ فلولا علوم الرجال والجرح والتعديل لضاعت السنة الشـريفة ، ولاختلط الصحيـح بالسقيم ، والمتصل بالمنقطع ، ولَمَا عرفنا حال سعد من سعيد ! ولأن هذه النقطة تمثل أبرز معالم البحث أوضحناها ابتداءً ، وأثبتها المؤلف في مقدمته قائلًا : « وهذا الكتاب لا يعطي زمامه إلا لمن يقرأ متحرر الفكر ، لا تخدعه الهالات المشهرة ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

■ موضــوعات الكـتاب

بدأ المؤلف كتابه بمقدّمات ممّهدات عن « محمدﷺ من نبعته إلى بعثته » تحدث فيها عن البيئة الطبيعية والاجتماعية لحياته عليه الصلاة والسلام ، وأسرته وخصائصها ومكانتها في العرب ، أبرز فيها إنسانية رسول الله ﷺ وكيف عاش في بيئته بخصائصه ، فكان صورة فيها لا صورة منها ، عربيًا متكامل الخَلْق والخُلُق ، متنائيًا عن مزالق العبودية لغير الله تعالى .

ووقف عند الإرهاصات والآيات الكونية التي رافقت ولادته وامتدت حتى وفاته ، وناقش فيها العقلانيين مبينًا أن كثيرًا من حقائق الكونِ العقلُ معزول عن إدراكها لأنه محدود التكوين .

وبعد تلك المقدمات أجرى الحديث عن الوحي والنبوة وحقيقتهما ومعناهما ، وأطال الكلام عن نبوّة محمد ﷺ ، وغاص في أعماق اللقاء الأول بين جبريل ورسول الله ﷺ ، وتفتقت تحليلاته عن لآلىء الحِكَم وجواهر العبرِ في غطّ جبريل النبيَّ ﷺ ، ودوافع ذلك الغطّ وآثاره . وهنا ناقش الملاحدة فيما كان يعتريه ﷺ حين تلقّيه الوحي مناقشةً علميةً مستقاةً من القرآن وومضات العقل . ثم عرض لقوله عليه السلام (أي خديجة : مالي ؟ لقد خشيت على نفسي) فأورد الآراء التي قيلت في ذلك ، وناقش بعض الأكابر مثل أبي بكر الإسماعيلي ، فاستغرق ذلك قرابة خمسين صفحة .

ثم وجه البحث إلى « أقصوصة التردِّي من شواهق الجبال » تلك الأبطولة التي تُنْسب إلى رسول الله ﷺ محاولة قتل نفسه في مدة فترة الوحي ، بإلقاء نفسه من ذرا شواهق

محمد الصادق عرجون

الجبال ليقتلها !! وتُلْصَق الرواية بصحيح البخاري فتسير بسيرورته إلى عقول المسلمين ، وهي من أنكر المنكر وأبطل الباطل . هذه الأبطولة رواها الزهري بلاغًا ، وأُلصِق هذا البلاغ الزائف بحديث « بدء الوحي » في كتاب « التعبير » من صحيح البخاري ! قال الزهري : (وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غداً منه مرارًا كي يتردى من شواهق الجبال ....) !!! ويحمل المؤلف قلمه الناقد ويلقي بسياط فكره على هذا البلاغ اللصيق ويبطله من خمسة أوجه ، ويناقش من زلّت قدمه في تفسير هذه الرواية التافهة ، ليطهر السيرة منها ، ويسد الثغرات أمام كيد المستشرقين والسمّاعين لهم[1] .

ثم يتحدث عن « أسبق السُّبُق إلى الإسلام » . ويحقق أول ما نزل من القرآن ، ويتكلم عن الخطوات الأولى في سير الرسالة والاستسرار بها ، ويقف وقفة طويلة محللاً لنفحات الإعجاز في إسلام عمر رضي الله عنه ، محققاً لحديث : (اللهم أعزّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبي جهل ، أو بعمر بن الخطاب) ويميل إلى توهينه بالأدلة النقلية والعقلية .

ينتقل بعد ذلك للحديث عن أمر النبي ﷺ صحابته بالهجرة إلى الحبشة ، ليخرجوا بالدعوة وتبليغ الرسالة إلى مجال يجدون فيه أرضًا يستنبتونها ، ويبين بيانًا شافيًا أن المهاجرين كانوا من أهل الرسوخ في الإيمان واليقين ، وكان منهم كثرة غامرة من أعلياء بيوت قريش : مَنَافِيِّين ومَخْزوميين وزُهْريين ، لا كما تقول بعض الروايات إنهم كانوا من الفقراء والعُبدان والضعاف ! ثم كتب فصلاً مسهبًا في أخبث قصة اشتملت عليها أحداث السيرة - « قصة الغرانيق » - هذه الأكذوبة الخبيثة التي تهدم أصل أصول الإسلام وهو « النبوة » ، وتريد من المسلمين أن يجعلوا رسول الله ﷺ ألعوبة في يد الشيطان ، يلقي على لسانه كلامًا كله كفر يخلطه بالقرآن ، ولا يتنبه الرسول أفصح البشر ولا المسلمون الذين سمعوا منه تلك الآيات المزعومة ضمن سورة النجم !! ولست أدري كيف زحفت هذه الجرثومة الخبيثة إلى سيرة سيد المرسلين ؟! وكيف قبلتها عقول أفذاذ العلماء بلْهَ الأمة الإسلامية جميعاً ؟! تقول الأبطولة في إحدى رواياتها المهلهلة : « قال السيوطي : وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : خرج النبي ﷺ إلى المسجد ليصلي ، فبينما هو يقرأ إذ قال : ﴿ أفرأيتم اللات والعزّى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ فألقى الشيطان على لسانه ، فقال : تلك الغرانقة العلى ، وإن شفاعتهن ترتجي ! حتى إذا بلغ آخر السورة سجد وسجد أصحابه ، وسجد المشركون لذكره آلهتهم ، فلما رفع رأسه حملوه فاشتدوا به بين قطري مكة ، يقولون نبيّ بني عبد مناف ، حتى إذا جاءه جبريل عرض عليه ، فقرأ ذينك الحرفين ، فقال جبريل : معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا ؟!! فاشتد عليه ، فأنزل الله يطيب نفسه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك .... ﴾ » الآيات . ويسوق المحقق الباحث خلال هذا الفصل روايات هذه الأقصوصة كما أوردها السيوطي في « الدرّ المنثور » فبلغت أربع عشرة رواية ، ويحمل قلمه الناقد المخلص الجريء المدافع عن حياض النبوة ، ويعقب على الروايات بكلام أفرغ الحق في قالبه ، وأبطل هذه الأكذوبة « الغرنوقية » المتزندقة من جهة العقل والنقل ، فقتلها بحثًا ، وبهرج أسانيدها ، ومزّق أديمها ، وأدرجها في أكفانها .

ثم ناقش كبار العلماء الذين زلّت أقدامهم في تفسير هذه الأبطولة البلهاء ، وخصّ بالمناقشة اثنين من الأكابر : أولهما : الحافظ الكبير ابن حجر العسقلاني الذي التمس للقصة طرقًا ، وقال بأن لها أصلاً ، كما جاء في فتح الباري ، الجزء الثامن ، عند قول البخاري : « وقال ابن عباس : إذا تمنىٰ ألقىٰ الشيطان في أمنيته » . وثانيهما : الإمام العلامة الشيخ ابن تيميّة الذي عرض لأقصوصة الغرانيق في فتاواه بصورة استطرادية وهو يجيب على سؤال يتعلق بدعوة يونس عليه السلام : مستندًا إلى عموميات ساقها وكأنها قضايا مسلّمة ، وهي أحوج ما تكون للبحث والتمحيص ، أوردها الباحث وردّ عليها بالحجة والبرهان .

وإنما أطال رِشاءَ القول مع هذين الإمامين - كما يقول - « لمكانهما من العلم والمعرفة ، ولما لهما من التوقير والتقدير بين رعيل الأئمة الأعلام ؛ دفعاً للخشية على قلوب كثير من المؤمنين خاصة وعامة أن يخونها الاعتقاد في مكانة الشيخين » « ولأن نغلّط بعض الرواة ، أو نزيّف رأي بعض أصحاب الشهرة الراوية التي تحمل فوق هاماتها هالات التقديس الذي لا يقبل النقد والمناقشة عند مقلّديهم - خيرٌ ألف مرة من تسليم ما ينسب إليهم في هذه الأقصوصة الخبيثة التي تعصف بالإيمان عصفاً يلقيه في مهابّ الشكوك والحيرات » . ويتبع ذلك بالحديث عن آراء حذّاق العلماء الذين نقدوا تلك الأبطولة ، وعلى رأسهم القاضي الأجلّ عياض بن موسى في كتابه « الشفاء » فاستغرق معه الكلام على هذه الأكذوبة ١٢٥ صفحة .

ثم يتابع سير الدعوة في المرحلة المكية فيتكلم عن الجهر بها ، ومحنة الحصار الاقتصادي « حصار الشِّعب » ، يتلوها الحديث عن عام الحزن ، ورُزْء الإسلام ونبيه ﷺ بوفاة خديجة ، ثم سعيه عليه السلام إلى الطائف ، يتلوها حديثه عن « حفاوة الحبيب بالحبيب : الإسراء والمعراج » فكانت له جولات ونظرات ، وتأملات وتحليلات ، تستهوي القلب وتستولي على الفكر . وينتقل الكلام عن لقاءات الأنصار برسول الله ﷺ ، ويسلط

■ صحة السُّنة لا تقف عند صحة السند بل لابد فيها من صحة المتن : وهذه الأخيرة أجل وأعظم : ونعني بصحة المتن عدم مخالفته لأصل من أصول الإسلام . فإذا جاءت رواية تمس عصمة الرسول ﷺ وجب طرحها - كان من كان راويها - لأنه غير معصوم ■

الضوء على بيعة العقبة الكبرى التي سماها بحق « فتح الفتوح » ويختم حديثه عن المرحلة المكية بالتحقيق في أحداث الهجرة النبوية ، فيميط اللثام عن موقف غريب جداً في ليلة الهجرة وائتمار المشركين لقتل رسول الله ﷺ ، حيث لم يجد ذكرًا قط لبني عبد مناف عامة والهاشميين خاصة إزاء هذا التآمر الدنيء ، ويتساءل قائلاً : « أين بنو عبد مناف ؟ وأين الهاشميون ؟! » محاولاً بأسلوبه البديع وفكره النفّاذ أن يجد الجواب على ذلك .

■ ثم يبدأ الرحلة إلى المدينة آخذاً بركاب رسول الله ﷺ وصاحبه الصدّيق ، فيجيل فكره في كل حادثة من حادثات الطريق لها أهمية في إبراز معالم منهج الرسالة ، ويصور لقاء أهل المدينة بالركب الميمون ، وبناء المسجد النبوي ، ورسالة المسجد في الإسلام ، ثم عقد المؤلف فصلاً للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ناقش خلاله رأي القائلين بالتوارث بينهما ، وأبطله بالأدلة التاريخية والوقائع النقلية ، وأثبت أن تلك المؤاخاة تكافلية رفعت الأنصار إلى أن سجل القرآن موقفهم فبلغ به درجة الإيثار ، ويعرض للحديث عن انتقال الدعوة إلى الجهاد القتالي بعد أن استُنفد جهاد الحجة والمجادلة بالتي هي أحسن .

■ بعدها ينتقل للحديث عن الغزوات ، والبعوث ، والسرايا ، لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة وإزالة العقبات من طريقها ، ويقتصر في التحقيق على أهمها : فيتحدث عن غزوة بدر ، ويقف مع قضية الأسرى وما نزل بشأنها في القرآن من معاتبة على أخذ الفداء ، ويبطل بالأدلة الواضحة مزاعم من أدخل النبي ﷺ في هذه المعاتبة ، ويبحث بمسألة شهود الملائكة بدرًا وهل قاتلت أم لا ؟ ويختم الحديث عنها بما تفردت به . يعقبها الحديث عن غزوة أحد فيقف مع آيات العتاب التي نزلت بها سورة آل عمران ، ويحللها تحليلاً يبين فيه أنها من أبرز معالم منهج الرسالة في علاقة القائد الأعظم بكتائبه وجيوشه ، ثم يوضح الأسباب المباشرة للغزوة . ويدلف منها إلى « بعث الرجيع » فيبحث بأسبابه وأحداثه ونتائجه . ثم يوجه البحث باستفاضة إلى سرية بئر معونة موضحاً مجرياتها وحزن النبي ﷺ على « القراء » السبعين ، ويقف مع قضية خطيرة هي النسخ في القرآن ، فيحقق في الرواية التي جاءت على ألسنة القراء أنه نزل فيهم قرآن « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » وتقول الرواية إنه نُسخ أو رفع أو نُسي !! جاء ذلك في البخاري موقوفاً على أنس ولم يرفعه للنبي ﷺ ! وثبوت القرآن لا يكون بحديث آحاد صحيح مرفوع فضلاً عن أن يكون موقوفاً ؛ بل لابدّ فيه أن يكون متواترًا . وهو معارَض بحديث مرفوع في البخاري يذكره المؤلف . ثم يستطرد بالحديث ويناقش السهيلي فيما أورده من أن حديث : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً » هو قرآن نزل من عند الله ثم نسخ !! ويرخي لقلمه العنان ويحقق في قرآنية « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله » . وثمة روايات أخرى جاءت في أمهات الكتب ساقها الباحث وحقق القول فيها ؛ مما يوجب على كلّ مسلم الاطّلاع على هذا البحث الخطير .

ثم يتابع الحديث عن الغزوات ، وفي كل منها مواقف مثيرة تعثرت فيها الروايات ، فبذل المؤلف خلاصة فكره لتحقيق الحق . وفي أثناء عرضه لحادثة الإفك استبعد أن يكون قد شارك في موبقته واحد ممن ثبتت له صحبة النبي ﷺ ، ويمشي مع الأحداث ، فيجيء صلح الحديبية فيعطيه حقه من البحث والتحقيق وتأصيل معالم منهج الرسالة ، أعقبه بالحديث عن الفتح الأعظم ، فبحث مقدماته ونتائجه وما اشتمل عليه من أمور دينية واجتماعية وآداب تربوية . ثم تكلّم عن غزوة حنين وما فيها من دروس وعبر لتربية المجتمع المسلم . وختم الحديث عن الغزوات بغزوة تبوك فناقش أسبابها بالبحث والتحقيق ، والنقد والتمحيص للروايات ، مبيناً أن السبب الحقيقي لها هو التطبيق العملي لعموم الرسالة ، واستجابة من رسول الله لأمر ربه : ﴿ يَاأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ ، ويتكلم عن خصائصها ، ثم يفصل القول في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا . ويختار أخيراً من أحاديث الوفود ما صحت روايته وكان فيه شيء من معالم منهج الرسالة .

ولكن : هل تمَّ الكتاب ؟ لقد ذكر الباحث رحمه الله - في مقدمته أنه أفرد باباً للحديث عن موقف اليهود من الإسلام ونبيّه ومجتمعه ، وبابًا آخر للحديث عن الشمائل النبوية والأخلاق الذاتية لرسول الله ﷺ مع الناس والحياة !! ولكن شاءت الأقدار الحكيمة ألا يتمَّ له ما أراد ؛ فاخترمت المنية الشيخ وهو يزرع أزاهيره في جنان السيرة النبوية ، وتوقف قلمه عند أحاديث الوفود ، ووفدت روحه إلى بارئها ! ولم يكتب لنا في حجة الوداع ، ووفاة الرسول ﷺ وشمائله ، واليهود في السيرة من خلال غزوات بني قينقاع والنضير وقريظة ، وإن كانت قد مرت إشارات عابرة عنهم في ثنايا الكتاب .

وعزاؤنا أنه كتب في جلّ أحداث السيرة المطهرة ، فأخرج هذا السِّفر الجليل الذي عرفنا إخواننا القراء به ، وما كتبناه ليس إلا إضاءة خافتة تدلّ ولا تغني عن رؤية الشمس والاستنارة بضوئها والانتفاع بجذوتها .

ولسنا ندعي لهذا البحث العصمة ، وأن كل ما جاء به لا مرية فيه ولا يرد منه شيء ؛ فهذا ما لا يكون لكتاب بشر ، ولا يفوه به عاقل ! ولكن نقول بحق - وما شهدنا إلا بما علمنا - إنه خطوة رائدة ، وإضافة جديدة جليلة ، وبحث فريد ، فتح به بعض المغاليق ، وترك لمن خلفه الباقي بعد أن أنار له الطريق ، والرائد لا يخون أهله . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

---

(١) التعريف بالمؤلف وآثاره أخذته بتصرف مما كتبه الدكتور محمد بهي الدين صادق عرجون في نهاية الكتاب .

(٢) تعرض لهذه الأبطولة الأستاذ المحدث ناصر الدين الألباني ، وكذلك الدكتور محمد محمد أبو شهبة باختصار ، بيد أن المؤلف هنا أفاض القول فيها وأوسعها بحثاً ، وألقى بها في أودية الفناء .